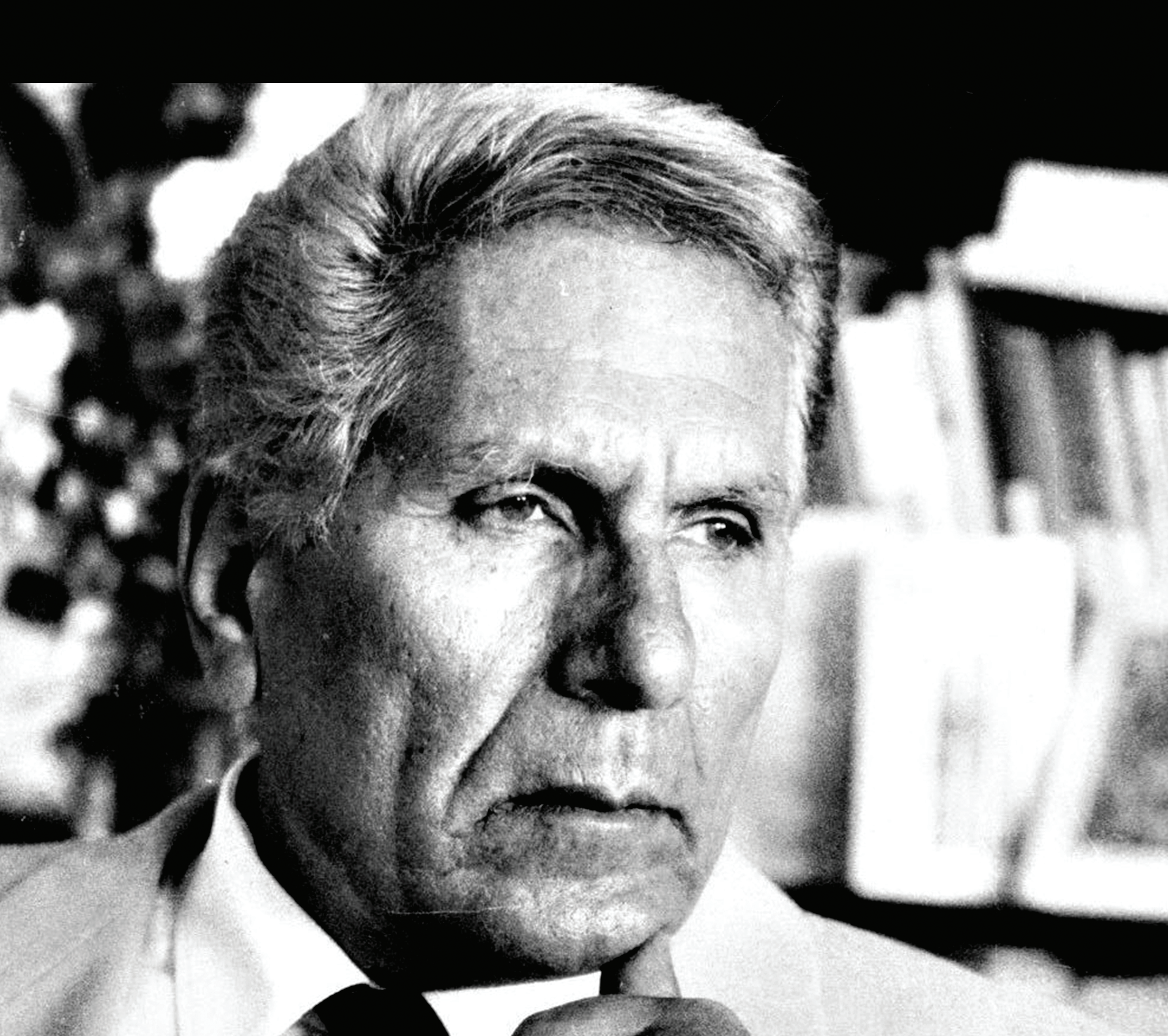
فقر الفكر
وفكر الفقر

يوسف إدريس



فقر الفكر وفكر الفقر

تأليف
يوسف إدريس



فقر الفكر وفكر الفقر

يوسف إدريس

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: عبد العظيم بيدس.

الترقيم الدولي: ٩ ١٦٤٠ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

المحتويات

تقديم

هذا مشروع عمره أكثر من ثلاث سنوات.

الفكرة ظلَّت تُطاردني، وهي للآن لا تزال تُطاردني.

وكلما رأيتُ ما صارت إليه حياتُنا وما تَصير إليه أُحسُّ إحساسًا محضًا أني لا بُدَّ أن أُخرج للناس ذلك الكتاب الذي كتبتُه على فترات متقطِّعة، وعلى هيئة حيثيات مستقلة؛ ذلك أنَّ تلك الظاهرة، ظاهرة فقر الفكر وفكر الفقر، أو الفقر في الأفكار المؤدِّية إلى فقر في الحياة والإنتاج، والفقر في الحياة والإنتاج حين يُؤدِّي بدوره إلى فقر فكري، وهكذا دواليك. تلك الدائرة الجهنمية المُفرَغة التي دخلناها وأصبح حلم حياتنا الأكبر، وحلمي بشكل ثابت خاص، أن نخرج منها. تلك الفكرة لها ألف ذراع وامتداد وشاهد، فكرة أخطبوطية تمامًا من الصعب الإمساك بتلابيبها كلها، بل كل ظاهرة منها تتكشَّف عن بئر مخبوء من الظواهر والأسباب والملابسات والنتائج، بحيث من الممكن أن يقضي الإنسان عمرًا بأكمله ولا يصل إلى الإحاطة بها كلها.

ولهذا فحين أُقدِّم تلك (المحطات) المذكِّرات والانطباعات والحقائق والتصورات، إنما أُقدِم على شيء صعب وشاق تمامًا، الإحاطة بما لا يمكن الإحاطة به إلى الآن، ولكنها أمر واجب ومحتَّم ولا بُدَّ لإنسانٍ ما أن يقوم به، فإذا كان التهديد الخارجي لحياتنا ومن هم متقدمون عنَّا علمًا ودهاءً وتكنولوجيا، فإن تهديدًا آخر أصعب يَنخر فينا من الداخل؛ وهو تهديد أصعب لأن من الصعب تمامًا رؤيتُه وقد تنكَّر لنا في أشكال وأنواع من الموجودات والموروثات، حتى أقدس أقداسنا تنكر به.

إن هي إذن إلا مُحاوَلة للتشخيص، ولقد تعلَّمنا في الطب أن التشخيص ليس فقط ثلاثة أرباع العلاج، ولكنه هو العلاج نفسه في حالتنا تلك؛ إذ إن الشعوب حين تعرف بالدقة

مشاكلها فإنها بالتلقاء وبالسليقة وبغريزة الدفاع عن النفس التي ركَّبتها فيها الحياة، تَنفضُ عن نفسها أوتوماتيكيًّا ما أدركته من مشاكلها، فما بالك وهي ليست مشاكل، إنها أخطار ماحقة، مجرد إدراكها قفزة هائلة في وعينا بأنفسنا وما تُضمره لنا الأيام، وما يضمره لنا الآخرون …

فلنُحاول إذن أن نرسم الدائرة الكبيرة التي تُشكِّل ذلك الخطر، ولا نُسرع أو نتسرَّع في الحكم على كل جزء من الدائرة على حِدَة، فإن الرؤية، حين ننتهي، ستكون أكثر وضوحًا بكثير.

وبالله نستعين.

دكتور يوسف إدريس

القاهرة، أغسطس ١٩٨٤

الفصل الأول

فكر الفقر وفقر الفكر

«منذ مدة طويلة وهذ الخاطر يلحُّ عليَّ، كلما سمعت وقرأت ورأيت كثيرًا الأحاديث والفقرات والمقالات أقول لنفسي: هذا فكر فقر، وكلما قرأت الجرائد واتَّضح لي كثير من الأزمات أقول: هذا هو فقر الفكر.»

فالفقر له فكر معيَّن، وحين أقول الفقر لا أعني شدة الاحتياج فقط، ولا أعني هبوط المستوى المادي لمجتمع إلى مستوًى أقلَّ من مثيله في البلاد الأخرى، ولكن الفقر المادي الحقيقي قد يكون لأناس ميسوري الحال، ولكن طريقتهم في التصرُّف في ثرائهم فقيرة غاية ما يكون الفقر. إنَّ الفقر ليس وضعًا اقتصاديًّا فقط، إنه وضع من أوضاع البشر، وضع عام، يتصرَّف فيه الإنسان بفقر، ويُفكِّر بفقر، أفكار تؤدِّي إلى فقر أكثر واحتياج للغير أكثر، بمعنًى آخر هو مرض يُصيب الاقتصاد ويصيب العقول ويُصيب الخيال أيضًا.

ونحن مغرمون دائمًا بكلمة أزمة، نطلقها على كل شيء؛ أزمة لحمة، أزمة مساكن، أزمة ثقة، أزمة قصة، أزمة مواصلات، والذي أريده هنا هو أن نمتنع تمامًا عن ذكر كلمة أزمة، أو نتأدب ونضحك على أنفسنا ونُسمِّيها اختناقًا أو اختناقات؛ فالكلمة الحقيقية التي لا بُدَّ أن نستعملها هي كلمة فقر، وإذا أحلَلناها محل كلمة الأزمة، فإنني أعتقد أن الصورة تتَّضح بطريقة تساوي نصف الحل؛ فلو قلنا فقر لحمة، وفقر مساكن، وفقر ثقة، وفقر مسرح، وفقر سينما، وفقر صحافة، وفقر كتابة، لكانت التسمية والتشخيص أدق. الفقر هنا بالضبط هو عكس الغِنى، والغِنى ليس الغِنى المادي، إنما هو أوَّلًا وأساسًا غِنى النفس، النفس الغنية غنية حتى لو كانت تَقتات أو حتى تبيت على الطوى، والنفس الفقيرة فقيرة حتى لو كانت تملك الملايين. ذلك المليونير الذي لم يَمتلك يومًا كتابًا ولا عرف إلا أغاني «السح الدح امبو» موسيقى، والذي كلُّ متعه في الحياة أن يأكل الكباب ويَشرب

الويسكي أو الحشيش ويُزاول الحج وهو لا يعرف معناه، ويعود ليشتري كاسيتات الفيديو (الثقافية-الجنسية تمامًا) أو أفلام سينما هذه الأيام؛ مليونير كهذا، أيُعَدُّ غنيًّا؟!

إذن ماذا يكون الفقير، إني أعرف فقراء يَعيشون بصعوبة، ولكن ثراءهم الروحي يُتيح لهم أن يستمتعوا ويُمتِّعوا مَن حولهم. أعرف رجلًا مليونيرًا صاحب عمارات كبرى في حين يعيش كما ذكرت وعمره ما فكَّر أن يدفع ضرائب أو زكاة أو حتى يَشتري عربة إسعاف. وأعرف السفرجي الذي يعمل عنده، والذي فوجئتُ ذات يوم بثلاجة كولدير للشرب موجودة بجوار العمارة التي يمتلكها المليونير، وظننتُ أن المليونير فتَح الله عليه وفتح نفسه لفعل الخير وإسعاد الناس؛ فالمنطقة التي توجد بها العمارة منطقة يَكثُر فيها العمال والسائرون وتتمتَّع بجو قائظ خانق، وما أروع أن توجد ثلاجة شرب مياه نقية عذبة باردة وسط هذا القيظ! غير أني فوجئت أن الثلاجة قد أقامها السفرجي بجنيهاته التي يَكسبها من الطهي في الأفراح (وطبعًا ليس من مرتبه لدى المليونير)، مات ابنه الشاب، ولو حدث هذا لرجلٍ غنيٍّ لملأ الدنيا نواحًا وأغلق على رُوحه الباب، ولكن الرجل الطيب السفرجي أحب أن يُحيي ذكر ابنه بطريقة غريبة جِدًّا، إنسانية جِدًّا، فأقام هذه الثلاجة ووهبها لروح ابنه.

أرأيتم غِنًى أعظم من هذا؟

من المليونير ومَن الفقير؟

الفقر إذن حالة تأخذ أحيانًا شكل الجشع المادي الخارق، وفي رأيي ليس هناك «أزمة» لحمة، هناك جشع إلى اللحمة؛ إنَّ كل أسرة مصرية متوسِّطة — وهي أصبحت الآن تُعَدُّ بالملايين — لا تحسُّ أنها أكلت إلا إذا كان قوام الطعام لحمة، وهكذا يكثر الطلب ويقلُّ العرض، ويتكون المليونيرات الجزارون، وقِس على هذا كل شيء؛ الشُّقَق لا بُدَّ أن تكون من ثلاث حجرات على الأقل؛ حجرة صالون وسفرة ونوم، وأزمة سكن مُمكن أن يَحُلَّ نصفَها على الأقل نموذجُ الشقة صالة وحجرة، ويَحُلَّ معها مشكلة غلاء الموبيليا وكثيرٍ من احتياجات المنزل.

هذا وجه للفقر، وهناك الوجه الآخر دائمًا، وجه الفقر المادي الحقيقي الذي يَطحن حتى النفوس الغنية تمامًا، وهو والحمد لله متوافِر وموجود بكثرة رهيبة، وهو أمر لا خلاف عليه، وإنما أحببت أن أوضِّح أننا نُعاني في هذه الأيام بالذات فوق فقر الفقراء مِن

فَقر بعض الأغنياء أيضًا، وهو أمر نادر الحدوث إلا أن يكون الغِنى نتيجة جشع شديد مسعور يُصاحب الإنسان حتى بعد أن يغتني.

هذا الفقر بنوعَيه يُفرز في النهاية أفكارًا فقيرة، ومُعتقَدات أكثر فقرًا أشدها وأخطرها تمامًا، وقد حوصر المواطنون في الفقر، أن يلجأ كثير من مدَّعي التفكير والغوغائيين إلى فهم خاطئ تمامًا للدين، يُلقنونه لأولئك المحصورين في الأزمة الخانقة باعتباره الخلاص، وهي أفكار ما كان يمكن أن تزدهر أو تجد لها صدًى عند العامة لو لم تكن هناك أزمة فقر طاحن، بل الأخطر من هذه الأفكار أنها دائمًا تَحمل حلولًا متطرفةً حتى لمشاكل الحكم، حلولًا متطرفة حادة حدة الفقر ولا إنسانية مثله. والإمام علي كرم الله وجهه يقول: لو كان الفقر رجلًا لقتلته. أمَّا هؤلاء المتطرفون فيقولون: ما دمنا فقراء فلنَقتُل الرجل. والرجل هنا هو أي رجل حتى لو كان عالمًا فاضلًا كالشيخ الذهبي.

لقد ظللت لثلاث حلقات مُتتابعة في التليفزيون أستمع إلى داعيةٍ إسلاميٍّ فاضل يناقش قضية الاسم والفعل والحرف في اللغة العربية في مجال شرحه لآيات من آيات القرآن الكريم، والناس قد شملهم الوَجدُ من روعة آيات الإعراب والشرح لمعنى الحرف والاسم والفعل ومواقعها من الجملة، ويَحدُث هذا في الوقت الذي كان لبنان فيه تجتاحُه جيوش النازية الجديدة وتقصف وتدكُّ بيوت المسلمين وتَنتزِع أرواح أطفال المسلمين ونسائهم وشيوخهم ورجالهم، والعالم الجليل يهتزُّ مُستمِعُوه على وقع شرحه لحرف الألف أو الياء؛ أو عالم آخر يستورد لنا أفلامًا من أمريكا ويُرى الجمهور المسكين هول ما تفعله الزلازل والبراكين، ويقول كلُّ هذا يحدث لأن الإنسان لم يَرعَوِ، ولأنه فاسق وكاذب ولص، وأن الكرة الأرضية ليست سوى قُنبلة زمنية سوف تنفجر لتُرسل أجساد الناس ودنياهم شعاعًا.

والجماهير مخلوعة القلب تتلظى بالخوف وبالرَّهبة، ولو كان العالم المذكور قد عرض فقط بعض أفلام تليفزيوننا التي أخَذَها مراسلون أجانب للهول الذي تُحدثه الشياطين والأسلحة الفتاكة في بيوت المسلمين فقط في لبنان لأرانا جهنم أخرى من صنع البشر الزنادقة أعداء البشرية وأعداء المسلمين بشكلٍ خاص، ولاستطاع أن يُجنِّد مشاعر جمهوره المسكين «للوعي» بما يَحدث لهم ولأمتهم، ولـ «مقاومة» هذا الحادث؛ تطبيقًا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾، وليس لتَنتهزوا فرصة أزمتهم الروحية والمادية لـ «تُغيبوهم» عن الوعي بأعدائهم و«تخدروهم» تحت زعم تفسيراتكم الشخصية للدين والله والإيمان. إنَّ

المؤمن الحق هو من يدافع عن إخوته في الدين وليس من يُغيبهم عن الوعي بأعدائهم وليس من يتصوَّف «على الهواء»؛ فالمتصوفون القدامى كانوا يلجئون للمَغارات في المقطم وبعيدًا عن الناس ليتأملوا لأنفسهم أوَّلًا، ولخلاصهم الذاتي، أمَّا من يتصوَّف «على الهواء» ليجعل الناس يهزُّون رءوسهم ذات اليمين وذات اليسار إعجابًا بمعسول قوله وببراعته في صياغة تشبيهاته وروعته في إرهابهم أو ترغيبهم بتمثيله، إنما — أيها الناس — يخدعنا عن حقيقة الخطر الماحق الذي يُحيط بنا، إنه يفعل معنا ما فعله أهل بيزنطة، ظلُّوا يُناقشون المنطق وأعداؤهم يُحيطون بهم حتى اقتَحموا المدينة وحتى المكان الذي كانوا يَتجادَلون فيه وقتلوهم عن آخرهم.

لقد زوَّد الله سبحانه وتعالى الإنسان بالعقل وبالحواس لكي يَعيَ ويُدرك الفرق بين الطعام الجيد والطعام المسموم، وبين الحلال وبين الحرام، وبين الأعداء وبين الأصدقاء وأهل الدين، وهذا الذي يحدث أمامنا صباح مساء من إهمالٍ كامل لأمور حياتنا، وهلوسَةِ دينِنا الحنيف على هذا النحو شيء خطير خطير، ويعود بنا إلى ما ذكرتُ من كونه الفقر الحقيقي للفكر المتولِّد عن فقر حقيقي مادي وروحي.

(١) الفقر في الأقوال والأفعال

وليس الفقر خاصًّا بالدعاة وحدَهم، إنه فقر عام، فكثيرًا ما أُراجع قرارات اللجان التي تَنعقِد وتنفضُّ، كثيرًا ما أمر على قرارات المؤتمرات وهي كثيرة، والشيء الغريب الذي أُلاحظه هو الفقر الشديد في ابتكار الحلول للمشاكل، ودليل واحد آخذه من هذا التخبُّط في قوانين كقوانين الجمارك والضرائب؛ فالقرار يَصدُر غير مدروس، وبعد صدوره يُعدَّل بقرار آخر، وقلَّة الدراسة راجعة لفراغ صبر مُعدِّ القرار وفقر اطِّلاعه على الواقع وعلى النُّظم المثيلة والحالات السابقة. مثل آخر: ألم يَستَطِع واحد، مجرد واحد فقط، أن يخرج لنا بفكرة نستطيع أن نُحضِر بها سمك السد العالي الذي يتوحَّش من تركه دون صيد إلى بقية أنحاء القطر لنَحُلَّ كثيرًا من أزمة اللحمة والبروتين.

هذا العدد الرهيب من السيارات الخاصة والسوزوكي والنقل، الذي ذكَر لي وزير اقتصاد سابق أنه نتيجة لاستيراد عربات النقل بلا أيِّ ضابط، فإن ٧٠٪ من قطارات البضاعة لا تَعمل، والأسفلت تحت العربات الرهيبة يتآكَل والطُّرق تتحوَّل إلى مطبات وتراب.

كل أزمة في مصر لا يوجد لها أيُّ حلٍّ مدروس أو غير مدروس، والنتيجة بالطبع أن الفقر يؤدِّي إلى فقر، والأزمة تؤدِّي إلى أزمات، بل إن هذه الأزمات نفسها، وهذا الفقر الفكري، يؤدِّيان في النهاية إلى قرارات فقيرة تؤدِّي بالضرورة إلى ازدياد الفقر.

(٢) وماذا عن فقر الفن؟

وإذا كُنَّا نتكلم عن فقر الفكر فلا بُدَّ أيضًا أن نتكلم عن فقر الفن، وأظن من يدخل مسارحنا ودور السينما لدينا ويتفرج على العيِّنات من «الفن» التي تُقدَّم يجد أنها ليست كما يقولون «فن فقراء»، ولكنه يَجدها إنتاج «الفقر الفني»، ولأن كثيرًا من القراء قد كفُّوا عن الذهاب لدور العرض للمُتفرِّجين «الكسيبة» جِدًّا، «الفقراء» جِدًّا، الذين يملئونها ببذاءاتهم وتبجُّحهم وقلَّة أدبهم وخروجهم عن كلِّ ما يمتُّ إلى الطبيعة بصلة، أبناء المدن المَهروسين في حاراتها، المَصفوعين من أُسطواتها، الذين بدءوا يَكسِبون ويُصبِحون بفضل «فقر الأيدي العاملة وهِجرتها» معلِّمين وهم يَطغون بأفلام تُخاطب نصفهم الأسفل، ومسرحيات تُخاطب دبورهم، وأغان، واسمح لي أن أستعرض معك إعلاناتها منقولة عن صحيفة يومية كبرى: الفنان الشعبي عزام «البنجاوي» في كاسيت «سيدي يا سيدي»، والفنان أبو الوفا السوهاجي وطبلة العربي (اسم مطرب أو مطربة لا أعرف)، وبس حنون أو حنون بس لا أعرف، والضَّحك أنه إنتاج «صوت الفضاء»، الفضاء يا عالم وفي عصر الفضاء، والفنان الشعبي مصطفى دبوس وأغنية يامه الدبور قرصني.

مظاهرة لفن الفقر وفقر الفن، وتأكيد مُطلَق أن الفقر يولِّد فكرًا مُتخلِّفًا يُؤدِّي بدوره إلى فقرٍ أكثر.

وإنَّ الفن الفقير يُؤدي إلى أرواح فقيرة تُنتج بدورها وتستقبل فنًّا فقيرًا يؤدي إلى فكر مادي حقيقي.

أقول هذا كله لأن مشكلتنا الأساسية أصبَحَت إمَّا أن نُنتج وإمَّا أن نموت استهلاكًا وفقرًا.

ولهذا كان لا بُدَّ لنا أن نتوقف طويلًا عند فقرنا الفكري وفكرنا الفقير كي نُناقش الخروج المحتَّم من الأزمة، وإلى الأسبوع القادم بإذن الله.

الفصل الثاني

أحداث بيروت وفقر الفكر

إلى أن ينجليَ الموقف في بيروت عن أغرب خروج حدث في التاريخ، دولة كالفتوَّة قد أخذت عاصمةً عربية رهينة على مرأى ومسمع من العالم مُستندةً إلى فتوَّة أعظم، تقتل النساء والأطفال لتُرهِب المقاتلين الرجال وتُرهب العالم، وهكذا بالقوة المُجرمة الغاشمة والعرب أجمعون لا حول لهم ولا قوة. ها هو الخروج الإجباري يحدث، بل وأكثر من هذا تتدخَّل دولة أجنبية وبقوة الغزو والاكتساح تُغيِّر من التركيب الديني لدولة أخرى ولتَفك حكومة ودولة علمانية … لتصنع منها دويلات عنصرية عرقية، وأيضًا على مرأى ومسمع من العالم، وبالذات من العالم الإسلامي المَهيض الجناح في اللعبة الإجرامية كلها.

إلى أن ينجلي الموقف إذن نكمل مناقشة موضوعنا — كما وعَدتُ القراء — عن فقر الفكر وفكر الفقر، وكأنَّما هما موضوعان مُنفصلان، وكأن الحادث في لبنان ليس أيضًا فقر فكر وفكر فقر، وكأن موقفنا من لبنان ليس بعينِه فكر الفقر وفقر الفكر.

الواقع أبدًا لا انفصال بين الحادث في لبنان والحادث لنا، وإذا كان الأطفال يُقتَلون في لبنان وكذلك النساء؛ فإن الأطفال في العالم العربي يَرضعون أفكارًا سقيمةً أشد فتكًا من القنابل العنقودية، والنساء في عالمنا العربي مقتولات روحًا وجسدًا وكرامةً. وكما أن الواقع واحد، فالمعركة أيضًا واحدةً. وإذا كانت الأقلام كلها في كل أنحاء العالم قد أجمَعَت على استنكار الموقف العربي، فهذا المَوقِف لم يأت من فراغ؛ إنه نتيجة محتمة «لفراغ» العقل العربي، وبالتالي انعدام الإرادة العربية؛ فالإرادة والفعل والموقف أشياء لا بُدَّ أن تنبع عن فكرة وتفكير وإعمال هائل للذهن، فإذا لم يكن هناك ذهنٌ يعمل وإذا كان العقل قد خوى إلا من التفكير في سدِّ الغرائز وضمان المستقبل الفردي، إذا كانت دائرة الأفكار قد ضاقَت حتى لم يعد المواطن في مصر أو في غيرها من البلاد العربية يرى إلا ما حولَ وأمام أقدامه مباشرةً، فكيف نطلب منه أن يرى عدوَّه، بل أن يُقاتل أو يُقاوم عدوه.

وأنا هنا لن أبدأ بلوم المُواطن الحالي أو الشاب العربي الحالي، فسوف أكون صريحًا جِدًّا، وليَغضب مَن يَغضب، وأُناقش جذور المشكلة، تلك الجذور التي خلقت وأنبتَت مواطن اليوم، وأثَّرت في العقل ودائرة التفكير المصرية والعربية إلى آخر مدى.

الجذور للأسف تمتدُّ إلى بداية عصر الاستقلال بالنسبة لمصر والعالم العربي.

وكما قلت في مقال سابق عن الهند إن من حسن حظها أن فترة ما بعد الاستقلال كانت امتدادًا طبيعيًّا وديمقراطيًّا لفترة ما قبل الاستقلال؛ بحيث إن حزب المؤتمر الذي قاد معركة الاستقلال بكل القواعد الديمقراطية المعمول بها في أرقى دول العالم، فبعد الاستقلال لم تنشأ دكتاتورية عسكرية أو غير عسكرية في الهند، تَقضي على الديمقراطية وتأخذ الحكم عنوةً وتُقاوم التفكير وليس فقط أي مبادئ يَعتنِقها الفرد، وإنما أي تفكير يَخطر على باله ما عدا التفكير في الإشادة بالحكم الغاشم الذي يَستولي على السلطة في بلده.

وقد يتساءل بعضهم وما علاقة الفكر بالديمقراطية؟ إنَّ الفكر خاصية من خواص البشر يُزاولونها في كل الظروف، وهذا صحيح، ولكنَّ هناك فارقًا كبيرًا بين مزاوَلة التفكير على المستوى الفردي، ومزاولة التفكير على المستوى الجماعي، نفس الفارق بين الذكاء على المستوى الفردي والذكاء على المستوى الجماعي. وأنا حين أتحدث عن فقر الفكر وفكر الفقر، أعني بهما بالذات ذلك الذي على مستوى الجماعة. إن الجماعة — حتى المارة في الشارع — يسودُهم في العادة سلوك وتفكير أقل بكثير من مستوى تفكير الفرد في عزلته؛ ذلك أن عقل الجماعة يأخذ وقتًا طويلًا لينضج، ومهما نضج لا يُمكن أن يصل إلى مستوى نضج عقل الفرد.

والديمقراطية هي الوسيلة الوحيدة، وأقول بملء الصوت ومرة أخرى الوسيلة الوحيدة لتدريب العقل الجماعي على التفكير، وبالتالي على السلوك والتصرف.

ونظرة واحدة لفوضى المرور في شوارع القاهرة تُعطيك فكرة واضحة أن جماعة «السائقين» سواء أكانوا محترفين أم هُواة، جماعة غوغائية محضة، كلها أفعال وردود أفعال صِبيانية، وأنانية لا تجدها إلا عند الأطفال، إنه أيضًا نوع من سلوك الجماعة الناتج عن فكر جماعي متخلِّف لا يرتد إلى النظام — تمامًا كالأطفال — إلا برادع قذًى عيني وغرامة أو حبس، في حين أن الإنسان الحر الناضج ليس في حاجة إلى أن يَخاف ليَتبع القانون، إنه يتبع القانون إيمانًا منه بحق الآخرين عليه، وهذا هو السلوك الناضج الناتج عن فكر ناضج.

ونعود إلى موضوعنا: انبثق استقلال معظم البلاد العربية إمَّا عن أيدي حكومات أو قيادات أو انقلابات عسكرية، أو تلجأ إلى الانضباط العسكري كوسيلة للحكم. والانضباط العسكري ينص على أنك لا بُدَّ أن تنفِّذ أوَّلًا ثُمَّ تناقش، في حين أن الحكم الديمقراطي ينصُّ على أن الإنسان لا بُدَّ أن يناقش أوَّلًا ويُبدي رأيه قبل أن يتمَّ التنفيذ، والتنفيذ لا يتمُّ اعتباطًا، وإنما يتم بأخذ الأصوات، وعلى الأقلية أن تخضع لرأي الأغلبية وأن تُنفذ شرط أن تَحتفظ بحقها في إبداء رأيها المرفوض في أي وقتٍ، باعتبار أنه يمكن أن يكون الرأي الصواب، فليس كل رأي تُجمع عليه الأغلبية صوابًا. وحَقُّ صاحب الرأي في الدفاع عن رأيه والتبشير به مسألة حتمية؛ فكل الرسالات السماوية رفضها الأغلبية حين نزلت ولم تتغيَّر إليها إلا بعد نضالٍ شاقٍّ من أصحاب الرأي والرسالات.

إذن جاءت فترة الاستقلال في بلادنا العربية لنشهد أنواعًا من الحكم والحكومات غريبة، فهي تُحلُّ لك أن تَنقد أي بلد عربي آخر ما شئتَ من نقدٍ على رأي ذلك الإسرائيلي الذي قال يتيه على مواطن عربي: أنا أستطيع أن أقف في أوسع ميدان من تلِّ أبيب وأقول: يسقط بيجين. فقال له العربي: وأنا أيضًا أستطيع أن أقف في أوسع ميدان من ميادين بلدي وأقول: يَسقُط بيجين.

ومهما قيل من أسباب لتبرير الحكومات الشمولية التي صاحبت عصر الاستقلال في البلاد العربية، ومنها أن نَحتاط لمقاومة الاستعمار والصهيونية، وأن أيَّ حرية للرأي تُمنَح سيستغلها الأعداء لـ «تضليل» الشعب، وكل ذلك المنطق المُضحِك في سلب الحقوق الديمقراطية لأفراد الشعب مهما قيل مِن أسباب فهي لا يُمكن أن تَغفِر لتلك الحكومات ما فعلت؛ فصحيح أنها حكمتنا بعد الاستقلال، بل وقادَتنا في معارك ضدَّ الاستعمار والصهيونية، ولكن، كما أصبح واضحًا لنا الآن، ليست المشكلة أن نَخوض معركة، وليست المشكلة حتى أن نَكسبها؛ فأهم من خوض المعارك، بل وأهم من كسب المعارك، هو أن يدخل الشعب المعركة قويًّا ويَخرج منها، منهزمًا أو منتصرًا، قويًّا أيضًا، واليابان التي خرجَت من الحرب مهزومة، لأنَّ إنسانها كان قويًّا، ها هو في معركة الصناعة والتطوير التكنولوجي يَنتصِر على أعدائه الذين هزَموه عسكريًّا. لم يكن مهمًّا أن نَنتصِر أو نَنهزم، كان مهمًّا دائمًا وأبدًا أن نُحافظ ونُنمي قوة مواطننا وسلامة تفكيره ونُضج سلوكه؛ فالنتيجة ها هي أمامنا، عالَمنا العربي كله في حالة «هزيمة» منكَرة، رغم أن كل دولة مستقلة، وكلها لها كيان واقتصاد «وفائض من المال، ولكن إنسانها ضعيف».

وإرادتها الجماعية مهزومة. لقد كانت هذه الأمة، وهي في حالة احتلال من فرنسا وإنجلترا أقوى بكثيرٍ مما هي في عهد الاستقلال.

جاءت إذن حكومات ما بعد الاستقلال وأخذت زمام التفكير كله في يدَيها، ويا ويل العالم العربي وحتى العالم كله إذا احتكَرت حكوماتُه التفكير؛ فالحكومات لا تفكر ولا تستطيع أن تُفكِّر، وهي تفكِّر بقوات أمنها ومخبريها فقط، تفكر بأدواتها التي تقهر بها المواطن أو مجموعة المواطنين؛ فالحكومة، أي حكومة، ليست سوى جهاز، ولم تَفعل بلادنا العربية بذلك الجهاز إلا استعماله وسيلة للمحافظة على أمنها، أو بالضبط أمن مَن بيده السلطة، ولأنه كان في الغالب جاهلًا، فإنه كان يُعادي التفكير لله في لله، باعتبار أن أي تفكير لا بُدَّ أن يكون موجهًا ضده أو هو تفكير للتآمُر عليه، بل حتى التفكير الذي معه، حرَّمه على أنصاره. ولا يوجد في أي بلد عربي حزب حقيقي نستطيع أن نُطلِق عليه حزبًا، هناك تابعون كثيرون، ولكن الأحزاب، كوسيلة تدبير وتخطيط وتفكير، كمدرسة يَدخُلها المواطن الشاب يتعلَّم فيها حقوقه وحقوق غيره، يتعلم فيها الممارسة الديمقراطية الحقَّة، يتعلم فيها كيف يكون له رأي وكيف يُبدي رأيه ذلك، وكيف يستمع إلى آراء غيره، وكيف يُقنع وكيف يقتنع؛ هذا كله غير وارد وغير حادث وغير موجود في بلادنا العربية قاطبة.

وإذا كانت بعض بلادنا العربية لا تزال توجد فيها بقيَّة من أناس كهؤلاء يَملكون القدرة على مزاولة التفكير، فهم للأسف ليسوا نتاجًا لمرحلة الاستقلال، إنما هم للأسف مرة أخرى، نتاج للفترة التي كان يَحكُمنا فيها الاستعمار ويسمح لنا بمزاولة نوع من الديمقراطية وحرية التفكير.

وقد كان مفروضًا في الثورات الوطنية التي تقوم في أنحاء الوطن العربي، بادئة بمصر، أن تقوم الثورة لتُوسِّع من رقعة الديمقراطية إلى آخر مدى وأن يَقوم بقيامها عيد كبير للتفكير والأفكار، يَطرح فيه كلُّ مواطن مصري رأيه في مصر اليوم والغد وكيف يجب أن تكون، وتتشكَّل من خلال الطرح مدارس واتجاهات وأحزاب جديدة، وتَزدهِر الحركة الديمقراطية باعتبار أن الثورة قامت ردًّا على إجراءات دكتاتورية اتخذها الملك وأحزاب الأقلية، وكان مفروضًا أن تكون ثورةً لرد الحقوق الديمقراطية للشعب، وليس كما حدث وكان ثورةً لسلبِ كل حقوق الشعب الديمقراطية.

ونحن هنا لا نَتباكى على ما فات، ولا نقع في فخ «لو»؛ فهكذا كان حظنا وهكذا كانت ثورتنا، وحتى حين حدَثَت حركة التصحيح في مايو انتظرنا منها ثورة ديمقراطية بعد الثورة الاجتماعية التي من المؤكد أن ثورة ٢٣ يوليو أحدثتها، ولكن ظلَّ مقدار

طاقتها الديمقراطية يتناقَص حتى كانت قرارات سبتمبر وأحداث أكتوبر التي جعلَت بعض شباب مصر يَغتال لأول مرة في تاريخ مصر رئيس الدولة.

إنها مأساة فقر الفكر وفكر الفقر، لدى الناس، وبادئةً لدى حكومات ما بعد الاستقلال بالذات، ولنا عودة.

الفصل الثالث

المؤامرة بالنوايا

أحيانًا تكون الأشياء من الوضوح بحيث لا تُرى، ولقد قرأت في الصحافة العربية والمحلية والعالمية كمًّا من العويل على ما يحدث في لبنان إلى درجة جعلتني أتساءل: أيكون هذا العويل نفسه نوعًا آخر من «الكاموفلاج» المقصود به أن يُغطِّي ما حدث بطبقة كثيفة من دخان لا نستطيع أن نرى معه حقيقة الموقف؟

فأوَّلًا: الاستعداد لغزو لبنان مسألة لم تُخفِها إسرائيل أبدًا، إسرائيل بالعكس استعدَّت لها تمامًا، بل ووضَعت اسمًا للعملية (السلام في الجليل)، وإسرائيل جادة في هذا؛ إذ إن السلام على الطريقة الإسرائيلية، هو حماية أي إسرائيلي من أي عدوان في أي مكان؛ إذ هو الجنس الأعلى المتميِّز، حتى لو كانت الوسيلة إبادة شعب بأكمله أو منطقة بأكملها.

ثانيًا: الاستعداد والإعداد لغزو لبنان مسألة كان يَعرفها العالم كله بما في ذلك الولايات المتحدة، الشريك الكامل في عملية السلام والشريك الكامل في عملية الحرب أيضًا. ولقد صدَّق بعض الناس أن مشاركتها الكاملة في السلام تعني أنها قد أصبحت حليفتَنا نحن أيضًا بالقدر الذي هي حليفة لإسرائيل، في حين أنها أبدًا لم تتزحزح عن موقفها كشريك كامل لإسرائيل في السلام والحرب معًا، وواهمون من يعتقدون أننا نجحنا ولو بنسبة ملِّيمتر واحد في زحزحة موضع إسرائيل في قلب أمريكا. يا أيها الواهمون أفيقوا، إن هذا الحلف غير المقدس بين إسرائيل مُعتديةً ومتوحِّشة ومعتدًى عليها، رافعةً أعلام النصر أو رايات الاستسلام، وبين الولايات المتحدة، ليست مسألة هزلٍ أو غرام عابر، إنها زواج كاثوليكي رغم بروتستانية أمريكا ويهودية إسرائيل، زواج أبدًا لن تَنفصِم عُراه، والهدف بينهما واحد وإن اختلف الأسلوب؛ فعلى إسرائيل أن تضرب وعلى أمريكا أن تُهدهِد وتَعِد؛ فالمصالح واحدة، والعدو واحد، العرب، إنما باعتباره عدوًّا ساذجًا لا يزال يرى في أمريكا المحبَّ الوفيَّ فليتظاهر له هذا «الجيجولو» بالوفاء والوفاق،

ما دام هذا سيُريح أعصاب العرب ويَجعلُهم يُساهمون مساهمةً خرافيةً في الدفاع عن «أمن الخليج!» ضد «السوفييت!» ضمن الاستراتيجية الأمريكية الموحَّدة لقُوات الانتشار السريع والبطيء كي يُتاح للعُدوان الحقيقي أن يَحدث على الأمة العربية من إسرائيل بالذات (أي من داخل منطقة الشرق الأوسط)، عدوان حقيقي لا تُحتلُّ فيه أرض أو يُستولى فيه على آبار بترول، وإنما يُجتَث فيه ومن الجذور شعب عربي عظيم هو الشعب الفلسطيني، حتى تُستأصَل القضية من جذورها الشعبية؛ إذ إن إسرائيل تخاف أن تتكرَّر المهزلة ويَنتشر الشعب الفلسطيني في العالم، يقوى ولا ينسى أبدًا قضيتَه ليعود بعد حين يَفتك بها كما فعل الإسرائيليون به، فلا بُدَّ إذن من اقتلاع شجرة الشعب المطالب بالوطن من جذورها وقصِّ رقاب الأطفال والنساء (شعب المستقبل)، وهذا، حسب المنطق الأمريكي، ليس عُدوانًا على منطقة الشرق الأوسط، ما دام قادمًا من الشرق الأوسط، وما دام لا يمسُّ آبار البترول وما دام يهدُّ قوة العرب. إنه العدوان الحلال المُباح، الذي لا يدخل ضمن استراتيجية الدفاع الأمريكي، بل وكأنَّه العدوان الذي يَدخل ضمن استراتيجية الهجوم الأمريكي على منطقة الشرق الأوسط «العربي».

ثالثًا: ولهذا أنا أعجب من أشياء:

- هذه الاستغاثات التي تُطلقها البلاد العربية طالبة من واشنطن «التدخل» لإيقاف إسرائيل عند حدِّها، والضغط الشديد عليها للانسحاب غير المشروط من لبنان.

  كيف لواشنطن التي أعطت إسرائيل (وهي تعلم أنها تُعِدُّ العدة لغزو لبنان) خمسًا وسبعين طائرة مقاتلة قاذفة أن تُوقِف حربًا هي الشريكة الكاملة فيها؟

  وكيف لواشنطن التي جمَّدت اتفاقية الدفاع المشترك بينها وبين إسرائيل لسببٍ أقل بكثيرٍ من غزو لبنان، ثُمَّ عادت قبيل الغزو وجعَلت الاتفاقية سارية لتكون أيضًا في موقف الشريك الكامل في الحرب، كيف لواشنطن هذه أن تأمر إسرائيل بالتوقف؟
- الشيء الثاني الذي عجبت له هو أن الحكومة اللبنانية هي آخر المُستغيثين بأمريكا والرأي العام العالمي، بل إني لم أقرأ للبنان أي استغاثة بالمرة.

  والأعجب أكثر أن الحكومة السورية لم تبدأ تتحرَّك لصد العدوان إلا بعد أن كانت إسرائيل قد احتلَّت تقريبًا كل جنوب لبنان إلى ما قبيل بيروت،

وفقط حين أحدق الخطر بجيوش الردع السورية، خافت من الغَدرِ ربما، أو ربما لعدم احترام إسرائيل للخط الأحمر كعادتها حين بدأت تضرب قواعد الصواريخ في البقاع، حينئذٍ بدأت سوريا «تدخل» المعركة، وما كادت تبدأ حتى «قَبِلَت» وقف إطلاق النار، بناءً على «قرار» إسرائيل بإيقاف إطلاق النار. وهكذا خرجت سوريا من الحرب بأسرع مما دخلت، وبقي إطلاق النار وتنفيذ حكم الإعدام في الفلسطينيين ساريًا ولا يزال إلى الآن.

- مواقف جبهة الصمود والتصدِّي تُثير ضحكًا أكثر بكثير مما تُثيره مواقف المُعتدِلين المُستغيثين بواشنطن وبون وباريس ولندن (الموحولة إلى آذانها في فوكلاند)؛ إذ ماذا بالله تفعل حكومة الجزائر الغامضة غير إصدار القرارات تلو القرارات، وأين ليبيا من حليفتها في السراء والضَّراء والوحدة القائمة بينها وبين سوريا، وللإنصاف أيضًا أقول: أين الموقف الأكثر حزمًا للسعودية من زيارات سموِّ الأمير الفيصل لميتران وشميث وريجان؟
أين المغرب التي قاطعَت مصر من أجل السلام وهي التي وفَّقَت بين رءوس السلام في الخفاء؟!

وبعد.

ماذا أقول؟!

أأقول إن هناك نوعًا جديدًا من المسرح السياسي العالَمي أصبح موضوع الرواية فيه لا يُتفَق عليه في نصٍّ مكتوب، ولكن يُتفَق عليه بالنوايا، ويبدو أن نوايا الأطراف جميعها قد اتفقت على ما يأتي:

أوَّلًا: إجلاء السوريين والفلسطينيين أساسًا عن لبنان، أو بالأصح عن كلِّ غرب لبنان إلى زحلة بشماله وجنوبه وتسليمه إلى دُويلة مارونية عربية في الشمال، ودُويلة مارونية إسرائيلية بقيادة سعد حداد في الجنوب، ودُويلة مسلمة شيعية في الشرق تتبَع سوريا.

ثانيًا: أن تعقد الدويلات الثلاث صلحًا مع إسرائيل.

ثالثًا: تَخرج إسرائيل من هذه الحرب وقد كسبت «السلام» على طريقتها، فأبادت المقاومة الفلسطينية في الجنوب، وضمنَت تفتيت لبنان إلى دويلات أغلب الظن أنها ستكون على أطيب العلاقات معها.

رابعًا: بهذا «الحل» أيضًا تكون سوريا قد شُلَّت يدُها عن أي تهديد أو شبه تهديد لإسرائيل، بل تصبح هي في الحقيقة المهدَّدة، وقد انكشف ظهرها الغربي تمامًا حتى لمدافع الميدان الإسرائيلية ولا أقول الطيران.

خامسًا: وهكذا «تنحلُّ» قضية الشرق الأوسط بإقامة دويلة فلسطينية محدودة ومشلولة الفاعلية تمامًا، ومُحاطة ومضمونة بالأردن وسوريا وإسرائيل وثلاث دويلات أخرى في لبنان.

أو هكذا قالوا.

(١) خطاب أخير لصقور إسرائيل

ولكن.

أحب أخيرًا أن أوجه للإسرائيليين بالذات كلمة، وأنا لستُ إنسانًا ذا قوة في عالمنا العربي، ولكني أزعم أني أعرف تمامًا هذا الإنسان العربي كما أعرف نفسي.

لقد ضحكتم على الدنيا بأَسرها حين أظهرتم اليهود وكأنهم كانوا ضحية للوحشية النازية، ضحية هكذا بدون سبب وبدون منطق، وكأنما خُلق هتلر وخُلق الشعب الألماني ليُعاديَ اليهود لله في لله، وأنتم تعرفون أنكم أنتم الذين خلقتُم هتلر، فقال عن الألمان إنه الجنس الحامي الأسمى مثلما قلتم عن أنفسكم أنكم الشعب الأسمى المختار.

ولقد ذكرت مرة للكاتب الأمريكي اليهودي الكبير سول بيللو الذي حصل بعد لقائنا في شيكاجو على جائزة نوبل أن الإسرائيليِّين قد اختاروا أسوأ منطقة في العالم ليُقيموا عليها دولتهم، فهي المنطقة الموبوءة إلى الآن بالتعصُّب، اختاروها وزرَعوا فيها التعصُّب من جديد، وإذا قلت لي إنك تفخَر أنك يهودي، فسأقول لك إني أفخر أني مسلم، وسيقول لك آخر إني أفخر أني مسيحي أو أني قبطي أو أني شيعي أو أني علوي أو أني درزي أو أني ماروني.

وما ثورة الشيعة في إيران إلا الصدى الأول لقيام إسرائيل المتعصِّبة، وما تفعلونه بضرباتكم المُتتالية للفلسطينيين من مسلمين ومسيحيين وإراقتكم للدم كل يوم في هذه المنطقة، إلا أنكم تزرعون بذور الحقد المتعصِّب المدمر الذي ستحصده أجيالكم القادمة وربما أجيالكم الحالية، ثمرًا شديد المرارة، قاتلًا.

وإني الآن وأنا أقرأ وأشاهد ما يدور على أرض لبنان وفلسطين المحتلة والجولان، مثلما شاهدت ما دار على أرض سيناء، أُحسُّ بالكابوس الرهيب يتبدى أمامي … أعوام

رهيبة قادمة من الدم والعنف والظلام ... الثمرة الوحيدة لما تزرعونه الآن، أن أرى آلافًا من آية الله الخوميني وشكري مصطفى وسرية يتخلَّقون من عنفكم الإجرامي خلقًا وتتشكَّل لهم نفسيات ستدمركم تدميرًا؛ فالتعصُّب لا يُولِّد إلا التعصب، والقتل صِنوه القتل، ومن يفقأ العيون عليه أن ينال طعنات الظلام.

إني، وأنا إنسان عادي جِدًّا، لم أنس لأي شخص اعتدى عليَّ عدوانه أبدًا؛ مُدرِّسًا كان أو أبًا أو أمًّا أو أخًا، حتى هؤلاء عُدوانهم لا يُنسى، فما بالك بعدوان الأغراب والأعداء، ما بالك بالدم يُراق والأوطان تُستباح.

كلمة لكم أيها الصقور في إسرائيل، ترفَّقوا بأنفسكم وشعبكم، فإنَّ تجبركم هذا سيرتدُّ إليكم مُضاعَفًا، وَثِقوا أنكم بكل جريمة منكم تُرتكب تُنبتون ألف متلهف على جريمة وألف طالب ثأر، فأنتم في تلك المنطقة من العالم التي عاشَت وتعيش بالثأر، أتَعرفون — أيها الصقور — ما هو الثأر؟!

ألديكم فكرة عن الجحيم الذي تُوقدون الآن نيرانه؟

الفصل الرابع

حين يُقاتل أصحاب القضية

ما بين الدفع والجذب، واللتِّ والعَجن، وأسخف الأقوال وأحكمِها، والضغط بالأقدام على الأقدام، وبالكروش على الكروش، وبالوجود الثقيل على الوجود الأثقل.

ما بين حَرٍّ قائظ لافح ووجوه مُكتنزة بالشَّبع ومُتضوِّرة بالجوع والوهن، ما بين سماء صفراء كالحة ملتهبة بشمس أغسطس ورطوبة وافدة وأرض صحراء في معظمها جهنمية اللسع، تكوي، نقف في اللَّظى، نُتابع أخبار بيروت، وما يحدث فيها، نُتابع بذهول لا يُصدَّق، واقعًا رهيبًا كله مصدق وموثق ومنقول صورة صورة بالأقمار والكاميرات والمراسِلين الأجانب، وهذا هو المؤلم حقًّا، فلم أقرأ عن بيروت لصحفي عربي أو لوكالة أنباء غير وفا الفلسطينية.

الغرب أشعلها منذ القدم، والغرب زرَعها، والغرب يَستنكِر الآن المارد الذي خلَقه ورَعاه وسقاه، والغرب أيضًا هو الذي يَنقُل لنا أخبار قوى عدوانه الشيطانية، وهي تَدكُّ وتدكُّ وتدكُّ الأرض والناس والبيوت والأشجار وغُرف النوم والمقابر، والقنابل العنقودية والقنابل الفسفورية التي تَحرق المحروق وتظلُّ مشتعلة في أجساد الأطفال حتى بعد موت الأطفال بأيام.

ونحن، ذاهلون، واقفون، نستعجب، وكأننا نرى حلقات تليفزيونية اسمها الجحيم في بيروت، بطلها شرير أي نعم، ولكننا لا نملك أن نصنع له شيئًا؛ فالحلقات أثيرية، تدور في عالم غير عالمنا، وتُرسل على موجة أخرى وكأنما نتلقَّاها من الفضاء الخارجي، وفعلًا أحسست مثل غيري بالدهشة أن سفينة «جان دارك» التي يقودها قبطان مصري أشرفت على الغرق وهي قادمة من ميناء «جونيه» الماروني اللبناني، وكأنها قادمة عبر شاشة التليفزيون من حلقات، نَنتظر موعدها اليومي كما كُنَّا نفعل مع دالاس واللي فوق واللي تحت.

فاغِري وفاتِحي الأفواه نرقب، قراءً وكُتَّابًا ومسئولين وغير مسئولين نرقب، فإن ما يحدث في بيروت قد حدث مثله في بورسعيد والسويس والإسماعيلية وبورفؤاد وبورتوفيق، كل ما في الأمر أن حكوماتنا في ذلك الوقت كانت تصمُت عنه ولا تُذيعه على الملأ إلا في حدود مدرسة بحر البقر أو مصنع أبو زعبل في العمق، ولكنَّنا أبدًا لم نُسارع بكشف هذه الأعمال الإجرامية الإسرائيلية في حينها، لم يعرف عنها العالم، ولا عرف العرب شيئًا، وكأنه تخاذلٌ مِنَّا أن تظهر وحشية المُعتدي وبربريته.

ولو كان في بيروت حكومة من حكومات الأنظمة، تملك أن تكتب الأخبار والأنباء لفعلتها، بل حتى نحن لا نعرف للآن الموقف — كما ذكرتُ — إلا من خلال الصحافة الغربية، بل والأمريكية بالذات، أخبار المذابح والهول، بينما المَضروبون في بيروت يُضرَبون في صمت، ويُقاسُون في هول الكتم، فلمن يَصرخون، وإلى من يتطلعون؟

إن الصحافة الغربية مهتمة بالقضية كقضية ضمير غربي يتوجَّع من هذا الذي يَحدُث للمسلمين وللعرب وللفلسطينيين وللبنانيين، اهتمامنا نحن كصحافة عربية أو لبنانية أو فلسطينية هو اهتمام أصحاب القضية، يكتبونه لأصحاب القضية، وقد بدا واضحًا الآن أن القضية الفلسطينية، تأخذ هوية جديدة هي الهوية الفلسطينية فقط، بعد أن ظلَّت لأحقاب تنظر لنفسها وينظر لها الناس على أنها قضية «عربية».

وحسنًا جرى وحدث …

حسنٌ أن يئس الفلسطينيون أخيرًا من إرسال الرسالات والاستغاثات والوفود والاستقبالات، وأصبح عليهم هم وحدهم أن يُقاتِلوا قضيَّتهم، وحين حدث هذا فليس من المستغرب ما حدث، أن يوقف خمسة آلاف مقاتل جيشًا جرَّارًا من ستين ألفًا مجهَّزًا بأحدث ما وصل إليه العقل البشري من آلات الفتك والدمار. إنَّ هذا يُثبت أيضًا أن الدول والجيوش العربية المنظمة كانت تهزل في دفاعها وحروبها من أجل القضية الفلسطينية، وهذا أيضًا شيء طبيعي، فلا يمكن للإنسان أن يقاتل أبدًا قضية غيره، هو وحده الذي يُقاتلها، وحين يُقاتلها بحماس، ينضمُّ إليه المقاتلون فعلًا من كافة المِلَل والنحل وأركان الأرض، وهذا هو ما يَحدُث للقضية الفلسطينية الآن.

لأنها قاتلَت ووقفت في بطولة لا تستغيث ولا تستجدي وتقول بكل سلاحها الضعيف: لا. العالم يلتفُّ مِن حولها الآن، ليس التفاف المشفق، ولا التفاف «الإخوة العرب»، وإنما التفاف الساعد بجوار الساعد في ساحة الصمود من أجل الحق الذي وراءه مُقاتل ومُدافع وشهيد، ساحة الأخوة البشرية أمام البربرية والنازية والعنصرية والتوحُّش، ساحة الجبهة

الحقيقية، جبهة المقاتلين في سبيل الحق والعدل والسلام، وليست جبهة المؤازِرين بالتبرُّع أو بالنوايا الطيبة أو بإعانات هيئة الإغاثة في الأمم المتحدة.

عجيبٌ أمر قضية فلسطين.

بدأها أعداؤهم عسكريةً، ورفع الفلسطينيون لواء الكفاح السياسي والاعتماد على العروبة، وظلَّ أعداؤهم بالاستفزاز وراء الاستفزاز حتى أوصلوا الفلسطينيين ليس فقط إلى حدود المقاومة المسلحة، وإنما المقاومة المسلحة إلى حدِّ الانتحار دفاعًا عن الحياة والقضية.

لمن أعزو هذا الفضل؟

أأعزوه للأصدقاء والأشقَّاء الذين أوصلوهم إلى هذا الحدِّ، أم أعزوه للأعداء أم للأصدقاء والأعداء على حدٍّ سواء؟ ولكن هذا هو مسرى التاريخ، والمصير الطبيعي لقضية أي شعب، أن يَملك زمامها بنفسه ولنفسه أوَّلًا …

وإذا كانت هذه أول معركة حقيقية طويلة رهيبة يتعرض لها الشعب الفلسطيني في المنفى في لبنان، فإنها لهذا لم تكن نُزهة، وكانت على الأعداء وبالًا.

إذا كان المستر بيجين يقول إنه يتعهد للإسرائيليين بأربعين عامًا من السلام بعد هذه الحرب، فإنه لا بُدَّ مجنون؛ فإن ما يفعله إنما هو متعهِّد لشعبه بأن يذوق ويلات حروب واغتيالات وإرهاب ومقاومة لا حد لها طوال الأربعين عامًا القادمة مهما كانت القوى التي ستَقف مع إسرائيل.

ولهذا …

دكِّي يا مدافع بيجين.

دكِّي أكاذيبَ صدقناها،

وأُخوَّة عربية تصوَّرناها.

دكي قلاع قضية من قضايا الجامعة العربية، لتبنيَ حصون قضية حقيقية بشعب حقيقي يُدافع عنها.

ولنبقَ نحن، في قيظ أغسطس، نحن العرب ذوي الكروش واللحى والذقون، ذَوي النداءات الزاعقة عن أخوة الإسلام وأخوة العروبة، ذوي الكروش، نتفصَّد عرقًا، أو نتلذَّذ بمُكيِّفات الهواء، ونتفرج على حلقات جهنم في بيروت، بطولة إريل شارون ومناحم بيجين وكل أبطال دالاس وتكساس وكاليفورنيا.

الفصل الخامس

الستارة لم تُسدَل بعد!

لا يُمكن أن يَنتهي الحديث عن لبنان فجأة، كما بدأ فجأة، وكأن شيئًا لم يكن، إنَّ العدوان قد يحدث فجأة، هذا صحيح، ولكنَّ آثار العدوان … دائمًا تبقى، بل ربما تبقى أطول بكثير مما يَنبغي، وأعود أقول إنَّ هذا ليس وقت البكاء أو التباكي على ما حدث للبنان والفلسطينيين؛ إذ هو وقت شحذ العقول إلى آخرها، وقت الهبَّة التي يَهبُّها العقل البشري لحظة الخطر المحدق، ليتفتق الذهن عن اختراعات وقُوى عملاقة جبارة تَنتفِض من قلب الفرد والناس لتُقاوِم الخطر المحدق ولتدفعه.

وثمة نقاش لا بُدَّ أن يبدأ فورًا مع الأنظمة العربية، كل الأنظمة العربية، لقد بدا واضحًا أن كُلًّا منها آثر أن يَنجو بجلده، وأن يتبع المثل الشهير لجحا حين قالوا له كذا، فقال: ما دام بعيدًا عني فإني لا أبالي. والخطر والمأساة أحدقت هذه المرة بلبنان، وهكذا نظرت كل الأنظمة العربية نظرةَ حسرة، هذا صحيح، وليس فقط لأنها عاجزة عن أيِّ إجراء عسكري أو سياسي رادع، ولكن أيضًا، وهذا هو المهم، لأنها تَعتقد، أو كلٌّ منها يعتقد، أن الخطر ليس على أرضه وليس على مصالحه المباشرة أو مُواطِنيه، وإن كان ثمة مواطنون عرب فلسطينيون أو لبنانيون أو غيرهم يُقتَلون فتلك مسألة بربرية تمامًا، ولكن حمدًا لله أن العدوان ليس على أرضي أنا وشعبي أنا أو نظامي أنا، وإلا لكنتُ مضطرًّا لأخذ إجراء، ولكان الأمر يصبح كارثةً حقًّا.

بمعنًى آخر، كل نظام أدرك أنه ما دامت أرضه آمنة لم يقع عليها عدوان، ونظامُه مستتبًّا لم يتخلخل، فالخطر المباشر بعيدٌ جِدًّا بل غير مُحتمَل بالمرة، صحيح أن الخطر غير المباشر قائم وموجود، ولكن هل فرغنا من الحاضر لنفكِّر في هموم المستقبل، حين يجد الجد، ويحدق الخطر، يحلُّها ألف حلَّال.

صحيح أن البحر هائج وعاصف ومروِّع، ولكن ركبُنا آمن ويَشمله الأمان، وهو جزيرة الاستتباب وسط هذا البحر الهائج المخيف، وسيظل كذلك.

فهل ستظل المسائل كذلك فعلًا؟

أم هو منطق النعامة التي تدفن رأسها في الرمال لدى ظهور الخطر؟ وقد كنتُ إلى عهدٍ قريبٍ أستغرب من تصرف النعامة هذا، باعتبار أن كل حيوان أو كائن على سطح هذه الأرض مزود بقدرات هائلة على إدراك الخطر والابتعاد عنه، فلماذا النعامة بالذات هي وحدها التي تَدفن رأسها في الرمال ساعة الخطر؟ إلى أن قرأتُ منذ بضع سنوات ما جعلني أُدرك أني كنت على حقٍّ في استغرابي؛ فقد قرأت أن النعامة أبدًا لا تدفن رأسها في الرمال، وإنما هي تُقرِّب من رأسها العالي وتلوي عنقها لكي يُصبِح الرأس قريبًا جِدًّا من الأرض لتسمَعَ دبيب أي قطيع متوحِّش قادم، وتُدرك من أين هو قادم، لتحدِّد اتجاه نجاتها وانطلاقها بسيقانها إلى أبعدِ بعيد. الملاحظون من البشر هم الذين كانوا سُذَّجًا إلى درجة أنهم ظنُّوا أن النعامة «تدفن» رأسها تحاشيًا لرؤية الخطر القادم، إلا أنهم هم يرون الخطر ويرونها تميل برأسها، ولكنهم لو عرفوا أنها تميل برأسها لكي تتسمَّع وتُحدِّد مكان واتجاه الخطر لتنقذ نفسها، لما كان هذا المثل الساذج قد قامت له قائمةٌ أبدًا.

إذن حتى النعامة لا تتعامى عن الخطر.

ولا أي حيوان آخر يتعامى عن الخطر.

الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي أحيانًا ما يَرى الخطر ولكنه يتعامى عنه.

وسفُنُ الأمن والأمان في بحرنا العربي الهائج، أقصد معظم أنظمتنا العربية، تَعتقِد أن السفينة ما دامت لا تزال عائمة، فمهما علَتِ الأمواج فلا خطر مباشر هناك، ولكن الحقيقة أن هناك فعلًا خطرًا ماحقًا ومباشرًا.

(١) كل ضربة بثورة

إذا رجعنا للتاريخ القريب وجدنا أنه عقب حرب فلسطين عام ١٩٤٨، ما كادت تمضي أربع سنوات حتى كان رد الفعل المباشر قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢ ثُمَّ ثورة تونس، ثُمَّ الثورة الجزائرية الكبرى عام ١٩٥٤.

وقبلها ثورة المغرب وعودة الملك محمد الخامس من منفاه، وما لبثت علائم الدموية أن أخذت تجتاح المشرق العربي نفسه.

ونتيجة لهذا المد الثوري، حدَث عدوان ١٩٥٦ لدكِّ معقل الثورة الأم في مصر، وصحيح أن العدوان انتصر واحتلَّت إنجلترا وفرنسا بورسعيد، ولكن ردُّ الفعل كان عارمًا.

فقد أُرغمت إسرائيل على الجلاء عن سيناء.

وسقط إيدن وجيموليه، وسقطت معهما ثلاثة أرباع الإمبراطورية البريطانية.

وحدثت ثورة العراق عام ١٩٥٨، ثُمَّ الوحدة بين مصر وسوريا، ثُمَّ الوحدة بينها وبين العراق، ثُمَّ الثورة اليمنية، ثُمَّ استقلال الجزائر وانتصار الثورة عام ١٩٦١.

وكان لا بُدَّ للاستعمار وإسرائيل أن يعودا «للقمع»، قمع الثورة الأم مِن جديد، وهكذا حدث عدوان ١٩٦٧.

وكان ردُّ الفعل المباشر قيام الثورة الليبية عام ١٩٦٩، وانتصار الثورة في اليمن الجنوبي والشمالي، وامتداد الثورة إلى أجزاء من شبه الجزيرة العربية، وثورة البعث الجديدة في العراق، وثورة سوريا وثورة السودان والصومال.

وكانت هذه ثورات تميل إلى راديكالية أكثر، أي ثورات أكثر عُنفًا وضراوةً من الطريقة التي قامت بها الثورة الأم عام ١٩٥٢.

ثُمَّ جاءت الحرب المقدسة، حرب أكتوبر عام ١٩٧٣، وحدثت الثَّغرة وفضُّ الاشتباك ثُمَّ المبادرة.

الفصل السادس

للمليونين فقط

كنتُ قد أثرتُ منذ بضعة أسابيع موضوعًا عن المصريِّين المغتربين في الخارج، وبمناسبة خطابٍ أرسله لي صديق قارئ يُحدِّثني فيه عن أن المغتربين يتألمون تمامًا لكل الأزمات والمشاكل الاقتصادية التي يقرءون عنها، والتي يرونها بأعينهم حين يعودون إلى وطنهم الأم، وأرفق خطابه بشيك قيمته خمسة وعشرين دولارًا باعتبار أن عدد المصريين المغتربين في الخارج يَقرُب من مليونَي مواطن من العامِل إلى العالم، وأنه لو تبرع كل منهم بمبلغ خمسة وعشرين دولارًا لكانت الحصيلة خمسين مليون جنيه مُمكن أن تُساهم في حلِّ كثير من المشاكل التي تُعاني منها مصر.

والحقيقة أني فرحتُ بالخطاب، وما أن نُشرت الكلمة حتى حمل لي البريد كمًّا وافرًا من خطابات المواطنين خارج مصر كلها حماس للفكرة وكلها مليئة بحبٍّ جارف للوطن ورغبةٍ عارمة في رؤيته على أحسن حال.

وهؤلاء قد فهموا بالضرورة حسنَ نيتي في عرض المسألة، ولكن يبدو أنني لم أكن موفقًا في عرضها كل التوفيق، فلم يَستطِع بعضهم أن يفهم المداعبة المقصودة عن «فص الملح» وجاءتني ثلاثة خطابات عامرة بالشتائم باعتبار أني «أحقد» على المُواطنين المغتربين وأنظر بعين الحسد إلى النقود «الكثيرة» التي يكسبونها والعربات «الفارهة» التي يعود بها كثيرٌ منهم. يبدو أنني لم أوفَّق لأن شيئًا من هذا لم يَدُر ببالي أبدًا، ولكن الظاهر أننا جميعًا؛ مقيمون ومغتربون، قُراء أو كُتَّاب نُعاني من حدة غريبة علينا في الطبع وضيق صَدر، وخطفٍ للمعاني خطفًا، وحساسية شديدة للنَّقد، أو هي نقد، ولو كان على شكل مُداعَبة (وهي طريقة خفيفة جِدًّا لنقد الذات والآخرين).

ولأنه سواء أكُنَّا تعبانين أم غير تعبانين، فإنَّ علينا أن نُصلح أحوال هذه البلد بما يتلاءَم مع الحد الأدنى للحياة البشرية، فإني أُثير الموضوع مرةً أخرى، وبتفصيل أكثر،

فإن الجدية الصادقة التي لمحتُها في خطابات القراء والرغبة الدفينة في عمل شيء يُرضي الضمائر المغتربة والمقيمة لا يُمكن أن يمر عليها الإنسان مرور الكرام، ولا بُدَّ أن يتوقف عندها طويلًا وكثيرًا إلى أن تحل.

وقد ذُكر في كثيرٍ من الخطابات أن الدولة في مصر لا تحصل فقط على خمسة وعشرين دولارًا من كل مواطن يعمل بالخارج ولكنها تحصل على خمسين دولارًا عن كلِّ تصريح عمل، بل لقد بالغ البعض وذكرني بأنه يدفع أيضًا أقساط التأمين والمعاش في القاهرة و«بالعُملة الصعبة».

وهذا كله حقيقي.

ولكنه ليس أبدًا موضوعنا.

فأنا لا أتحدث أبدًا عن ضرورة أن تستقطع الدولة معاذ الله من العاملين بالخارج أو تفرض عليهم تحويل جزء معيَّن (في تركيا يصل إلى أكثر من ٥٠ في المائة) من أجورهم، مع أن كل الحكومات الأخرى مثل كوريا وحتى الأردن تُصرُّ على هذا، بل يصل الأمر في كوريا إلى حدِّ تحويل ٨٠ في المائة من أجر العامل في الخارج.

لا … أبدًا لم أكن أقصد هذا، فلستُ أنا الدولة، ولست أكتب كجهة رسمية أو بلسان حال أحد، لقد كنتُ أُخاطب فقط ولنضَع (يا مَن يسيئون فهمَ النُّكتة وأيضًا فهم الجد) لنضع خطًّا تحت كلمة «أُخاطب» فقط الذين يرغبون من تلقاء أنفسهم في المساهمة في حلِّ مشاكل شعبِهم الاقتصادية، بل ولو حتى من أجلِ أن يربحوا هم أيضًا، ففي أحد الخطابات يَقترِح مُواطن مُغترب أن تتكون من المواطنين المُغتربين في كلِّ بلد عربي أو أجنبي على حِدَة شركة استثمار ذات أسهم ورأسمال تُعامَل تمامًا في مصر معاملة شركات الاستثمار، وتقوم بإنشاء المشروعات الكثيرة المطروحة والرابحة أيضًا والتي يمكن أن تسترد كل رأسمالها في بضع سنين، وكل هذا كلام جميل.

ولكن بقيَ للمواطنين المغتربين نقطة هم على حقٍّ فيها تمامًا.

إنهم يخافون إن هموا جمعوا وتجمعوا وأرسلوا نقودًا أن تضيع هباءً ولا يعرفون كيف تُنفَق ولا على أي الوجود تُصرَف ولهم فعلًا حق، حقٌّ دعاني لأن أتصل بالدكتور صلاح حامد وزير الاقتصاد وأُناقش معه هذه النقطة بالذات، وسعدتُ أنه أيَّدَ تمامًا تخوُّف المغتربين، بل وحين ذكرت له أن خطابًا مخلصًا جِدًّا وصَلني يقول حتى نُصدِّق فعلًا أننا فعلنا شيئًا أو نفعل شيئًا لا بُدَّ أن نرى ونلمس أن ما نُرسله يُستخدَم في موضعه تمامًا ويؤتي نتيجة؛ فمثلًا إذا افترضنا أننا قمنا بحملة من أجل تبرعات لإصلاح الطرق

السريعة والبطيئة في مصر، فإننا نريد أن نعود في العام التالي لنرى بأنفسنا أن الطُّرق قد أُصلِحت فعلًا، وأن المبالغ قد أُنفقت حقيقة في موضعها، وهكذا حين نقوم بحملة من أجل بناء مساكن متوسِّطة رخيصة مثلًا، نجد إقبالًا على التبرع أو المساهمة، وقد صدَّق الناس أخيرًا أن ما يفعلونه يؤتي ثمره، حين ذكرت له هذا وافقني تمامًا على رأيي.

بل وافقني أيضًا على أن من المُمكن أن تنشأ بإشراف وزارة الاقتصاد أو غيرها هيئة مكونة من أخصائي اقتصاد واستثمار ومشاريع تَرِد باسمها التبرعات، أو هي التي تتولى إصدار أسهُم أو سندات لشركات المغتربين المساهمة التي من المُمكن أن تنشأ.

بل وكان الرجل واضحًا جِدًّا حين قال لي إنه شخصيًّا رفض تمامًا فكرة تحصيل أي نقود من المغتربين بأمر حكومي، فإذا لم يكن الأمر صادرًا عن رغبة شخصية ذاتية، ومن ضمير المواطن المغترب نفسه، فإنَّ المسألة تتحوَّل إلى جباية بشرية من المُحال أن نُرغم أحدًا على قبولها.

(١) الدعوة لمن يَملكون أوَّلًا

بقيت — كما يقولون — كلمة حقٍّ لا بُدَّ أن تُقال.

نحن إذا كُنَّا نهيب بإخوتنا المُواطنين الذين يعملون أو حتى يُقيمون في الخارج أن يُساهموا معنا ولو بقروش من أجل أن ينهض اقتصادنا من كَبوته، فإننا نُدرك تمامًا الظروف البشعة التي يُضطرُّ أن يحيا فيها الكثير منهم من أجل العودة للوطن بثمن شقة أو نادٍ أو تجهيز فتاة.

نحن نَعرف أنهم يَنتزِعون الدولارات والريالات من قلب الصخر، وبأظافرهم ينتزعون لقمة العيش لهم ولعَشرة ملايين مصري يَعيشون بما يرسلونه.

نحن نعرف هذا، ولكننا لا نُخاطب فقط أولئك «الكادحين»، إننا نُخاطب وبالدرجة الأولى أولئك الذين لديهم فائض من أموال يستثمرونها في بلاد أخرى (ضمانًا لعدم المساس بها أو احتمال المساس بها إذا استُثمرت في مصر). إنَّ أي إحصاء سطحي كفيل بإظهار أن هناك مصريين فتح الله عليهم وأصبحوا يَملكون ويُديرون ملايين، بل ولهم نفوذ اقتصادي كبير في البلاد التي يعيشون فيها، والسؤال هو: إذا كان جزء كبير من اقتصاد إسرائيل يقوم على تبرُّعات يهود العالم، يدفعونها وهم يَعرفون أنها تُستعمَل للعدوان، فما بالك وبلادنا في حالة دفاع عن النفس، ضد الأزمة وضد العدوان وضد ظروف قاسية رهيبة لوت عنق المواطن وحوَّلته إلى كائن خرافي يبحث عن النَّجاة الفردية بأي طريق. إن

وضعًا اقتصاديًّا كهذا كفيل بفرط عقد الشعب، وشل الوجود الجماعي والعمل الجماعي من أجل إنقاذ مصر، وتحويل المُواطن الكادح إلى مجرد آكل عيش ومدافع عن بقاء لا يُهمه من أين ولا كيف تأتي النقود؛ فالأفواه مفتوحة وشبح الأزمة مخيِّم.

(٢) ولكن ... قبل أن نأخذ

ولكن ...

إذا كُنَّا تحدَّثنا عن واجبات المُغتربين ...

فإن لهؤلاء المغتربين حقوقًا على الدولة.

إننا لا نفعل شيئًا أبدًا من أجل هؤلاء الناس، ونتركهم لقمةً سائغةً للمُقاولين ومصاصي الدماء، تخنُقُهم عبرات الكبرياء الجريحة والإهانات التي تلحق بهم، ولا من مدافع عنهم أو يقف بقوة من أجل حمايتهم من الاستغلال والاستبداد. إني أعرف مدرِّسًا مصريًّا انتحر في إحدى البلاد لأنه أُهين ولم يجد من يتصدَّى لمن أهانوه.

لا بُدَّ أن يكون من صميم عمل السفير، ولا أقول حتى القنصل، السفير بنفسه في أي بلد عربي أن يُقيم أوثق الروابط مع الجالية المصرية، وأن يُطالِب بحقِّهم في نادٍ، وحقِّهم في التكتُّل دفاعًا عن أنفسهم ضد أي ضرر يَلحق بأحد منهم.

ولترتفع كرامة المصري في كل مكان يعمل به، فهو أخلص من يعمل وأشرف مَن يبذل الدم والعَرق في سبيل كل دولار أو دينار أو ريال سيناله.

إنَّ علينا أن نأخذ العمالة المصرية في الخارج مأخذًا جادًّا جِدًّا، علينا أن نَدرُس ونُحصي بالضبط عدد من يعملون بالخارج ونوع أعمالهم وتخصُّصاتهم، حتى لو احتجنا لأحدهم استقدمناه كخبير «غير أجنبي»، ودفعنا له أجر الخبير الأجنبي؛ فهو أولى، وقلبُه هو اللصيق بقلوبنا ومصلحتنا، بل قبل أي قرش نتلقَّاه من المصريين في الخارج.

علينا أن نبدأ بالعطاء.

فهو ليس مجرد عطاء.

إنه استثمار حقيقي في كنز وجودنا الأصيل، المواطن المصري في الداخل أو في الخارج.

الفصل السابع

الذين يأكلون أمهم!

في العادة، كانت الدولة في مصر حين يتعرَّض وجودها لأزمة أو خطر كانت تُعلن على الفور الأحكام العرفية وتمنَع التجول وتحتل الشوارع والميادين بالأمن المركزي والعربات المصفحة، ولكننا هذه المرة نُواجه خطرًا من نوع آخر، هو الخطر علينا كشعب وأمة، خطرٌ علينا في الحاضر وعلى كل من سيأتي بعدنا من أولاد وأجيال؛ ذلك هو الخطر الماحق الذي تتعرَّض له أمُّنا الزراعية مصر، الخمسة ملايين فدان اليتيمة التي يَعيش عليها خمسة وأربعون مليون إنسان، والتي لا تزال تُشكِّل الكيان الأساسي للحياة في مصر، هذه الأرض ليست معرَّضة لأزمة فقط مثلما كانت تتعرَّض الدولة، ولكنها معرَّضة لكارثة ماحقة تُصيب الشعب والدولة، بل والوجود المصري بأكمله.

هذه الأرض الآن تُحرق، أجل هناك طابور خامس من المجرمين يحرق أثمن ما نَمتلكه، طميَ النيل العظيم، الذي لن — أُكرِّر — لن يأتينا شيء منه بعد الآن، يُحرَق هذا الطمي ليُصنَع منه طوب أحمر، وتُقطَع أجزاء أخرى من الأرض الزراعية المنتجة لتُقام عليها بيوت، وهذا يَحدث على أوسع نطاق، مَن يمتلكون النقود يفعلون هذا، وحتى الفلاحون الذين يذهبون إلى البلاد العربية ويعودون بقليل من النقود حُلمهم الوحيد إقامة بيت من الحجر على قطعة جديدة من أرض قريتهم أو كَفرهم الزراعي، وبزيادة عدد العاملين في البلاد العربية وعدد المُستفيدين من سياسة الانفتاح، أصبح الطلب على الأرض الزراعية كمَكان لإقامة منزل أو عمارة أو مصنع هائلًا، وبالتالي أصبح الطلب على الطوب الحجري مجنونًا، وهكذا نشأت حركة إجرامية بمعنى الكلمة لشراء «الطمي»؛ وذلك بتجريف الأرض، أي اقتطاع المتر الأعلى أو أحيانًا المترَين، أي بالضبط القشرة

الطمييةِ المسئولة عن خصوبة أرض مصر، وتحويلها إلى قمائن، وتوريدها لمصانع الطوب المنتشر كالوباء في أنحاء الدلتا والصعيد.

ولنُدرك مدى فداحة العملية، فإن سعر فدان الأرض الطميية إذا اشتريتَه لتَمتلكه، فإنك لا تدفع فيه أكثر من ستة أو سبعة آلاف جنيه، أمَّا إذا اشتراه صاحب مصنع طوب ليُجرِّف المتر الأعلى منه فقط فإنه يشتري ذلك المتر العلوي بعشرين وأحيانًا بخمسة وعشرين ألف جنيه، ويَترك لك فدان الأرض لتمتلكه ما شئت، فإنه إمَّا أن يتحوَّل إلى بركة، وإمَّا أن لا يعود يصلح للزراعة مُطلَقًا. وعملية التجريف تجري رغم القانون الهايف الذي يَحكم بالغرامة فقط على جنحة التجريف، العملية تجري ليلًا في معظمها، وبواسطة عصابات لدَيها عمال كثيرون، بحيث في ليلة أو ليلتين يتمُّ كل شيء وتُكشَط الطبقة القابلة للزراعة من آلاف الفدادين، وتتحوَّل إلى حجر أصم يُباع بأسعار رهيبة. وليس هذا هو المهم؛ إن الكارثة الثانية أنه سيقتطع بحجمه وبالمنزل الذي سيبني به مساحة زراعية أخرى، آلاف الفدادين أيضًا، سِرًّا وبالرشوة، وبالاغتصاب تتحوَّل هي الأخرى إلى أرضٍ غير قابلة للزراعة.

ومنذ بضع سنوات، تلقَّيت من البنك الدولي تقريرًا خطيرًا يُنبِّه لهذا الخطر، ويؤكِّد أن الكم المتآكل بالطريقة الراهنة من الأرض الزراعية أكثر بكثير من الكم المُستصلَح، بحيث إن أرضنا الزراعية، ثروتنا، مُمكن أن تتقلَّص إلى النصف تمامًا بحلول عام ٢٠٠٠، والحق أنه ليس تُجَّار الطمي ومجرموه وسفاحو الأرض هم وحدهم المدانون، إن حكوماتنا المتعاقبة بعماها التقليدي وانعدام بصيرة أجهزتها وسياساتها قد أسهمَت في هذا لحدٍّ كبير؛ فلقد قرأت مقالًا عظيمًا للدكتور حسين مؤنس في مجلة النور، ينعي فيه على المصريين أنهم يلتهمون أرضهم الزراعية التهامًا، وكيف تحوَّلت الدائرة الزراعية التي كانت تورد الخضر والفاكهة حول القاهرة إلى مساكن تبدأ بالعشش وتَنتهي بالقصور، وقامت مدن المهندسين والصحفيين والضباط وأساتذة الجامعات، وامتدَّ العدوان إلى ميت عقبة والأرض الكائنة خلف سكة حديد الصعيد، والتُهمت في هذه العملية ثلاثمائة ألف فدان في محافظة الجيزة فقط، فما بالك بالأرض التي التُهمت من القليوبية، وأنا لا أفرح أبدًا وأنا أرى الأرض الكائنة بجانبي الطريق الزراعي تحتلُّها المنشآت وتعلو مبانيها وكأنها تضعُ إصبعها في عين كلِّ متألم من التهام أرضنا، أمِّنا، حياتنا.

إنَّ الخطر أكبر بكثير جِدًّا مما نتصور، أكبر من كل التوسُّلات والإجراءات التي قمنا ونقوم بها إلى الآن، وإذا كان العدوان على حقل بترول في البلاد البترولية يُعتبَر جريمة قد

تَصِل عقوبتها في حالة التخريب إلى الإعدام باعتبار البترول ثروتهم القومية هناك، فإني أَعتبر أن العدوان على الأرض الزراعية في مصر أخطر من العدوان على حقل بترول، فهو آجِلًا أو عاجِلًا سيَنضَب، أمَّا العدوان على الطمي الذي عشنا عليه سبعة آلاف عام وندَّخره لنحيا عليه سبعة أو مائة أخرى، فإنه جريمة بكل معنى الكلمة.

ومن عبث القول أن أستطرد في شرح أو تصوير خطورة نقابلها بحالة الـ Apathy التي كتبتُ عنها ذات مرة أو حالة «التولة» التي نحيا فيها. إني أطالب بإعلان الأحكام العرفية الزراعية الأرضية، أطالب أن نهبَّ جميعًا لنحمي خصوبتنا وحياتنا، أطالب بأن يُعتبر العدوان على أرضنا بالضبط كالعدوان المسلَّح على بلادنا، وأن تصل عقوبته إلى السجن المؤبد وعلى الفور وبمحاكمات سريعة وعلى الفور، على نسق المحاكمات في حالة الحرب، وأن تَصدُر الأحكام رادعة وتُنشر على أوسع مدى، فنحن قوم كِدنا نتحول أو بعضنا على الأقل ليس إلى أكلة لحوم بشر، وإنما إلى أكلة أمهم الأرض.

كما أطالب وعلى الفور بمصادرة أكوام الطمي المكوَّمة بجوار مصانع الطوب، ودفع تعويضات مناسبة عنها، فهي مهما كانت ستكون أرخص من استصلاح فدان صحراء أو شراء مسمدات صناعية.

بل أطالب بإغلاق جميع مصانع الطوب «الطميي» في مصر فورًا، ورصد ملايين الجنيهات لإقامة مصانع عاجلة للطوب الطفلي والرملي والأسمنتي، وإني متأكد أن الدكتور يوسف والي وزير الزراعة سيَسعد بكلماتي هذه، ولكني لن أكتفيَ بسعادته، وسأُطابه بأن يرتدي ملابس الميدان ويقود معركة الدفاع عن أرضنا، وسيَعتبِر كل مِنَّا نفسه جنديًّا في هذه المعركة ... يا سارقي الطمي، ومجرِّفي الأرض، وحارقي أرضنا لتكسبوا مالًا حرامًا هو طعامنا وطعام أبنائنا، أفيقوا؛ فإن جريمتكم لو تبينتموها لاقشعرَّت أبدانكم هولًا، ولأنني أعرف أن النصيحة لن تجدي، وأنهم سكارى بمكاسبهم لا يُفيقون ولن يُفيقوا، فإني أطلب من الدولة ومن الشعب أن نقضي على فئران الأرض وقارضيها تمامًا.

أمَّا تحويل الأرض الزراعية إلى أرض مبانٍ، وبشاعة الفساد في استخراج تصريحات بهذا ووجوب مقاومته مقاوَمة الطاعون، فإني أطلب فورًا أن تجنِّد الدولة كافة أجهزتها ومؤسساتها وتُغيِّر من القانون تغييرًا جذريًّا، بحيث يرفع عقوبة الشاري والبائع والموظَّف الذي أعطى التصريح، واعتبارها كجريمة تجريف الأرض خيانة عظمى، فكيف نُعاقب من يَنكص في الحرب بتهمة الخيانة العظمى، والحرب لن تَفعل سوى احتلال عسكري،

ولا نُعاقب من يخون الأرض والشعب عن عمد وسبق إصرار وترصُّد بطريقة يَستأصل معها وجودنا نفسه ولا يحتلُّه فقط؟

هل أنا أؤذن في مالطة؟!

أم أن مالطة خَرِبة فعلًا ولا حول ولا قوة إلا بالله؟!

الفصل الثامن

فقر السلوك

كلما سافرت وأوغلت في بُعدي عن الشرق الأوسط، أحسستُ بمدى ما للعرب من خطورة وأهمية في عالم اليوم، أو بالتحديد في عالم الثمانينيات، هذه المرة كنتُ أحضر مؤتمرًا عالميًّا آسيويًّا أفريقيًّا للقصة القصيرة في الهند، وانتهزت الفرصة وزرت كثيرًا من بلاد جنوب شرقي آسيا، وفي هذه الجولة أحسست بمدى وخطورة الدور الذي يلعبه العرب الآن، ليس فقط في الوضع الاقتصادي العالمي، ولكن خطورة ما يُمكن أن يلعبوه في الوضع السياسي، بل والثقافي العالمي.

إن العالم — وبالذات في هذه المنطقة الزاخرة بالبشر من العالم — يَنظر إلى العرب نظرة ليست بسيطة بأي حال، بل هي معقَّدة بالغة التعقيد، فيها نظرة من نظرات الفقير في أي مكان من العالم، إلى أيِّ ثري من أثرياء العالم؛ الحسد مرة، والحلم بامتلاك جزء من ثروته مرة، ونفاقه مرة، وتقديم آيات الاحترام له مرة، الخضوع الظاهر له، والتمرُّد الباطن عليه وعلى الحظ النفسي الذي جعَل البترول يتفجَّر في أرضه الصحراوية القاحلة فيُحيل منطقة من أفقر مناطق العالم طبيعةً وجوًّا إلى مكان يضمُّ أثمن كنز ادَّخرته الجيولوجيا لشعب من شعوب الأرض.

ولكنَّ الذي لا شك فيه أن جنوب شرقي آسيا من الأمكنة التي يَحظى فيها العرب باحترام عميق.

فالإحساس الأول الذي انتابني وأنا أسمع آراء الناس من مختلف الفئات، كُتَّابًا ومثقَّفين، وتكنوقراطيين، وحِرَفيين، وسائقي تاكسي، وأُناسًا من عامة الشعب؛ الإحساس الأول أننا كعرب لا نعرف بالضبط مدى ولا كُنهَ قوَّتنا، ويبدو أننا بخلافاتنا العربية الصغيرة والكبيرة، بمُشاحناتنا، بصراعاتنا الداخلية التي تَستنزِف معظم تفكيرنا وطاقاتنا، استغرَقَنا هذا كله إلى درجة لم نجد وقتًا بعد لنتصوَّر وضعنا «الكُلي»

وسط العالم، ولا انتبهنا تمامًا لكيف ترانا عيون العالم، كل انتباهنا لا يزال مُوجَّهًا إلى الصور الكاريكاتورية التي تُشنِّع بها الصحف في كثيرٍ من بقاع الدنيا على الشخصية العربية الغنية، يفور دمُنا في عروقنا لدى رؤيتها، ونسبُّ راسميها وناشريها، ونكظم الغيظ ضد هذا الغرب الذي يسخَر مِنَّا، وأبعد من هذا لا نرى.

الناس في آسيا، وبالذات في جنوب شرقي آسيا، لا يقرءون الصحف اللندنية ولا الغربية، ولا يرون العرب كثيرًا بالعقال، ولكنهم يسمعون ويعرفون تمامًا المملكة العربية السعودية وأبو ظبي وقطر والإمارات العربية والكويت، يَعرفون العراق وليبيا، يعرفون مصر، ويُتابعون أخبار القضية الفلسطينية وموقف إسرائيل. باختصار يَعرفوننا كدول وكسياسة، وحُلم كل طبيب في الهند أن يعمل في السعودية، وكل سباك في الفلبين أن يَحظى بعقد عمل في أبو ظبي، وكل ممرضة في الفلبين تَحلُم بمستشفى في بلاد البترول.

وهم ليسوا كالناس في أوروبا يَخافون على الحضارة الغربية من أن يَغتالها العرب المتوحِّشون؛ إذ هم يَعرفون أن العرب مثلهم آسيويون شرقيون، ولا يُفكِّرون أبدًا في الهجوم على دول الخليج واحتلال مناطق البترول، ولا يضعون الخطط لقوات التدخل أو الاحتلال السريعة، ولا شيء أبدًا من الأفكار الجشعة التي تهجس بها خواطر الناس في أمريكا وأوروبا.

الحقيقة أفكار مسالمة تمامًا هي ما كنتُ أسمعها، أحلام بأعمال ومشاريع ومقاولات وشركات مشتركة، أشياء جعلتني أكاد أُوقن بأن التفكير في استعمار الآخرين واحتلالهم واستعبادهم ظاهرة أوروبية محضَة، ربما نمت كامتداد لفكرة التبشير التي انشغَلَت بها الكنيسة في أوروبا القرون الوسطى ردحًا طويلًا من الزمان وإلى الآن. في آسيا، مع كثرة الديانات واختلافها الشاسع، لا أحد يريد لأحد آخر أن يَعتنق دينه، ربما العكس هو الصحيح، فكل طائفة تُقاوم أن يدخلها آخرون أو على الأقل تجعل دخولها أمرًا صعبًا في حاجة إلى تلمذة ومران طويلين.

وربما لهذا لا يفكر أحد في التحكُّم في أرض أحد آخر أو مصيره، بل كانت دائمًا هذه البلاد ضحايا لغزو تتري مرة أو مغولي مرة أو أوروبي مرة أخرى.

أقول هذا لأنني أعتقد أننا نحن العرب أطَلْنا التطلع إلى الغرب أكثر بكثير من اللازم، زمنًا وانبهارًا وتقديرًا يرتفع إلى حد التقديس، بل نحن لا نَزال إلى الآن نتطلع إلى ما يحدث في باريس أو لندن أو نيويورك، وكأنها عواصمنا الوجدانية والعقلية، في حين أن الغرب في

حقيقة أعماقه يَزدرينا ولا يفكر فينا إلا لكي يستغلنا أو يُخضعنا أو يَسلبنا آخر درهم في محافظنا. ومع هذا، وكلما فعل هذا، بل كلما اتَّضحت لنا نذالته وقسوته وأنانيته أمعنَّا في إراقة ماء وجوهنا تحت قدميه، وكأنه الحبيبة الجميلة الشرسة البيضاء نحبُّها حُبًّا مازوكيًّا ليس له نهاية، كلما عذبتنا تغنَّينا بعذوبة تعذيبها وجمال وحشيتها وروعة أن نذوق الأمرين في وصالها.

وطوال الوقت نحن نُولي ظهورنا إلى من يُقدِّروننا حضارةً وتاريخًا ودينًا ووجودًا، حتى حين جاءنا الثراء لم يَحسدونا حسدًا جماعيًّا عليه، وإنما لم يتعدَّ حسدُهم حدود الحلم بأن يعملوا معنا أو لدينا.

والمؤلم أننا نقدر مكانتنا في العالم متبنِّين نظرة الغرب إلينا، ولأنه لا يُقدرنا حق قدرنا، فنحن أيضًا لا نُقدِّر أنفسنا حق قدرها، نحن «نُشنِّع» على أنفسنا أضعاف أضعاف ما «يُشنع» به الغرب علينا، وفي قرارة أنفسنا لا نحترم خصالنا ولا عاداتنا بالضبط مثلما يَحقرها الغرب وينظر إليها من علياء سمائه، بينما في خصالنا الكثير الجدير بالاحترام والقليل الجدير بالنقد، ولكنه ليس نقد المازوكي الهاوي تعذيب نفسه، إنما نقد الرجل الواثق بنفسه حين يُراجع ذاته وخصاله ويَشجب بكل الثقة ودون أدنى إخلال بكيانه الكُلي ما يراه غير جدير به من صفات، أو بدل الإمعان في نقد الذات أحيانًا ما تركبُنا العزة بالنفس الجهول ونَتمادى وكأن العيب كل العيب أن نقول لأنفسنا أو يقول لنا أحد: لقد أخطأت، وإليك قصة:

كنتُ راكبًا الأتوبيس المنتظم الذي يُقلُّ المسافرين من مصيف «بتايا» في تايلاند إلى العاصمة بانجوك، هي في العادة عُطلة نهاية الأسبوع يهرع إلى الشاطئ الناسُ هربًا من حرِّ بانجوك ورطوبتها ويقضون ثلاثة أيام حافلة، ثُمَّ يحملهم الأوتوبيس المنتظم إلى العاصمة مرة أخرى.

كانت الساعة تُقارب التاسعة، والناس في الأوتوبيس وقد استيقظوا مبكرين يُمنُّون أنفسهم بساعتين ونصف من الإغفاءة وهي المسافة بين المصيف والعاصمة، وكان من ركاب الأوتوبيس خمسة من بلد عربي شقيق، جلس أربعة منهم في المؤخِّرة، وجلس الخامس على أول مقعد، ومن لحظة أن ركبنا الأوتوبيس وهم بأصوات عالية يَتصايَحون ويُنكِّتون ويَضحكون ويتبادلون التعليقات العالية الصاخبة مع زميلهم الجالس في المقعد الأول، وكانوا يتفاخَرون — وأنا الوحيد الفاهم — بما فعلوه في «بتايا»، وبالقطط السمراء «المقطقطة» التي اقتنصوها.

كنتُ أراقب الركاب وعيونهم تُوشِك أن تنغلق إغفاءة ثُمَّ لا تلبث أن ترغمها قهقهة مدوية أو صوت صاحبهم السمين العالي جِدًّا، وكأنه في أرضٍ لا أول لها ولا آخر، وهو يُرغم زميله راكب المقعد الأول على مشاركته الحديث الصائح، عيونهم تُوشك أن تنغلق، ثُمَّ ترغم على التفتح وتستدير رءوسهم وكأنما ترجو المتحدِّث رجاءً مبتهلًا صامتًا أن يَكُف، ولكن أحدًا لم يكف، ربع ساعة مضَت، نصف ساعة، ساعة بأكملها مضت والحديث عن القطط هو الحديث، والصياح هو الصياح، وضاقت صدور الركاب وكلُّهم صامتون، حتى أولئك الذين كانوا يُحدِّثون جيرانهم همسًا صمتوا لكي يظل المتصايحون الأربعة هم وحدهم الغوغائيين؛ إذ إن زميلهم الخامس آب إلى سكون خجل مستمر.

إلى أن انبرى راكب من الركاب وطلَب منهم بأدب جم أن يخفضوا أصواتهم، لأن الناس في الأوتوبيس مُنهَكون والرحلة لا تزال طويلة، وكأنما وقعت الواقعة، وكانت التعليقات كالآتي:

– أهو يريد أن يتحكم فينا ابن الـ «...».

– حسن، إذا كان يريد أن نَسكُت فسنُعلِي أصواتنا أكثر ويا ...

– ابن الـ «...» هذا الصعلوك يريد أن يعلمنا الأدب ...

– أطفال نحن حتى يُسكتنا ابن «...».

وتضاعفت الضجة، وسمعتُ الراكب الذي أمامي يميل على زوجته ويهمس لها: عرب؟! أليس كذلك؟ فهزَّت رأسها بالإيجاب، ونظرت إليه وكأنما تنظر إليهم بامتعاض لم أرَ له مثيلًا في حياتي.

الحقيقة بلَغ بي الضيق منتهاه، فماذا فعل الشعب العربي المؤدَّب بطبعه حتى يحيق به خمسة مُراهقين كهؤلاء وإن كانوا رجالًا بشوارب ضخمة وكروش أضخم، حتى يحيقوا به لعنةً لن تزول، فإن أحدًا من هؤلاء الركاب لن يَنسى أبدًا تصرفًا كهذا، نغَّص عليه حياته ساعتين ونصف الساعة بلا توقُّف، وأحسست أن عروبتي تُملي عليَّ أن أفعل شيئًا.

وتسللتُ إلى الراكب الأمامي، ومِلت عليه، وأفهمته الموقف الذي لم يكن بحاجة إلى إدراكه، ورجوته أن يَرجوهم أن يخفضوا أصواتهم فقط وليس حتى أن يكفُّوا عن الحديث.

وكان الرجل طيبًا تمامًا، وفيم كنتُ أعود إلى مقعدي كان هو يتحرك من مكانه ويذهب إلى حيث يجلسون في مؤخِّرة الأوتوبيس، ويتبادل معهم حديثًا قابلوه باحتجاج،

ولعلمهم أني عربي مثلهم وأني سأفهمه فلم يسبوا ولا لعنوا، ولكن بصوت عالٍ راحوا يتحدثّون عن «حريتهم» في الحديث التي لا تَحتمِل تدخلًا من أحد.

وإمعانًا في التمتُّع بحريتهم ظلوا سادرين في حوارهم الصاخب حتى تعبوا، وحينئذٍ فقط كفُّوا.

أحدهم، فقط، كان بين الحين والحين يتذكَّر «حريته»، فيفاجئ زملاءه والركاب بتعليق صارخ لا معنى له، وحين لا يجد جوابًا، يعود للسكوت.

أقارن هذه القصة، ونحن بعدُ ما زلنا في آسيا، بما يفعله أي سائح ياباني؛ فقد رجَتِ الحكومة اليابانية منذ بضعة أعوام كل سائح ياباني أن يكتب لدى عودته إلى اليابان تقريرًا عما رآه في رحلته السياحية تلك، وبالذات عن الأشياء الجميلة التي رآها في البلد الذي زاره والتي لا توجد في اليابان حتى تَقتبسها بلاد لتجملها أكثر وأكثر، وتصوَّروا آلاف وملايين التقارير لو حفلت مائة منها كل عام بشيء جميل ممكن تحقيقه، ألن يوصل هذا اليابانيين إلى أن يجعلوا من بلادهم جنة؟

ربما لو طلبت حكومتنا فقط من كل سائح عربي، ليس أن يكتب تقريرًا، وإنما أن يعتبر نفسه وحده مسئولا عن صورة العرب في عيون الشعب الذي يسافر إليه، ربما لو حدث هذا لتغيَّرت صورة العرب في عيون العالم؛ ذلك أن بعضنا يتطوَّع بتشويه الصورة، وقدَّم للدنيا متطوعًا مادة سخرية أو كُرْهٍ تَنال من سمعتنا بصورة تُغضب أول ما تُغضب أي عربي مهما تواضَع مستواه.

لو كان ذلك الأوتوبيس في لندن، لما حدث ما حدث، لأننا نرى الإنجليز في مستوى أعلى من مستوى النظر، بينما الناس الذين يَحترموننا حقيقة، كالناس في آسيا، نَنظُر إليهم من عَل.

الفصل التاسع

لماذا لا ننتج؟!

لا تغيظني كلمة أكثر من كلمة الحرية إذا ذُكرت مجرَّدة.

فلا شيء هناك اسمه حرية، هكذا، في الهواء. الحرية مجرد رغبة بشرية لا يمكن أن تحقق نفسها إلا من خلال كفاح الإنسان ونضاله وقدرته على التحقيق.

وما أكثر المقالات التي نقرؤها في صحافتنا تطالب بالحرية ...

حرية ماذا؟

وحرية مَن؟!

أنا أفهم أن يُطالِب الكاتب أو الحزب بحريات محدَّدة واضحة مجسَّدة من المُمكن تحقيقها، أفهم أن يُطالِب الكاتب بحرية الانتخابات، بحرية النقابات في مزاوَلة نشاطها، كافة أنواع النشاط، بحرية تشكيل الأحزاب، بحرية إصدار الصحف، بحرية الكاتب، بحرية المواطن أن يختار مُمثليه وحاكِميه وتغييرهم ...

بمعنًى آخر، الحرية مقترنة بتطبيق محدَّد.

فالحرية ككلمة لا معنى لها بالمرة، إنما المعنى الحقيقي في مزاولتها.

فحرية مثل حرية الصحافة مثلًا شعار جميل جِدًّا، ولكن لكي تتحقَّق هذه الحرية، فلا بُدَّ أن تُقرَن بالضمانات لتحقيقها، الضمانات التي تحمي هذه الحرية وتَكفُلها.

والديمقراطية أيضًا، مثلها مثل الحرية مجرد كلمة تظلُّ جوفاء لا معنى لها إلى أن تجسد على هيئة طرق ديمقراطية ووسائل ديمقراطية وحياة ديمقراطية.

لقد كان الشعار السادس لثورة يوليو هو إقامة حياة ديمقراطية سليمة ...

ومنذ البداية كنتُ أعترض على كلمة سليمة هذه، فلا توجد حياة ديمقراطية سليمة وحياة ديمقراطية غير سليمة، وإنما توجد حياة ديمقراطية أو حياة غير ديمقراطية.

وكلمة مثل الانفتاح وترشيد الانفتاح أو الانفتاح الرشيد، كلمة مُصطَنعة تمامًا، وقد أردنا بها أن نتحايل للانتقال من المرحلة شبه الاشتراكية إلى مرحلة شبه رأسمالية، فلماذا لا نُسَمِّي الأشياء بمسمياتها! لماذا لا نقول إننا نعيش الآن في عصر رأسمالي! ونقولها بكل وضوح، ولا نقولها فقط وإنما نعيش هذا العصر فعلًا بكافة مُتطلباته.

فالرأسمالية تستلزم إقامة حياة كاملة ديمقراطية، وإلا فشلَت تمامًا كرأسمالية. إن إقامة الرأسمالية بدون ضمانات لحرية حركة رأس المال وحرية تكوين الشركات والأحزاب، وحرية اختيار ممثِّلي الشعب وحتى ممثِّلي الرأسمالية ليحكموا، هو سلب للرأسمالية من أهم ميزة لها؛ ألا وهي ميزة اختيار الأصلح والأقوى، ميزة حرية الصراع التي لا يصمد فيها إلا الجدير حقًّا بالصمود. أمَّا إقامة الرأسمالية في ظل وجود قيود أو «اختناقات!» ديمقراطية، فلا يَنتج عنه سوى المحسوبية والشِّلَلية والعصابات وإدارة دفَّة الحكم من أجل طبقة غير ظاهرة للعيان، وغير مسئولة أمام مجالس نيابية وأمام صحافة حرة في نقدها وكشفها وأمام قضاء له الحق الكامل في إدانتها إذا أخطأت أو غشَّت أو دلَّسَت أو تهرَّبَت أو سرقت، نحن قد جعلنا من الانفتاح رأسمالية بدون قواعد اللعبة الرأسمالية الكاملة. وإذا سمَّينا الأشياء بأسمائها، فإن قمة الرأسمالية في العالم هو النظام الأمريكي، والنظام الأمريكي ليس هو ما نراه في حلقات «دالاس» وقصص «الكاوبويز». إن النظام الأمريكي قائم على مبدأ حرية المنافسة التجارية والصناعية والزراعية، ولهذا فالحرية مطبَّقة في كل ناحية من نواحيه، وضمانات الحرية، حرية تكوين الأحزاب، حرية التعبير، حرية إصدار الصحف، حرية مهاجمة الكنيسة حتى، مكفولة تمامًا بحكم الدستور.

فإذا كُنَّا قد أردنا أن نُقلد الانتعاش الرأسمالي الأمريكي بانتعاش رأسمالي مصري، فلماذا نأخذ القطعة الضارة من الرأسمالية ونترك أحسن ما فيها ونستبدلها بأسوأ ما في الاشتراكية.

ذلك أن الاشتراكية هي الأخرى لها قواعد إمَّا أن تأخذها كلها كوحدة وإمَّا أن تتركها كلها وتُصبح رأسماليًّا، والاشتراكية لها هي الأخرى ضماناتها؛ فبجانب أنها تضمَن حق التعليم وحق العلاج وحق العمل، فإنها تَضمن — أو مفروض أنها تَضمن — حق التعبير عن الرأي، سواء في المجالس المحلية أو في داخل الأحزاب التي تُطبقها، وحزب «ميتران» مثلًا حزب اشتراكي، وقد حضرت مرة اجتماعًا له في باريس، وكان النقد الذي وجه إلى رئيسه وإلى مكتبه السياسي أمَرَّ بكثير من أي نقد يوجَّه إلى ريجان أو كارتر في الصحافة الرأسمالية الأمريكية.

ولكن لأننا اعتقدنا أن النظام الاشتراكي يستلزم بالضرورة أن يكون الحكم شموليًّا؛ فقد قرنَّا الاشتراكية بتَكميم الأفواه، وحق إبداء الآراء واختيار المُمثلين، وكثيرًا ما يبتسم الإنسان في سخرية حين يقرأ لبعض الصحفيين ردَّهم على بعض المعارضين الماركسيين بقولهم: وهل البرافدا أو الأزفستيا تنشر كذا أو كيت، وكأن الطريقة الروسية للحكم — بظروفها التاريخية وعيوبها — هي الطريق الوحيد للاشتراكية.

باختصار، أخذنا من الرأسمالية مساوئها، ومن الاشتراكية فعلنا نفس الشيء.

وأصبحنا لا اشتراكيين ولا رأسماليين، ولا أدري أي اسم نُطلقه على كل حكوماتنا العربية، ولا بُدَّ أن يفرد التاريخ المعاصر صفحة ليخترع لهذه النظم العربية كلمة جديدة في القاموس السياسي تستطيع بدقة أن تصف أنواعًا غريبةً من حكومات ونظُم، بالقوة تأتي، وبالقوة تحكم، وبالقتل أو التآمر يتم التغيير، وأيضًا إلى نظام بالقوة يأتي هو الآخر، وبالقوة يحكم.

ولهذا لا تلوموا حكوماتنا العربية، رغم اختلاف أسمائها، على موقفها من أحداث لبنان البَشِعة.

فحكومات ما بعد الاستقلال في البلاد العربية، مجرَّد حكومات، ليس لها أي جذور شعبية، ولا تُعبِّر عن أي إرادة شعبية، وإنما هي تَعتمِد في وجودها واستمرارها على أنها وحدها تملك السلاح، وتحكم شعبها بقوة هذا السلاح.

ولو كانت الحكومات العربية ضاربةً بجذورها في أعماق شعوبها بمعنى أن كل رئيس دولة يُحسُّ وهو يأخذ المَوقِف أو يُناصِب إسرائيل أو أمريكا أو روسيا أو البرتغال العداء أنه مُستند إلى رأي عام، ليس فقط يُسانده، وإنما يرتبط به عضويًّا بواسطة حزب شعبي قوي ضارب أطنابه في قلب الجماهير، لو كان هذا هو الوَضع لما خاف أيُّ رئيس أو ملك عربي، ولقال للأعمى أنت أعمى، ولِلقاتل أنت قاتل، وللشريك أنت الآخر قاتل، ولما قال هذا فقط، بل إنه كان من فرط ثقته بجذوره في شعبه قادر على أن يضع يده في يد زميله رئيس الدولة الأخرى، وتأخذ البلاد العربية موقفًا يُعبِّر عن إرادة المائة والعشرين مليونًا فعلًا.

ولكن الحكومات العربية قد أخذت الموقف الذي يُعبر عن حقيقة قوتها، وقوة مستندة بطريقة أو بأخرى، لا إلى الشعب، وإنما للأسف إلى القوة العظمى المرتبطة بها، ولهذا فهي — أي هذه الحكومات — لا تملك حرية الحركة المستقلة، وإنما عليها أن تضع ألف

حساب للفتوَّة الذي يحرس لها شعبها من أن يُغيرها، ويَحرس لها وجودها من أن تتدخَّل دولة عربية أخرى في شئونها.

إن موقف الدول العربية من المَهزلة المأساة الفلسطينية ومن العربدة الإسرائيلية المنحطَّة في لبنان هو موقف منسجم تمامًا مع كونها حكومات عرائس يُحركها هذا اللاعب أو ذاك، وهل تملك العرائس أن تخطو أو تتحدَّث، بله أن تُدافع أو تقاتل.

وأيضًا نعود إلى قضيتنا، فكر الفقر، حتى لو كان الفقير غنيًّا جِدًّا، فالغنيُّ ليس هو من بيده مال، الغني هو القادر على خلق المال والرأسمال بجهده وعرقه.

وبلادنا العربية معظمها تُنتج الطبيعة نيابة عنه.

ولأن الفكر البشري لا يوجد إلا أثناء وبكفاح الإنسان من أجل أن يعيش ويتطوَّر ويُنتج، فلا يوجد ثمة فكر يهبط بباراشوتات من الفضاء يفرزه البشر أثناء رحلتهم الشاقة المستمرة للوصول إلى حياة أفضل، فإذا كانت الحياة الأفضل تحققها الطبيعة والجغرافيا والجيولوجيا، أو يحققها التهليب، فما الداعي لإعمال الفكر، وما الداعي للفكر أصلًا، بل ما الداعي للفن أو للعلم أو للحضارة نفسها؟!

نحن فقراء فكريًّا؛ لأننا لا نُنتج، ونحن لا نُنتج لأننا حقيقةً فقراء فكريًّا، وليس لأن هناك أزمة اقتصادية أو تضخُّمًا.

إن الأزمة الاقتصادية مرجعها إلى الدخول غير المنظورة التي لا تُحصَّل عليها ضرائب أبدًا، بينما الدخول في المجتمع الأمريكي مثلًا كلها منظورة، ولهذا تتكفَّل الضرائب بإقامة المشاريع وعمل المؤسسات ودفع الأجور العالية.

وفي تقرير لمجموعة «ميدلاند» البنكية الإنجليزية عن الوضع الاقتصادي في مصر، أنقل هنا فقرة تقول: إنَّ الاقتصاد المصري يبدو في صورة أحسن من الأعوام السابقة نظرًا لزيادة سعر البترول وتحويلات المصريين في الخارج ودخل قناة السويس والسياحة، وأيضًا (وهذا هو المهم) يضيف التقرير: بسبب الازدياد الكبير في الدخول غير المنظورة.

ولأننا نعيش في بحيرة عربية تنعم بدخول عالية من الجهود المُرهقة التي تبذلها الطبيعة والشركات الأجنبية، فإن العدوى قد انتقلت إلينا، والمصريون الكثيرون الذين رأوا كيف يعيش الناس في الدول العربية يُقارنون دخلهم بما يحصلون هم عليه من أعمالهم في مصر فيجدونه قروشًا لا تُقارَن ولا تُحسَب، وهكذا يحدث الإحباط الشديد، وبالتالي نوع من الإضراب الصامت عن الإنتاج، فالإنتاج المصري يُباع رخيصًا أيضًا، ولهذا فأي جهد يُبذل فيه سيكون ثمنه رخيصًا، فلماذا الإنتاج أصلًا؟

وأيضًا لماذا التفكير المرهق وثمنه كسِلعة أرخص الأثمان، وأي شعب مهما بلغ من الغِنى والثراء يكفُّ عن التفكير لا بُدَّ أن يئوب إلى فقر سريع مُدقِع، فالنقود جنينها الأفكار، ولا يمكن للإنسان أن يكسب إلا بفكرة يتفتَّق عنها ذهنه، وهكذا من المستحيل على شعب لا يفكر أن يكسب إلا أن يفكر بعض أفراده بطريقة منحرفة، ويَسرقون.

والحل؟

لا أريد أن أستطرد طويلًا في هذا الموضوع؛ فأنا أخاطب شعبًا بلَغَت به الأزمة الفكرية والاقتصادية أنه لا يريد أن يُجهد نفسه في بحوث وتمحيصات، بل لا يريد أن يُتعب نفسه حتى في تفحُّص مشكلته، هو يريد الحلول جاهزة مقدَّمة له على طبق من ثلاث كلمات.

والحل أن لا نقلد إخواننا الذين يَعيشون على إنتاج الطبيعة؛ فطبيعتنا لا تنتج إلا بشق الأنفس.

وأيضًا لا نقلِّد ذوي الدخول غير المنظورة ونَنحرف.

ولكن …

لكي ننتج لا بُدَّ أن نرسو على بر.

إمَّا أن نصبح رأسماليين بكل الضمانات الرأسمالية للعدالة والديمقراطية.

وإمَّا أن نصبح اشتراكيين بكل مزايا وعيوب الاشتراكية.

أمَّا الرقص على الحبل، أو أخذ ما يُعجب حاكمينا من عيوب الاشتراكية وعيوب الرأسمالية لضمان «سلاسة» الحكم، فقد أوقعنا هذا الرقص فيما نحن فيه الآن.

وإذا كان المسئولون في مصر قد أعلنوا أكثر من مرة أننا لا يُمكن أن نسير في كنف قوة عظمى، فكلنا مع هذا الرأي شرط أن نُدرك لماذا اضطررنا ونضطر للسير في كنفِ قوة عُظمى شرط الاعتماد على النفس أوَّلًا وأخيرًا، ولكي تعتمد عليَّ لا بُدَّ أن تُعطيَني الحق أن أكون أنا، ولكي أكون أنا لا بُدَّ أن يكون لي رأي ولي حزب، ولي جريدة ولي ممثِّل انتخبتُه بكامل حريتي ليدافع عن مصالحي ووجهة نظري.

إمَّا رأسمالية كاملة مُنتجة.

وإمَّا اشتراكية كاملة منتجة أيضًا.

ولا إنتاج بغير الرسوِّ على بر.

بر بكل مزاياه وبكل عيوبه.

برٌّ نبدأ منه رحلة وجودنا الحقيقية تلك التي نضطر معها أن نفكر تفكيرًا غنيًّا يتحول بدوره إلى إنتاجٍ غنيٍّ، وثروة حقيقية، وحياة وحضارة.

رحلةٌ نَعتمِد فيها على أنفسنا، ولكي نكون أنفسنا، فلا بُدَّ أن يكون لشعبنا حقوق وجوده كاملة.

فالمأزق الذي نحن فيه، مأزق وجود، وليس مجرَّد أزمة اقتصادية أو فكر، وخوفي الأكبر أن نخرج منه بطريقة متفجِّرة تؤدي بنا إلى مأزق أكبر بكثير، مأزق الجنون أو التعصب أو القوة الغاشمة، لا ليست المسالة هزلًا.

وليست مجرَّد مشكلة.

إنها مُفترق طرق.

وبلا خيار.

الفصل العاشر

حقائق كيسنجر وأكاذيبه

قررت بعد أن قرأت الأجزاء التي نشرَتها مجلة «تايم» عن الكتب الثلاثة التي يَنوي الدكتور هنري كيسنجر — أو التي انتهى فعلًا من كتابتها — قررتُ ألا أصدق ثلاثة أرباع ما يكتبه الساسة عن أنفسهم وعن أعمالهم، خاصةً إذا كانت عن أحداث قريبة العهد حدثت لهم أو كانت عن أنفسهم.

إن الدكتور هنري كيسنجر كذاب عظيم، والكذب أنواع، هناك الكذب الأصفر الذي نستعمله في حياتنا كثيرًا، ولكن بعض الناس يبلغ بهم غباؤهم أن يستعملوه في كتاباتهم. وذلك الكذب الذي باستطاعة أي متوسط الذكاء أن يكتشف الفجوات الكامنة فيه، بل أن يغلق الكتاب أحيانًا ويبدأ «يفكر» إن كان ما يقرؤه قد حدث حقيقة، أو أن المسألة شيء لا يستطيع أن يضع إصبعه عليه في الحال؛ إذ هو يأبى أن يمرَّ على خلايا عقله مرور الكرام، والأمثلة للكذب الأصفر كثيرة، خاصة في عالمنا العربي. لقد أُتيح لي أن أقرأ مذكِّرات بعض السياسيين العرب المُعاصِرين؛ إذ إن كتابة المذكرات هي «مودة» استُحدثت في العالم العربي بين السياسيِّين قريبًا، حين وجدوا أنها تكاد تكون شبه القاعدة للسياسيين في أوروبا، كذب السياسيين في مذكراتهم أو كتبهم التي يؤرِّخون بها للفترة التي عاصَروها من تاريخ أممهم كذب صغير، غير محبوك، وأنا لا ألومهم عليه؛ إذ إن الظروف في مجتمعاتنا العربية لم تَصِل بَعدُ إلى الدرجة التي يستطيع فيها الإنسان أن يقول عن نفسه أو حتى عن الآخَرين، الحقيقة، كل الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة؛ ذلك أننا لا نزال بعد نعيش في عصور النفاق، ولفظة النفاق هنا لا أستعملها كنوع من السباب، إنما أستعملها كمرحلة علمية تمرُّ عليها أو تمر بها المجتمعات أثناء رحلتها من عصورها البدائية القبلية إلى عصر اندماج القبائل في مجتمع أو أمة أو خلق وطن؛ إذ لو أخذت هذه الجماعات الصغيرة طريق قول الحق والحقيقة لانفرَطَ عقدُها في الحال، ولما استطاعت

أبدًا تخطِّي مرحلة الانقسام البدائية إلى مرحلة الالتئام الكبير اللازم لصناعة الأمة، وخيرُ مثال على هذا ما يحدث في «زيمبابوي» مثلًا. إن هناك تمثيلية كاذبة تمامًا، أطرافها جوشوا نكومو من ناحية والسيد موجابي من ناحية أخرى، والأدوار الثانوية يقوم بها حزباهما «زانو» و«زابو»، والجميع كذابون على أوسع نطاق، والتُّهم التي يُوجِّهها كل طرف إلى الآخر مليئة بالمغالطات، وإذا تصالحا — كما تصالحا قبلًا — فسيُبنى صلحهما على استعداد كل طرف لتصديق كذب الطرف الآخر، وربما يؤدي هذا الكذب الأصفر غير المصدق وهذا التصديق الأصفر غير المكذَّب إلى تكوين صلح بين القبيلتَين الكبيرتين واندماجهما معًا لتكوين أمة، وربما يؤدِّي إلى العكس تمامًا، وانفرط عقد الأمة المصطنعة المبني على تحالف واه ليعود كل إلى سيرته الأولى.

أمَّا الخطر الحقيقي، فهو ذلك الكذب الأكبر، الذي يقوم به الساسة والحُكَّام وأحيانًا المفكِّرون في الدول الكبرى الغنية التي تخطَّت من قديم الزمن حاجز القبلية والانصهار، بل ربما وصلَت إلى مرحلة «السوبر نضج» أو السوبر «باور». إنَّ كل سياسي من هؤلاء السياسيين يريد أن يَسبِق المؤرِّخين ويُحدد لهم بطباشير بيضاء كُنهَ الخط الذي عليهم أن يسيروا عليه في تاريخهم للمرحلة، ولعصره، ولدوره.

ولأمرٍ ما كنت أتصوَّر الدكتور كيسنجر أذكى من أن يكذب حتى يصل إلى ذلك الكذب الأكبر، كنت أضعه في مصافِّ كتاب الروايات العظام الفلتات؛ إذ إن هناك أيضًا كتاب روايات يؤثِّرون على القراء بكَذِبهم الأصفر، فيُنمِّقونه ويُدبِّجونه، بحيث في النهاية يصدقهم غالبية القراء. أمَّا الكذَّابون الكبار، أمثال تولستوي وديكنز وأندريه جيد، فهُم كأخطر وأخبث أنواع الحواة من الصعب أن تُدرك كيف صاغوا اللعبة المعجزة.

فباستطاعتهم ودون وضع المساعدة الجميلة في صندوق أن «ينشروها» بمنشار حقيقي عند منتصفها أمامك، بحيث حين ينتهون يقسمونها قسمين فعلًا، يتحرَّك أسفلهما بلا رأس على حدة ويتحرك أعلاهما بلا أرجل على حدة أخرى، ذلك أنهم في الحقيقة لا ينشرون ولا يقطعون، ولكن لديهم القدرة والموهبة على الإيحاء والتنويم المغناطيسي الجماعي ما يَستطيعون به أن يُنوِّموا جمهور مسرح أو جمهور قارة أو جماهير أجيال كثيرة متعدِّدة تنويمًا مغناطيسيًّا مجسَّدًا في رموزهم «الكلمات» وكتبهم بحيث يُصدقهم الناس بمجرد قراءتهم، حتى لو تعارض ما يكتبون مع كافة الحقائق العلمية وغير العلمية التي نعرفها جميعًا ونؤمن بها.

مستر كيسنجر أحب أن يُصبح تولستوي السياسة، ويكتب قصة الحرب والسلام (على الأقل في ذلك الجزء الذي قرأته) عن الحرب والسلام في الشرق الأوسط، ودوره

«المعجز» في صناعة كلٍّ منهما، لقد جعلت أقرأ ذلك الجزء وكأني أقرأ لتولستوي مُبتدئ أرثي لجهوده الهائلة كي يَرتدي مسوح الكُتَّاب الكبار، ومستعملًا قريحة يعتقد هو أنها إحدى فلتات الزمان، ومعتمدًا على جهل قراء أمريكيِّين يُصدِّقون ما يُكتَب، وقارئ أوروبي «يتفرج» على ما يكتب، ليُنوِّمهم مغناطيسيًّا، بحيث يُقنعهم أن هذا كله قد حدث بالضبط مثلما روى، وأنه هو شمشون الجبار الذي استطاع في وقت انهارَت فيه القيادة الأمريكية الرسمية مُمثَّلة في نيكسون وفضيحة ووترجيت وقد انشقت وابتلعته، بالحق استطاع في غيبة حتى قائد أمريكا العسكري وانشغال الكونجرس بلعبة ووترجيت، أن يواجه وحده المعسكر الشيوعي بأَسرِه الذي لم يكن يُعاني من أي مشاكل داخلية، وأن يهبَّ هبَّة الإسكندر الأكبر سياسيًّا وعسكريًّا ومُفاوضًا وندًّا لبريجنيف والمكتب السياسي للحزب الشيوعي والحزب نفسه، والعرب، وأوروبا، والجيش المصري والإسرائيلي، وعالم يوشك أن يسقط «مدشدشًا» مئات الشظايا، وكأن الكرة الأرضية كرة من زجاج قذف بها فوق أرض صلبة فتكسَّرت أو كانت «ستدشدش» تمامًا. وهو وحده، بقرنه الواحد، استطاع أن يَحول بين أمريكا وبين أن تَسقُط داخليًّا، ويحول بين أمريكا العسكرية ومواجهة مؤكَّدة عسكرية رهيبة مع المعسكر الشيوعي بأَسرِه. واستطاع أيضًا أن يُنقذ إسرائيل في لحظة أوشكَت الجيوش المصرية السورية أن تَبتلعها وتُصبح في خبر كان، استطاع من بين أنياب الذئاب العربية المسعورة أن يَنتزعها ويُعيد لها توازنها، ويُعيد لها قواتها بحيث تسحق الجيش السوري في الشمال حتى لتدقَّ أبواب دمشق، وتكسر عظام العمود الفقري للجيش المصري وتحول بين إسرائيل وبين أن تَقصم ظهر الجيش الثالث وتُصبح مصر مفتحة الأبواب أمام إيريل شارون ودباباته التي أحدثَت ثغرة كانت ستدفن فيها مصر العسكرية الساداتية المهيبة.

وبينما يُصوِّر نفسه ذلك «الكسرى» المهيب، لا ينسى بين كل حين وحين أن يذكر القارئ بأنه ما هو إلا لاجئ يهودي فارٌّ من بطش ألمانيا النازية، وأنه أول وزير خارجية يكون مولودًا خارج أمريكا، ويبلغ به الأمر حدَّ أن «يُنكِّت» ويقول إنه أول وزير خارجية أيضًا لا «يفرق شعره» الكثيف.

والقصص التي يرويها كيسنجر تكاد — لمن لا يعرف — تُشكِّل «حكاية» متقنة تمامًا، ولا بُدَّ أن الكثيرين آمنون وسيُؤمنون بها، ولكن حمدًا لله أنه ليس الشاهد الوحيد على ما جرى، وأن هناك حقائق كثيرة لا يُمكن إنكارها تروي قصة تكاد تكون مغايرة تمامًا لما رواه كيسنجر.

إن كيسنجر يصور حرب ٧٣ وكأنها شيء باغت — تمامًا — العالم، وعلى رأسِه الولايات المتحدة ببنتاجونها ووكالة مخابراتها، وباغت الاتحاد السوفيتي وأوروبا وحتى العرب أنفسهم.

وأنا لا أريد أن أصغي كثيرًا إلى الهمسات التي تُؤكِّد أن حرب أكتوبر كانت شيئًا متفقًا عليه بين السادات وأمريكا، وأن اتصالات كثيرة جرت بين السادات شخصيًّا وبين صانعي السياسة الأمريكية. أمَّا أن إسرائيل فوجئت بالحرب فهذا أمرٌ لا شك فيه، أمَّا الذي فيه شك كثير فهو أن تكون أمريكا قد فوجئت تمامًا بتلك الحرب؛ فحُكَّام الدول العربية تقريبًا يعرفون ومتأكِّدون أن الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة لا يُمكن أن يُسمَح لهم بحرب يلحقون بإسرائيل فيها هزيمة عسكرية ساحقة، وأن أمريكا لا يُمكن أن تسمح بقيام حرب إلا وهي عارفة وضامنة أن إسرائيل فيها ستكون المُنتصرة أو على الأقل ستكون غير مهزومة تلك الهزيمة النكراء. إن العالم كله يعرف أن طريقة كيسنجر لحل المشاكل هي التفاوض، والطريقة لإجراء مفاوضات ناجحة هي «تسخين» المشكلة أو تحريكها من وضع الركود التام إلى أن تُصبح التهابًا عالميًّا حادًّا، التهابًا عالميًّا يجهِّز المسرح لمائدة مفاوضات مباشرة بين الأطراف المعنية.

قصة بوليسية مُثيرة ساقها كيسنجر، عن المفاجأة، وعدم التصديق، ثُمَّ انهيار الجيش الإسرائيلي ووضع الجيش السوفيتي نفسه في حالة تأهُّب وعمل جسر جوي بينه وبين دمشق والقاهرة بطريقة جعلته «يأمر» الجيش الأمريكي بأن يعوض كل ما خسره الجيش الإسرائيلي في الأيام الثلاثة الأولى للقتال، وهكذا نقل في أربعة أيام فقط بواسطة الطائرات الأمريكية العملاقة عتادًا يُساوي كل ما حصلت عليه الدول العربية خلال أربعة أشهر.

سيناريو محبوك تمامًا، سيناريو متطرِّف تمامًا، وعلى النقيض منه يقول إنَّ الاتفاق على مبدأ الحرب أو «التسخين» كان موجودًا بطريقةٍ أو بأخرى بين السادات وكيسنجر، وأن السادات التزم بألا يتعدى ما يحتلُّه من الضفة الشرقية للقناة وسيناء ثلاثين كيلومترًا.

أمَّا إنه كان هناك اتفاق، فهذا أمر لا شك فيه؛ إذ إن الضباط الذين خاضوا حرب ٧٣ يؤكدون أن الجيش الإسرائيلي تهاوى برمَّته تحت أقدام الجيش المصري، وأنه بتدمير الخمسمائة دبابة المخصصة للجبهة الجنوبية أصبح الطريق مفتوحًا أمام الجيش المصري لاستعادة كل سيناء إن لم يكن احتلال صحراء النقب وقطاع غزة، وربما الوصول إلى مشارف القدس نفسها، فما الذي منع الجيش المصري من مواصلة هجومه ذلك؟ وهل معقول بعد كل هذا الانتصار أن يتوقَّف الجيش المصري ويبدأ بحفر الخنادق استعدادًا

لاتخاذ موقف دفاع؟ هل المُكتسِح المنتصر يوقف زحفه متطوعًا ويتوقف كي يستطيع الجيش الإسرائيلي استعادة قدرته وجمع شمله وشن هجوم على الجيش المصري؟

هناك تفسير يقول إنَّ الجيش المصري لم يستطع التوغل أكثر في سيناء؛ لأنه كان ينقصه الغطاء الجوي الكافي واللازم، وأنه لو كان قد اندفع إلى قلب سيناء لكشف نفسه للطيران الإسرائيلي ولحدثت كارثة، وضباط مصريون كثيرون يردُّون على هذا الكلام بقولهم إنه كان باستطاعة الجيش أن يحرك قواعد صواريخه السام ٣ والسام ٦ أرض جو بحيث تُشكِّل ذلك الغطاء.

ولكن هناك رأيًا آخر يقول: إن توقف الجيش عن مواصلة الهجوم كان وحدث لأن الاتفاق الذي تم قبيل الحرب كان ينصُّ على أن الجيش المصري لا يتوغل في سيناء أكثر من ٣٠ كيلومترًا.

شيءٌ آخر تناساه الدكتور كيسنجر تمامًا، وهو كيف انتقل الجيش الإسرائيلي من جيش مهزوم مُحطَّم المدرعات إلى جيش مُهاجم، بحيث كانت أكبر معركة دبابات حدثت في العصر الحديث واشترك فيها أكثر من ٢٠٠٠ دبابة، وخسر الجيش المصري فيها ٣٥٠ دبابة، هنا يسكت كيسنجر تمامًا، ولا يُفصح عما حدث فعلًا. والذي حدث أن إسرائيل — كجيش — كانت قد هُزمت تمامًا بحلول يوم ١٠ أكتوبر أي بعد أربعة أيام من الحرب، وأن الجسر الجوي الذي حدث بين أمريكا وإسرائيل لم يكن جسرًا لنقل معدات وذخائر ودبابات، وإنما كان جسرًا لنقل «الجيش الأمريكي» نفسه ليقاتل الجيش المصري.

بمعنى أن الجيش المصري بعد أن هدم إسرائيل أصبح الذي يتصدَّى له هو الجيش الأمريكي بقضِّه وقضيضه، وبالذات بصواريخه الحديثة جِدًّا المضادة للدبابات، تلك الدبابات التي أُسر بعضُها وعداد كيلومتراته لم يتجاوز العشرين كيلومترًا، وهي المسافة الكائنة بين المطار الذي هبطت به الطائرة الحاملة العملاقة وأرض المعركة، جيش ليس فقط بمعداته وإنما بجنوده وضباطه الأمريكيين؛ فالمعروف أن مطلق الصاروخ الراداري المضاد للدبابات لا بُدَّ أن يتمرن على ٩ آلاف صاروخ قبل أن يتمكَّن من القدرة على إصابة الهدف، وهكذا فإن المقاتلين الأمريكيين المدرَّبين كانوا هم الذين أيضًا يُقاتلون، بمعنى أننا بدءًا من يوم ١٠ أكتوبر كُنَّا نقاتل أمريكا، وهذا هو الذي دفع الاتحاد السوفيتي إلى توجيه إنذاره الخطير الذي أيقظ به دوبرنين، سفير الاتحاد السوفيتي في أمريكا، كيسنجر من نومه، مهدِّدًا بأن الجيش السوفيتي سيخوض المعركة هو الآخر بجوار حلفائه العرب ما دامت أمريكا قد تورَّطت وبنفسها تُقاتلهم، مما جعل كيسنجر يقول إنه ضرب عرض

الحائط بتهديدات الروس ووضع القوات الأمريكية في حالة استنفار الحرب التي أشرنا إليها.

وما ذكرتُه ليس سوى جزء يسير من مغالطات علنية ومفتراة، وكان من واجبنا كعرب أن نتصدى فورًا لما جاء في الكتاب، وأن نذكر كل ما لدينا من حقائق تَقلب منطق كيسنجر المعكوس، والعالم الآن على استعداد لأن يَفهم ويتبيَّن الصدق من الكذب، وما يُدهشني أن أحدًا سواء من عاصروا الأحداث أو شاركوا فيها لم يتصدَّ بعد لما ذكره الرجل، حتى ليُوشك ما ذكره كيسنجر أن يتحوَّل بطول الصمت أو بالمؤامرة الصامتة إلى حقائق، أعرف أنا، مثلما يعرف كل من عاش تلك الفترة أنها أكاذيب غاية في الجرأة والصفاقة، ولهذا فحلالٌ تمامًا أن نمزِّق عنها الأقنعة، وأن نعيد كتابة سيناريو الأحداث من وجهة نظرنا نحن، أو بالأصح كما حدثت تمامًا.

فالأمر لا يُمكن السكوت عليه.

الفصل الحادي عشر

الحد الأدنى لوجود أمة

لو أنني عدو للأمة العربية وأعرف أن لديها إمكانيات تُعتبر بلغة العصر إمكانيات مخيفة؛ فتعداد سكانها يَقرب من المائة والعشرين مليونًا، وتحتلُّ مساحة رهيبة، يكفي أن دولة واحدة من دولها الثلاث والعشرين — السودان — تبلغ مساحتها مساحة أوروبا بأسرها، وأرضها التي من المُمكن زراعتها باستطاعتها أن تكفي ليس سكانها فقط من القمح وإنما تكفي العالم بأجمعه تمامًا، أمة تحتلُّ وسط الدنيا، بالضبط منطقة الوسط بحيث لا يمكن الاتصال بين شرق العالم وغربه أو بين شماله وجنوبه إلا من خلالها، والأرض التي لا تُزرع فيها صحراؤها يَحفل باطنها بأعظم كنز عرفه الجنس البشري طوال تاريخه وليس بتروله فقط، وإنما كل ما يخطر على البال من فوسفات إلى يورانيوم إلى كوبالت.

أمة كثافتها السكانية بسيطة تمامًا بالقياس إلى معدلات الكثافة في العالم؛ فهي قابلة لاستيعاب؛ ليس فقط مائة وعشرين مليون إنسان، ولكن ربما ألف مائة مليون إنسان، والحمد لله رجالها نَهِمون للخلف، ونساؤها خصيبات باستطاعة أقلهن خصوبة أن تلد خمسة أطفال.

إنه إذا أُتيح لإنسانها أن يَستقلَّ ويتعلمَ ويمتلك أمر نفسه وثرواته لأصبح العرب قوة ثالثة حقيقية تُنافس الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة وتأتي قبل آسيا وأوروبا.

لو كنتُ أعادي هذه الأمة ولا أريدها أن تبلغ — إذا تُركت وشأنها — ما لا بُدَّ أن تبلغه من قوة ونفوذ، فماذا أفعل؟

أأواجه هذه الأمة مواجهة عسكرية شاملة وأكتسحُها وأحتلُّ أرضها؟

احتمال قائم، ولكنه مستحيل، فأوَّلًا قد جرَّب الغرب هذا الاكتساح فيما يُسَمَّى بالحروب الصليبية، ورفع الصدام إلى مرحلة القَداسة، ولكنه في حقيقة أمره كان مواجهة

عسكرية شاملة بين حضارة مسيحية متأخِّرة في ذلك الوقت وحضارة إسلامية كانت قد بلغت ذروتها وبدأت تضمحل وتتفكَّك الدولة الكبرى إلى دويلات، لم يفعل الغزو الصليبي شيئًا، إلا أنه وحَّدها تمامًا إلى حد أن تكوَّن للعرب المسلمين جيش واحد بقيادة واحدة، وكانت النتيجة المحتَّمة أن انهزم الغرب، ولكنه في هزيمته تعلم الدرس؛ إذ كان قد أدرك أنه متخلِّف، فالتقط من الحضارة الإسلامية شرارة التقدم ومضى يطوِّرها حتى بلغ عصر النهضة، وحينئذٍ بدأ غزْوَنا من جديد، ولكن ليس بطريقة المواجهة الشاملة، وإنما بطريقة التسلُّل، وهكذا تسللت روسيا إلى الممالك الإسلامية في أزبكستان وغيرها، وتسلَّلت فرنسا إلى شمال إفريقيا، وإيطاليا إلى ليبيا، وإنجلترا إلى مصر، وما لبثت الدولتان أن اقتسمتا الغنيمة وانهزمنا.

ولكننا — ويبدو أن هذا هو قانون الحياة — من أعدائنا التقطنا شرارة الحضارة مرة أخرى، وما لبثنا أن ثُرنا ثورات متفرقة، هذا صحيح، ولكنها نجحت في تحريرنا من جيوش الغرب التي كانت تحتلنا، ولكننا لم نتحرَّر من التخلف الذي يكاد يعود بنا إلى القرون الوسطى، ولهذا لا نزال في قبضة أوروبا بغربها وشرقها بعد أن أُضيفت لها الإمبراطورية الفتية أمريكا.

المواجهة الشاملة إذن لا يُمكن استعمالها، فلا أمريكا تقدر على اكتساحنا وقوة عظمى مهولة تقف نِدًّا لها، وكذلك الاتحاد السوفيتي ولا أوروبا، فما بالك بإسرائيل!

إسرائيل هي وحدها التي تتصوَّر أنها القادرة على اكتساح العالم العربي وحكمه، ولكن ليس بالضرورة عن طريق المواجهة العسكرية الشاملة كما أخطأ الغرب وفعل، ولا عن طريق التسلل بعد أن أسفر اليهود عن أنفسهم تمامًا في دولة إسرائيل، كان باستطاعتهم هذا قبل قيام إسرائيل، وفعلًا كانوا في دولة متقدِّمة كمصر يملكون زمام الصناعة والتجارة ونفوذهم خفي ولكنه كبير، أمَّا الآن فقد اختلف الوضع ولم يعد مُمكنًا لليهود والغرب أن يعودوا إلى المكانة التي كانوا يَحتلُّونها في مصر والعراق والمغرب وحتى اليمن.

ونعود للسؤال: إذا كنتُ عدوًّا للعرب وأريد السيطرة عليهم وإبقاءهم في قبضة يدي، فماذا أفعل؟

إن أعداء هذه الأمة ليسوا أغبياء ليَكتفوا بأحلام اليقظة تراودهم بين الحين والآخر، إن المسافة بين الحلم والواقع عندهم مسألة زمن لا أكثر، أحلام الأمس هي واقع اليوم، وأحلام اليوم هي واقع الغد.

والواقع يقول إنَّ عالمنا العربي اليوم بالضبط في الوضع الأمثل لأعدائه، وانظر إلى خريطته الداخلية، وانظر إلى موقعه في العالم، وانظر إلى صورته في أعين الدنيا، وقارن بين ما هو كائن وما كان يجب أن يكون.

الكائن اليوم أن التناقضات السياسية داخل العالم العربي أكثر بكثير من الاتفاقات أو الانسجامات، وللأسف فإن هذه التناقضات لا تخفُّ بمضي الزمن ولكنها تتكاثر، وإذا كُنَّا في ظل الإقطاع والاستعمارَين الإنجليزي والفرنسي استطعنا أن نَدخل كدول عربية مجتمعة حربًا ضد إسرائيل التي لم تكن قد أصبحت بعد دولة، بل مجرَّد عصابات مُقاتلة ومستوطنات، اليوم توحَّدت إسرائيل في دولة، وتفرق العرب، بحيث إنك لا يمكن أن تجد ثلاث دول عربية (وقد بلغ عددها ٢٣) ثلاث دول فقط قد اتَّحدت إلا لساعات أو لأيام، أو حتى نسَّقت خطوطها السياسية.

والسؤال هو: هل هذا الوضع الأمثل لأعداء الأمة العربية هو وضع جاء حول نقطة واحدة ومن الممكن الوصول إلى اتفاقات أخرى؟

لو أخذنا الوحدة الفكرية المحتَّمة باعتبارنا أبناء لغة واحدة ومُنحدِرين من تراث ثقافي واحد، لكان مفروضًا أن نظلَّ — رغم هزائمنا — في وحدة فكرية واحدة، إلا أن التناحُر الفكري بيننا قد ازداد كلما ازداد استقلالنا رسوخًا؛ إذ إنَّ كل بلد عربي يريد أن يناطح البلد العربي الآخر، والعدو يُزكِّي هذه الروح تمامًا، وليس أقرب إلى الذاكرة من فكرة الفرعونية مثلًا والفينيقية والبابلية، أو فكرة حتمية انتقال مراكز التفكير إلى مراكز الثروة، أو فكرة أن يفرض هذا التحزب فكره على الأمة كلها، ليس باعتبارها رافدًا من روافدها إنما باعتباره النهر الفكري الوحيد الذي لا بُدَّ أن يكون شاملًا ومسيطرًا.

موقفنا من الثقافة الإسلامية مثلًا … هل نرتدُّ إلى السلف الصالح أم نتقدَّم بأفكارنا الإسلامية حتى لنحتوي العصر الحديث بكلِّ علومه وأدواته، بحيث نُثري الثقافة العالَمية نفسها، إن ما يَحفل به إسلامنا من قيم العدل وديمقراطية الحاكم وحتمية الضريبة التصاعُدية بحيث لا تعود منة وإنما هي واجب أساسي أسمَيناه الزكاة لا الإحسان ولا حتى الضريبة؛ ففي «فرض» الضريبة نوع من العنوة التي ترفضها روح الإسلام السَّمحة، بينما في دفع الزكاة نوع من العمل الاختياري الحر الذي لا يَتيه به مسلم على آخر، أو غنيٌّ على فقير … كثيرٌ جِدًّا من مبادئ الإسلام كان مفروضًا أن نتَّخذها جميعًا، ومهما كانت دياناتنا أساسًا من أسس وجودنا باعتبارها أكثر عدلًا وإنسانيةً مما جاءت به مذاهب جديدة، كالاشتراكية وحتى الديمقراطية، ليست عالمًا طويل الباع في هذا المجال،

ولكن ما أريد قَوله هو أننا لم نتَّفق ويبدو أننا لن نتَّفق في القريب العاجل على مبدأ واحد أو حلٍّ واحد أو حتى موقف واحد، لا تجاه العدو ولا تجاه الصديق.

وليت الجامعة العربية هي الحل؛ فعند إنشائها كان العرب أكثر اتفاقًا في الرأي مما هم الآن، ونادرًا ما تَحُلُّ قوانينُها غير المُلزِمة أي إشكال.

ولا يُمكن أن يكون هذا هو الوضع الطبيعي للأمور.

لا يُمكِن أن يكون هذا الكم الوافر العنيف من الخلافات والاختلافات من صنعنا نحن، أو من صنع الزمن. إن يدًا إرادية داهية تَلعب بنا.

فلماذا لا نعقد مؤتمرًا شعبيًّا فكريًّا تفكيريًّا لنبحث فيه هذه الظاهرة وعلى الأقل لنحصر الخلافات والاختلافات، ونتتبَّعَها لنعرف إلى أين تؤدِّي وإلى أي ناحية تشير.

إنَّ وجودنا لم يعد يحتمل أبدًا أن نؤجل اتفاقنا أو الحد الأدنى من اتفاقنا؛ فهو وجودٌ كما نرى جميعًا ينهار أمام أعيننِا كل يوم.

من هنا أرسل النداء لكل المثقفين والمفكِّرين العرب، لماذا أيها الأصدقاء لا نقوم بشن حملة شعواء وعقد المؤتمرات وأخذ زمام الأمور في أيدينا؛ إذ ربما استطاعت أيادينا الفكرية أن تحلَّ ما استعصَى على السياسيين حله.

أو ربما نستطيع ولا بُدَّ أننا سنَستطيع أن نجد أساسًا فكريًّا واحدًا للاتفاق، أيَّ أساس، ونجد نقطة، أيَّ نقطة، منها نَنطلِق أو على الأقل نُوقف هذا الانهيار المرعب.

الفصل الثاني عشر

أنا كاتب عربي

من كثرة تجوالي بين أنحاء الوطن الكبير، بدأت أُوقن أن كثيرًا من المشاكل والانحرافات في تفكير أقسام كبيرة من الرأي العام العربي ليسَت مُقحَمة على هذا العالم من خارجه، ولكنها من صنعِه وابتكاره وحده.

فنحن لسنا مُحدَثي ثروة مادية فقط.

ولكننا — وهذا هو الأهم — «مُحدَثو نظم»، أو بالأصح «مُحدَثو حكومات»؛ فعمر حُكوماتنا «الوطنية» لا يتجاوز عمر الزهور، أو بالأصحِّ أعمار الحشائش؛ فلا أَستطيع أن أُشبِّه أي حكومة عربية بالزَّهرة، وإلا — كما يقول البلاغيون — لما تناسَب الكلام مقتضى الحال أبدًا، حكومة عربية كالزهرة؟ أين؟ ولو حتى نشأت حكومات عربية في المريخ لكان لها لون وشكل واسم زُحل وليس أبدًا «الزُّهرة» زهرة الفَجر البكور.

حكومة عربية الآن في مثل شفافية «الزُّهرة» النجمة، وفي مثل رقة «الزَّهرة» الوردة «دا ولا في الأحلام».

ولأنَّ كل مميزات هذه الحكومات أنها صغيرة السن (وإن كانت تتمتَّع في أحيان بإجرام الكبار)، فإن كل همها بالطبع هو الإيغال في المحافظة على البقاء، ومن ضمن وسائل هذه المحافظة لا بُدَّ أن يتوفَّر لشعوب هذه الحكومات نوع من الجهل والانعزال الشديدَين بحيث يقنع كل شعب أن حكومته خيرُ حكومة أخرجت للناس.

والطريقة الوحيدة لإحكام الجهل والانعزال هي «التحكم التام» في وسائل الإعلام، وإلى درجة مخيفة في حقيقة أمرها؛ فالمواطن العربي في أي قُطر عربي يعرف كل شيء عن مثالب الأنظمة «الأخرى»، ولا شيء أبدًا يُذكَر عن مثالب نظامه هو، إلى درجة جعلتني ذات مرة أتصور أن هناك معارضة فعلًا في الوطن العربي، ومعارضة قوية، ولكنها قوة تلك القصة المضحكة التي تقول بأن أمريكيًّا قابل روسيًّا، فقال الأول: نحن لدينا حرية

وأنتم نظامكم دكتاتوري، أنا أستطيع أن أقف في ميدان واشنطن في نيويورك وأقول: يسقط ريجان، ولا شيء يحدث لي. فرد عليه الروسي قائلًا: أبدًا، هذا افتراء، نحن أيضًا لدينا حريتكم وأكثر؛ فأنا أيضًا أستطيع أن أقف في ميدان «جوركي» في موسكو وأقول بملء صوتي: يسقط ريجان، ولا شيء يحدث لي.

وبالضبط هذا هو الحادث في أيِّ بلد عربي.

تستطيع أن تقف في قلب أكبر ميدان وتَهتف بسقوط النظام، عفوًا، النظام الموجود في البلد الآخر، دون أن يُصيبَك أي شيء، بالعكس، ربما يُكافئونك بمنصب كبير أو بمال أو بوسام.

والشيء نفسه انعكس على الوضع الإعلامي، وبالذات الصحفي، في بلادنا العربية؛ بحيث حين اشتدَّت الخلافات اشتدَّ التضييق على دخول صحف أي بلد لبلد آخر، مبالغةً في قوقعة الرأي العام المحلي، ليكون الحاصل في النهاية الرضاء بحكومته وأنها خير حكومة أخرجت للناس.

وهكذا وضعنا نحن الكتاب في قفص من حديد.

مثلما وُضعت كتُبنا وصحُفنا في أقفاص من حديد مَحلي الصُّنع والخاتم.

والكاتب أوَّلًا وأساسًا كاتب، ليس فقط الشعب الكبير، ولكن أيضًا كاتب اللغة.

أنا صحيح مصري، ولكن كاتب عربي.

إني أتكلم العربية، وأكتب بالعربية، وأفكر بالعربية، وقرائي العرب أكثر بكثير من قرائي في بلدي الأصلي.

وقديمًا كان الكاتب في العالم الإسلامي الوسيط، كابن سينا وابن الهيثم وابن رشد وابن بطوطة وأبو حنيفة ومالك، وحتى أشعار ابن الرومي والمتنبي وأبي العلاء وهجائيات الفرزدق تستطيع أن تَعبُر ويَعبُر قائلها الوطن العربي من أقصاه إلى أقصاه دون أن تَستوثقُه تأشيرة دخول أو شرطي يُفتِّش كتبه ودفاتره.

ولكنَّنا الآن في عصر آخر، في عصر نَسل ابن أُبَيٍّ الذي يتربَّع على قمة الإعلام الصحفي هنا، وعصر عبدٍ خصيٍّ يتربَّع على قمة الإعلام الصحفي هناك.

والأنسال والعبيد لا يَصنعون شيئًا إلا أن يَخدموا السادة.

السادة حديثُو النعمة والدولة والألقاب وأزمَّة الأمور.

إنَّ الشيء المؤلم، شديد الإيلام، أنَّ وطننا العربي، هذا الشاسع الثري العملاق، يُدار لمصلحة بضعة أقزام يقفون على أرجل من أوراق الدولار وودائعه يَصيرون طوالًا وعمالقةً،

وهم في الحقيقة وكما أثبتَت المذابح الأخيرة عمالقةٌ من ورق، وشوارب من شوش الذرة، ومسابح مهما قلَّ عددها فهي أكثر من طبقات الجحيم التي سيَغشَونها، ليس في الآخرة فقط، ولكن في هذه الدنيا نفسها.

وما علينا، فهذا حديث آخر، أعدكم أن أكتب مرةً عن طبيعة ونوع ولزاجة الشوارب المقصود بها أن تَزيد من «ذكورة» حامليها، وهي في الواقع لا تكشف إلا عن انعدام كامل في الثِّقة بالذكورة وبالأُنوثة أيضًا؛ فالإناث حتى لا يُحبِبن الشارب ذا الدم الثقيل على وجهٍ أثقَل دمًا.

وما علينا.

نحن نُريد، وأرجو أن يوفقني الله في توجيه قلمي إلى ما أريد، وأن يكفَّ عن هذه الخصلة الغريبة والانشغال بالمعارك الجانبية، نحن نريد أن تعود للغة سطوتها.

أريد أن أعود كاتبًا للغة العربية.

يقرؤني كلُّ من يقرأ العربية.

أريد أن يقرأ الناس في الأردن ما يَكتبه الناس في المغرب، وأن يقرأ الناس في بغداد صحف وكتُب ليبيا، وأن تُباع صحف الجزائر في أكشاك القاهرة والرياض.

كي تتحطَّم الإقليمية، فمؤشِّر الراديو قد حطم الإقليمية القولية يا ناس، وتعرف حقائق وطنِنا العربي كله.

وتئوب المعارضة إلى وضعِها الطبيعي في كل داخل وليس فقط في كل خارج.

وإذا كانت هناك أهوال بين ما أريد وبين المُستطاع ولا أقول بين المرغوب،

فليس أمام كُتَّاب العرب حلٌّ إلا أن يخرجوا جميعًا من قماقمهم،

إلا أن يَكتبوا في كل مكان،

وفي أي صحيفة تُطبع بالعربي.

وشكرًا لـ «الموقف العربي».

الفصل الثالث عشر

عين قرة العين

التجربة لا تزال قريبة جِدًّا، فحين بدأ الغزو الإسرائيلي للبنان كنتُ في القاهرة أستعدُّ للذهاب إلى الولايات المتحدة، وعلى وجه التحديد مدينة بلتيمور حيث كلية طب «جونز هوبكنز» ومُستشفاها العالمي، وعلى وجه التحديد لمعهد جراحةِ وأمراض العيون الذي اشتهر به هذا المُستشفى، حتى لقد أصبح أهم معهد من نوعه تُجرى فيه أحدث الجراحات لعلاج أمراض وإصابات العين، بل وتُبتكَر فيه عمليات يقوم بها أساتذة كبار مثال رونالد مايكل (الذي أجرى جراحات في عين رئيس وزراء الصين السابق، وبطل العالم في الملاكمة للوزن الثقيل، وشخصيات عالمية أخرى كثيرة)؛ أساتذة كبار ليس أقلهم أكبر أخصائية في العالم في جراحة نقل وترقيع القرنية وإعادة البصر إلى ما لا يقلُّ عن عشرة آلاف مريضٍ كانوا شبهَ فاقدي الإبصار.

كنتُ في القاهرة أُجهز وثائق السفر إلى معهد جونز هوبكنز، وأرسل التلكسات والخطابات والتقارير إلى عميده الأستاذ رولاند مايكل لأطلب مُوافقتَه على إجراء العمليات الجراحية اللازمة لإعادة البصر لعين ابني بهاء الدين اليمَني، كان ذلك في شباط (فبراير) ١٩٨٢، وبالتحديد اليوم العاشر الأغبر منه، حين وقع لابني بهاء حادث سيارة مروِّع كاد يقضي عليه تمامًا هو وصديقه الذي كان معه نتيجةً لرعونة سائق عربة لوري، واصطدام السيارة التي كانا يستقلانها به صدمةً أحالتْها إلى كتلة من الصفيح المَحشو بالزجاج وبجسديهما.

ولكن …

بما يُشبه المعجزة استطعنا العثور على جراح العيون البارع الدكتور بهي الدين شلش، وفي الخامسة صباحًا «خيَّط» عين بهاء اليمنى التي كانت قد انفجَرت تمامًا ولم يبقَ من مائها الداخلي شيء يُذكَر، وحين سألت الدكتور شلش عن احتمالات إنقاذ العين،

حتى لو شكلًا، خفَض بصره، وقبل أن أدوخ تمامًا أذكُر أني سألتُه: عشرة في المائة احتمال الشفاء؟ خفض بصره مرة أخرى، وخبطتُ يدًا بيدٍ، وفرَّت من عيني دمعة وأنا أقول: العوض على الله.

ولأنَّ الأهل والأصدقاء وأطبائي أيضًا قد أدركوا أن الخطر على حياتي كان أكبر من الخطر على عين بهاء، فقد حملوني فوق «ترولي» رغم مُقاومتي و«مقاوحتي»، وأخذوني إلى قسم العناية المركزة وأعطَوني أقوى ما لديهم من حقن المخدِّرات، ولكن بقيَ عقلي حادَّ اليقظة وكأن كشَّافًا قوته ألف كيلووات مسلَّط على خلاياه لا يَدَع لها لحظة واحدة من رمشة جفن.

وأخيرًا لم يجدوا مناصًا من أن يُعطوني «البنج» الذي يُبنجون به للعمليات الجراحية.

وقبل أن أَغيب تمامًا عن الوعي، والألف كيلووات التي يصبُّها الكشاف على عقلي يقظة ومقاومة، والألف تتناقَص في سرعة رهيبة، وفي الخلجة التالية كنتُ أحسُّ أني سأنتهي ويحلُّ الظلام التام والإظلام ... في ذبالة الوعي تلك كان الشيء الذي يُرعبني أكثر من مشهد عزرائيل نفسه لو رأيتَه قادمًا يَقبض روحي، مشهد ابني الغض، بوسامة الثمانية عشر عامًا، وروعة أنها ملامح ابني أنا ووجناته ولون عيونه الخضراء النادرة، وإحداها وبالتحديد يُمناها، قد، للأبد، انسدل فوقها الجفن، وانخسفَت في محجرها، وكالكرة التي تَعِبت وفرغت، شُفطت إلى الداخل وانتهى الأمر.

وقبل أن أصرخ بأعلى ما أستطيعه من صوت، أو أثبَ ملسوعًا بالهول، أو يَختلِج بدني اختلاجة الضربة الأخيرة القاضية بالموت، إن هي إلا مرة واحدة، وعلى آخر ذبالة للوعي، تراءى المشهد، وفي الحال انتهى، لأني كنتُ أنا انتهَيت، ولم أَعُد هناك ...

ليس في نيتي أبدًا، ولم يكن، أن أحكي؛ فأنا أعتبر الفواجع، وبالذات ما كان منها يتعلَّق بشخصي أو بشخص أي كاتب، مسألة لا يصحُّ أن يَنساق لإغراء روايتها الإنسان، فأنا شخصيًّا لا أستحبُّ من الناس أن يَروُوا لي، ليس ما يؤلمهم الآن، فتلك قضية أخرى ومشاركة إنسانية واجبة، ولكن ما آلَمهم في الماضي، بَعُد أم قَرُب، فإن في روايتهم للألم الهائل الذي مضى، نوعًا من تعذيب القائل وتعذيب السامع على حدٍّ سواء، والناس لديهم من آلامهم ما يكفي، وشعاري ألا أشارك غيري لا في ما قد يجلب له السعادة، أمَّا أن أخفف عن مراري بتذويبها في آذان أو مصمصات أو مشاركات المعارف أو الأصدقاء أو الآخرين، فهو في رأيي سوء استغلال لشهامة الآخرين في المشاركة أو في الاستماع.

ولكن، ماذا أفعل، ومشاعرنا الخاصة كثيرًا ما تَغلبنا وتجعلنا لا نستطيع إذا جاءت سيرتها أن نعبرها وكأنها للغير حدثت، نحن بشر، وضعفنا هنا جزء لا يتجزأ من بشريتنا نفسها.

لقد كنت بصدد الحديث عن اجتياح لبنان الذي بدأ يُسفِر عن نفسه واضحًا تمامًا في النصف الأخير من أيار (مايو) ١٩٨٢، وكنت أريد أن أذكر حادثة عين ابني في سطر واحد، رغم أنها وقعت ذات ليلة من ليالي شباط (فبراير)، واضطرُّوا أن يُبقوني غائبًا عن الوعي حتى تُجرى العملية التي استغرقت خمس ساعات، ليتمكَّن فيها الجراح من لملمة العين الممزقة، و«تخييط» «القرنية» و«الملتحمة» و«الشبكية» التي تهتَّكت جميعها في أكثر من موضع، ناهيك عن عدسة العين التي قذف بها انفجار الكرة العينية وأضاعتها، واضطرارهم لتغييبي عن الوعي لم يكن مبالغةً منهم في الحرص على مشاعري، وإنما كان خوفًا على قلبي؛ فمنذ سنوات كنت قد أُصبت بأزمة قلبية رهيبة على أثر صدام مع المسئولين عن الجريدة التي أعمل بها، وللأسف كان الصدام مدعَّمًا بموقف باطش من الرئيس السابق، وكان فارسه ومُنفِّذه بلا أدنى شفقة أو هوادة رئيس التحرير الذي كان في نفس الوقت «زميلًا» وروائيًّا وكاتبًا، وفجأة وجدت نفسي أمام نظام عارٍ بَشِع، وأدوات للنظام لا تقلُّ عنه خسة، ونوايا تجاه الشعب والمستقبل الحاضر غير معلَنة، ولكن أنا وغيري رأيناها رؤية العين، وتبدَّى لنا الأمر على حقيقته بلا أي ورقة توت، وبنظرات تَحفل بخيانة وغدر واتفاقات ومؤامرات أكثر بشاعة بكثير من أي «كامب ديفيد»؛ فقد كُنَّا قبل «كامب ديفيد» بخمس سنوات، وحتى قبل انتفاضة ١٨ و١٩ كانون الثاني (يناير) ٧٧ بكثير، كُنَّا طلائع شعب، ومن زمن، نرى، ونتصوَّر أنها خيالاتنا المستقلة وكُرهنا الشخصي للنظام، وأن شيئًا ما نتصوَّره لا يمكن أن يحدث أو يمر، وأنهم أضعف وأجبن من أن يتآمَروا على الشعب بكل ذلك الكم من انعدام الضمير والتهتُّك العلني والدعارة التي لا تُقيم وزنًا لأي قيمة أو رأي عام، ولكن الأحداث، موضوعية، ودون احتمال لأي ذرة شك أو غموض، وعيني عينك، وفي وضح النهار، مضَت تتوالى، وتتَّسع دوائر الوعي بها وتتَّسع حدقات الواعين قبلًا، وقطار الخيانة والعار والفساد سائر، لا تُوقفه قوة، من الداخل أو من الخارج، والوجوه التي كانت تتجمَّل وتتنكَّر وتدعي تسفر عن نفسها، ولا تعود ترى في الجهر بنفسها وحقارتها أي خجل أو مدعاة للحرج.

وكان مشهد فاصل في مكتب رئيس التحرير الذي أطلب له رغم كل شيء الرحمة في آخرته، فقطعًا سيحتاجها لفرط ما ارتكبه، وارتكبه بكل الوعي الإجرامي الجاهل، وظل

يرتكبه إلى أن أورد نفسه بنفسه موارد الحتف الذي لم يكن يتمناه له أحد، حتى من أشد ضحاياه تأذيًّا بأفعاله.

وكان مشهدًا فاصلًا، انتهى بي إلى أزمة قلبية لا يَعرف الأطباء أنفسهم كيف نجوتُ منها، ولكني لم أنجُ سالمًا؛ ففي الجزء الذي مات وتليَّف من بطين القلب، تكوَّن ما يُسمونه «أنيوريزم» أو تجويف ورمي ضخم كالبالون الصغير المنفوخ الذي كان يندفع إليه الدم كلما انقبض القلب، وهكذا اختلت قدرة الدورة الدموية، وكان لا بُدَّ من إجراء عملية جراحية لاستئصال هذا البالون الأنيوريزي الرهيب، وإعادة بُطين القلب إلى ما كان عليه، ودون ذلك كان لا بُدَّ من عملية جراحية كبرى تستغرق الساعات، ويوقف فيها القلب، وأُوضع على قلب ميكانيكي ورئة ميكانيكية ويثلج جسدي ... و... و... وعشرات الإجراءات والاحتياطات الأخرى التي تُتخذ في ما يُسَمَّى بالـ Open Heart Surgery؛ لأن عمر الشقي بقي كما يقولون.

وأنا شقي.

ولستُ شقيًّا بما ارتكبتُه، ولكني في أغلب الأحيان أَشقى بما يُرتكب في حقي.

فقد نجحَتِ العملية، ونجوت.

ولكن عُقدة «القلب» مثلما تتحكَّم في بعض مرضاه أو مَن كانوا مرضاه، فهي أيضًا، وفي الغالب تتحكم في معظم أطبائه، أطباء القلب؛ فهم يَخافون ويُخيفونك من أي انفعال، ويجعلونك، لو أعطاك الله الصبر والسكينة لإطاعتهم، يجعلونك تحيا في قفص من زجاج يَعزلك، لو استطاعوا، عن كل وأي انفعال، يَعزلونك لو أمكَنَهم تمامًا، لدرجة أن تموت من شدة أنك لا تنفعل أو تتفاعَل أو يَنتابُك أيُّ رضًا أو أي غضب أو أي حب أو أي كره، ولو رضختَ لجعلوك — خوفًا عليك — وإذا عنَّ لك أن تبتسم، أن تذرف الابتسامة، وإذا عنَّ لك أن تبكي تُزغزغ دمعتك، لتهبط من عينيك راقصة، عذبة، تتراقص، فما بالك والأمر أبشع وأمرُّ، انفعال ممكن أن يرقَّ له قلب بشر؟

ما بالك وهم يعرفون أن حادثًا جللًا قد حدث لعين قرة عينك، وأن جراحة كبرى تُجرى له، وسيَخرج الجرَّاح من الغرفة لكي يَحكم في ثانية على شعور الأبوة الكامن فيك، أقوى شعور يمتلكه الرجل، أن تَنزل به ضربة ساحقة تُذهبه ربما إلى الأبد شعاعًا، وتقول له إن بصر ابنه وقرَّة قرة عينه قد إلى الأبد ذهبَت، أو أدفع بالاحتمال مائة وثمانية درجة إلى العكس تمامًا، ويقول لك وجه الجراح إن العملية مبدئيًّا نجحت، والعين المنفجرة قد رُتقت كل جروحها، ومرةً أخرى تكورت، وأن الأمل لا يزال هناك.

ذلك أنه أهم من نجاح الجراح في رتق الجروح وكان مجمل طولها ثلاثة وستين ملِّيمترًا، وعددها خمسة جروح في واجهة الكرة العينية وجنبَيها، أهم من الستين غرزة التي خيِّطت تحت الميكروسكوب في طول لا يتعدَّى السنتيمترات الخمسة؛ إذ الجزء الباقي كان أبعد من أن تصله الآلة أو اليد، أهم مِن هذا كله أن تعود العين، خلال الثماني والأربعين ساعة التي تَتلو العملية، تعود تمتلئ بما يُسَمَّى السائل الزجاجي Vitreoushumour ذلك الذي يَمتلئ به كرة العين من الداخل ويُشكِّل محتواها الداخلي ويضع لها ضغطها المناسب بالضبط لحفظ مكوِّناتها (وأهمها الشبكية) أو النيابات الدقيقة للعصب البشري الذي يتحوَّل خلالها الضوء أو بالأصح صورة الأشياء إلى إشارات ونبضات كهربائية تُرسَل إلى مركز الإبصار في المخ وتصنع لك صورة الشيء معدولة ومجسَّدة بحيث «تراه».

هذا السائل أو الجسم الزجاجي إذا انفجرت العين يتناثَر من جروحها و«تُصفى» كرة العين، ومصير العين والإبصار يتوقَّف على قدرة الأنسجة الداخلية على إعادة إفراز هذا الجسم الزجاجي وفي فترة لا تتجاوز الأربعين ساعة أو أقل؛ إذ لو لم يحدث هذا لانفصلَت الشبكية اللاصقة برهافة بحائط العين الداخلي، والتي لا يُبقيها مُلتصقةً في موضعها إلا هذا الجسم الزجاجي الذي — بضغطه ووجوده — يثبتها في مكانها، ويحفظ لها اتزانها مهما وأنَّى تحرَّكت العين داخل محجرها.

إذا لم تملأ العين نفسَها بنفسِها في هذه الساعات القليلة التي تعقُب العملية، فقُلِ العوض على الله في العين، هذا إذا سَلِمت العملية من التلوث، ومِن ألفِ خطرٍ آخر وإن تكن درجاتها أهون ...

ما بالك، وأطباؤك أنت الوالد، يَعرفون أن قلب الرجل، أي رجل، قلب الأب، ولو كان مقدودًا من صخر، لا يستطيع أن يتحمَّل تأرجُح أن يَخرج وجه الجراح يقول سابع سماء (نجحَت)، أو يَخرج منخفض البصر إلى سابع سجيل (فشلَت)، إلى العناية المركزة إذن خذوه.

وغلُّوه بالمهدئات، إن نفعت، ولم تنفَع، وبالمُخدِّرات إن غَيَّبت، ولم تُغيِّب، وإذا لم يكن هناك مناصٌ، فبغاز النيتروز المبنِّج بنِّجُوه، وحين يطول الأمر، عليكم بمزيج الأيتير والأوكسيجين والتخدير الطويل المدى ...

الطويل المدى إلى أقصى ما تَملكون من طول.

فالعملية قد تطول إلى الساعات الخمس.
وإذا أوقفتُم البنجَ خوفًا عليه.
فعليكم أن تُبقوه نائمًا.
للثماني والأربعين ساعة المقبلة.

الفصل الرابع عشر

من غرفة العمليات

وجدت نفسي محصورًا بين ندائين مُلحَّين، كل يوم يزدادان إلحاحًا، ويزداد إلحاح كلٍّ منهما في التباعُد عن الآخر، وصُلبي مشدودًا بينهما؛ الأزمة اللبنانية تتصاعد، وجيوش إسرائيل قد بدأت تتحرَّك وتتقاطَر عبر الحدود، وكأنما بلا هدف بعيد محدَّد، وكأنما مجرَّد رد فعل لما سُمِّيَ في ذلك الوقت اغتيال السفير الإسرائيلي في لندن، وأخبار تُنشَر هنا وهناك، وهمهمة غامضة يعرفها إحساسي تمامًا، فهي دائمًا تَسبق وقوع الزلازل السياسية أو العسكرية الكبرى التي تَحدُث في منطقتنا …

عقلي بدأ يَرتبك إذ كُنَّا قد وصلنا إلى قرب نهاية مايو (أيار)، وكل ما يَحدث عندنا وحولنا يهيب بي دون أي سبب واضح معقول أن أبقى أُتابع وأراقب وأكتب وأُساهم في دفع الكارثة لو حدثت، وعلى الأقل بمجرَّد البقاء قريبًا منها …

وفي نفس الوقت، وتقريبًا على نفس وقع الخطى ودبيب الكوارث المَجهولة القادمة، كانت حالة عين بهاء ابني تتفاقَم؛ فكلٌّ يومين آخذه إلى طبيب العيون ليَفحصه ويَجد بصره يقلُّ ويقلُّ حتى لم يَعُد يرى إلا شيئين؛ أن الدنيا نور، أو أنها ظلام، أننا في النهار أو في الليل، وتلك حالة من تدهور البصر إلى ما يُسَمَّى مجرد «الإحساس بالضوء» (L.P) وهو أدنى أنواع القدرة على الإبصار؛ إذ إن انعدام الرؤية الكامل، أو بالأصحِّ انعدام البصر الكامل، هو الخطوة التالية وراءه مباشرة …

ولم يكن هناك سبب واضح لهذا التدهور …

أحيانًا كنتُ أقف بجوار الشاب الصغير في العيادة والطبيب يَفحصه ويُشير إلى العلامات، ويُجهِد بهاء بصره ويُقلِّص عضلات وجهه في محاولة مُستميتة لكي يرى العلامة أو الصف، محاولات الابن المدرك للعذاب المروِّع الذي لا بُدَّ يعصف بأبيه، ورغبته أن يفعل المستحيل ليرى، لا لكي يَستعيد القدرة على الإبصار أو يفرح هو شخصيًّا

بشفائه أو بنجاته، وإنما ليُفرحني أنا، وكأن استعادته للرؤية أهم عندي من أهميتها عنده وضرورتها بالنسبة إليه.

كنتُ أقف، على أطراف أصابعي أحيانًا، وأنا، رغمًا عني أُغمض عينًا وأجاهد جهاد الجبابرة لكي أرى بالأخرى، وكأنما إذا نجحت أنا في الرؤية سيستطيع بهاء بطريقة ما أن يرى ... ولكن هيهات ... أقف، وفي الوقت الذي أبذل فيه قصارى محاوَلاتي، يَقتحمني خاطر غريب، من تلك الخواطر التي كثيرًا ما تَقتَحِمني، وتُلغي تمامًا كل ما درسته وأُؤمن به من علوم وضعية منطقية، وتجعَلُني أُدرك، في ضوء واضح غريب، أننا لم نَعرف كل شيء بعد، وأن المسائل متَّصلة في الكون بطريقة لم نُدرك بعد كنهَ ذلك الاتصال، وأن الخيوط مُتشابكة إلى درجة يستحيل على العقل البشري إدراكها، رغم أنها موجودة هناك وكائنة، مثلها مثل الموجات الكهرومغناطيسية التي كانت موجودةً منذ كان الوجود والتي لم يَستَطِع الإنسان اكتشافها إلا قريبًا جِدًّا ... يَقتحمني الخاطر، وأحسُّ أن الدمدمة التي تهيج وجداني وعقلي الباطن تجاه أحداث بيروت، هي نفسها الدمدمة التي أُحسُّها وأنا واقف بجوار بهاء أكافح معه — دون أن يُحسَّ — كفاح المستميت الصامت لكي يرى العلامات، أو لكي أراها أنا أو لكي — ويا للرَّوعة — نراها نحن الاثنين ... وإنني في كل مرة أَخرُج من العيادة وأنا أحسُّ أن وضع عينِه يَتدهور، أُدرك أن الوضع على حدود لبنان وفي جنوبه يتدهور أيضًا، وفي كل صباح أقرأ أنباء التدهور في الجنوب أُدرِك — إدراكًا يقينيًّا تامًّا — أني في المساء حين أذهب مع بهاء إلى الطبيب، سأجد قدرته هي الأخرى تَتهاوى وتُهدِّد بالوصول إلى حالة «الاختيار-صفر» بالأصح: الرؤية-صفر. وشيء ثالث كنتُ أفعله، ما بين الصباح المتدهور، والمساء المتدهوِّر، هو الاتصال بالقِسم القنصلي في السفارة الأمريكية لأعرف أخبار الفيزا التي كنتُ قد قدَّمت طلبًا للحصول عليها من عشرة أيام مضَت، وكل يوم يقولون لي: فوت بكرة ... وعلى فمِ الموظف ابتسامة، أعرف سببها؛ فأنا أعرف أني موضوع على قائمة الممنوعين من دخول أمريكا (القائمة السوداء)، وهؤلاء لا يُسمَح لهم بالسفر إلا بعد إجراءات في غاية السخف، ودائمًا «واشنطن» وليس القنصلية هي التي تَمنحها، والمخاطبة لواشنطن تتمُّ — فقط — ببرقيات الشيفرة التي تمرُّ على وزارة الخارجية في طريقها إلى قسم الـ «سي. آي. إيه» المسئول عن التصريح بهذا النوع من الفيزات، رغم كل ما قد يُقدِّمه الطالب من تقارير طبية مهما بلغت درجة العجلة، حتى لو كانت مسألة حياة أو موت، أو فقْد إبصار أو إمكان استعادته، لا تَغيُّر في قليل أو كثير من إجراءات قائمات أمريكا السوداء.

وهكذا أيضًا كنت أُحسُّ أن الزلزال الكوني القادم تتجمع خيوطه، حتى لتضم بالقوة خيط حالة عين بهاء وحالة موظف الـ «سي. آي. إيه»، وحالة آريل شارون وبيجين وأيتان وباقي أفراد العصابة ...

ولم يكن شُعوري مجرد حالة سببها الضيق العابر، أو أَعزُوه لنوبة نحسٍ؛ فالنَّحس ينصبُّ على شخص منحوس ما، لا، هذا شيء أكبر وأعمق، ولم تكن أول مرة أُزاوله، أو أوقن بوجود هذا التشابك بين الأحداث، من أوسع مُستواها العالمي أو حتى الكوني إلى أضيق مفرداتها اليومية العابرة، تشابُك أُحسُّ أنه يُمثل الجزء الكبير المَجهول من معرفتنا لحركة الذرات الصغيرة والمجرات الهائلة في تلك الوحدة العضوية المخيفة، وحدة الكون، بما فيه الإنسان، ووحدة الجهاد مع العقل مع الإشعاعات المعروفة وغير المعروفة، وحدة واتصال، ربما يتجمَّع لديَّ ذات يوم الحد الأدنى من المادة والتجربة والمُدركات التي تُمكِّنني من الكتابة بمَعقولية ما عنه، قوة تَصرُخ بي أن أبقى وقوة تُعربِد داخلي وتُهيب بي أن أسافر، وما يُبقيني قادرًا على حفظ توازني بينهما هو الإدراك أن المسألة ليسَت بيدي، وإنما تَعتمِد على «فيزا» أحصل عليها أو لا أحصل، وعلى سعي دائب واتصالات دولية لإيجاد إخصائي آخر ومستشفًى آخر في مكان ما مِن العالم لا تتحكَّم فيه الـ «سي آي إيه».

وأذهب، ذات ليلة ليلاء، إلى عيادة الطبيب، فيُطيل في فحص عين بهاء، وأرى وجهه يربد، ويَغتمُّ، ثُمَّ يضع أدواته جانبًا ويقول لي بلهجة ضيق عارم ... ماذا حدث؟ ماذا فعلتُم لعين الولد؟

ولم نكن قد فعلنا شيئًا، كُنَّا نحافظ عليه محافظتنا على حبات العيون، وحين سألت، جافَّ الريق، لماذا يسأل؟ قال: لأن شبكية العين انفصلت تمامًا، ولا بُدَّ من محاولة إعادتها خلال ٤٨ ساعة على الأكثر، وإلا فإن نسبة عودة الإبصار إليها وإليه ...

ولم يكمل ...

فقد كان واضحًا أنها ستصل حينذاك إلى الرقم المخيف: الاختيار–صفر، ومُعتمدًا على كل ما لديَّ من رصيد ككاتب، اندفعتُ إلى القسم القنصلي، واستعنتُ بكل أصدقاء أمريكا في مصر، وآليت على نفسي ألا أكفَّ حتى أقيم الدنيا وأقعدها.

وفي نفس الليلة كانت نشرات الأخبار الأخيرة تُذيع بشكل مُلح ومُستمر أنباء عملية «السلام في الجليل» ...

وقبل أن أنام قررتُ أن أذهب مع بهاء إلى المطار في الصباح وبالذَّوق أو القوة أحصل على تذاكر لأي طائرة مسافرة إلى ألمانيا أو إنجلترا أو إسبانيا، وأدقُّ أبواب كل إخصائي أو أقتحم قسم الاستقبال في أي مستشفى عيون أوروبي، وليكن ما يكون …

ولكن الصباح استيقظتُ فيه على تليفون مُلح: الفيزا لأمريكا جاهزة، ولكنها محدودة بثلاثة أسابيع لا أكثر …

وبشُبَّان مصريين، كالورد، ودون حجز، وبلفة طويلة حملتْني من القاهرة إلى فرانكفورت إلى باريس إلى واشنطن، في نفس اليوم، مع أن الرحلة لواشنطن لا يُمكن أن تتم إلا بمبيت ليلة في أوروبا، استطاع «فهلوة» الشباب المصري الموظَّف في شركات الطيران الأمريكية والألمانية والبريطانية بعد أن عقدوا «كونسلتو» أن يَصنعوا من نفس المواعيد الثابتة لطائراتهم، معجزة التوفيق، لأصل واشنطن بعد ثلاث وعشرين ساعة، وفي الصباح الباكر يكون بهاء في حجرته في مستشفى جونز هوبكنز، يستعدُّ لدخول حجرة العمليات.

ويحدث هذا كله، قبل أن تَنقضي الثماني والأربعون ساعة التي حددها الطبيب.

ولنترك العملية — بالأصح العمليات الثلاث الأخيرة التي أُجرِيَت في جلسة واحدة واستغرقت خمس ساعات.

لنترك تشتُّتي بين رعايته وملازمته التي حتَّمتْها إجراءات أن ينام بوضع خاص جدًّا، ومضايق لتنفسه جِدًّا؛ إذ هو مريض بالربو، والتي استلزمت مني أن أبقى بجواره لا أُغمض جفنًا طوال الأيام الخمسة الأول بلياليها، تشتُّتي بين دور الأب والأم والمُمرضة الخاصة (وما أسوأ التمريض في مستشفيات أمريكا) وبين متابعَتي لما بدأ يدور في الجنوب اللبناني من خلال التليفزيون الذي ركَّبتُه في الحجرة والذي كنتُ أرى صورته وأستمع إلى الصوت من خلال سماعة أذن، حتى لا أقلق بهاء …

لنترك متاعبي الخاصة ومنها ضياع حقائبنا، وطلب المستشفى ثلاثة آلاف دولار — لم تكن معي — كتأمين … وعشرات الكوارث الشخصية الأخرى.

ولنُحوِّل الكاميرا تمامًا إلى وسائل الإعلام الأمريكية، صحافةً وتليفزيونًا، وكأنني لم أسافر لأمريكا، وإني سافرتُ إلى مقر العمليات داخل إسرائيل ولبنان، كل ما في الأمر أني كنت أتابعها، ساعة بساعة، رغم وجود السبعة آلاف ميل التي تَفصِل بين عدسة الكاميرا وكاميرا العرض …

لنتركه، فستُحتِّم الأحداث أن نعود إليه …

يُخيَّل إليَّ أن الفائدة الوحيدة لما جرى لنا كلنا في لبنان، وما زال يجري، هي أننا بدأنا نتعلم — أو المفروض أننا بدأنا نتعلم — أن لا تَخدعنا المظاهر أو التصريحات أو حتى المعاهدات، أو بالأصح كل ما يصدر عن الجانب الإسرائيلي — ومثله الجانب الأمريكي — من أقوال أو تصرُّفات أو مواقف خارجية …

بدأنا، أو بالأصح بدأت شخصيًّا أدرك، أن هناك مستويَين لحكاية إسرائيل وقصتنا الطويلة معها، أو لنكن دقيقين ونقول هناك خطتان: الخطة الحقيقية لخَلق إسرائيل، وزرعها، وتدعيمها، ثُمَّ تحويلها من مرتكَز أو رأس جسر، إلى قاعدة عسكرية استيطانية على هيئة دولة، ثُمَّ تطوير هذه الدولة إلى حدٍّ تُصبح معه القوة القادرة على هزيمة العرب عسكريًّا، ثُمَّ هزيمتهم سياسيًّا، تمهيدًا لاغتصاب أراضيهم وصنْع الإمبراطورية اليهودية الكبرى، وحتى ذلك ليس النهاية في رأيي، ولكنه فيما أعتقد الخطوة الهائلة الأولى، للانتقال إلى الخطوة الثانية الأكثر هولًا، وهي استعمال هذه الدولة نقطة انطلاق لغزو العالم كله والسيطرة عليه، ولا يعني هذا غزوه عسكريًّا والسيطرة عليه بالقوة المسلحة والاحتلال، ولكن السيطرة على كامل مقدراته من مصادر للتمويل والطاقة والغذاء والأسرار التكنولوجية العليا؛ بحيث وباستخدام هذه الاحتياجات الحيوية لا تَجدُ دول العالم أمامها إلا إمَّا أن تُسلِّم بالسيطرة حتى تُبقيَها إسرائيل على قيد الحياة، وإمَّا رفضها لكي تستخدم إسرائيل تلك الأسلحة لتركيع تلك الدولة والزحف على بطنها طلبًا لمقومات الحياة التي تقبض على ناصيتها المجموعة الإسرائيلية.

هذه هي الخطة الحقيقية غير المُعلَنة أبدًا، وهي خطة متكامِلة، تتَّصل استراتيجيتها بتكتيكها؛ بحيث تَتوه الأهداف في الوسائل، والاستراتيجية بالتكتيك، بحيث ينشغل العالم بالرد على ما يتصوَّر أنه تحرُّكات تكتيكية ستتوقَّف حينًا بعد حين، وبهذا لا يفطن العالم إلى الهزيمة الكبرى، أنه بمجرَّد التسليم أو التهوين من شأن أي خطوة تكتيكية تُقدم عليها إسرائيل، إنما يَعمى ويغفل عن الهدف الاستراتيجي وراء كل خطة تكتيكية، بحيث بموافقته عليها إنما يوافق دون أن يدري، أو بالأصح يُتيح لإسرائيل أن تُحقِّق خطوة عظمى غير ظاهرة، وقد تبدو لا أهمية لها بالمرة، جزءًا من الخط الاستراتيجي العميق المبيَّت؛ ذلك الذي بَيَّنَّا أن هدفه في النهاية تحويل إسرائيل إلى غرفة عمليات، أو مجمع كونترولات، تتحكَّم بواسطته الأقلية اليهودية التي لا تتعدى بضعة ملايين من سكان العالم وثرواته ودُوَلِه، في حياة مليارات الملايين، تلك هي الخطة العميقة المدفونة في سابع أرض …

أمَّا الخطة الظاهرة، فعلى عكسها تمامًا، واضحة تمامًا، وتدور أمام أعيُن الدنيا وأبصارها، ومقصود بها أن تكون من الوضوح بحيث تُربِك حتى المتشكِّكين أو مَن يَميلون إلى التعمُّق وراء الأهداف، وتجعلهم يتشكَّكون من سوء نواياهم هم وليس من سوء نوايا إسرائيل ...

وإذا طبَّقنا هذا على ما حدث في لبنان، لأمكَنَنا أن ندرك أننا لا نخرف أو نتجنَّى، وإنما فقط — وهذا هو أضعف الإيمان — نستعمل ذكاءنا ونستفيد من مذاكرتنا لربع قرن من الأحداث التي طبقت فيها إسرائيل هذا قبل أن تبدأ الحقيقة تنبلج لنا — وليس بسبب عبقريتنا للأسف — إنما بسبب عامل تدخل، ولم تعمل له العقول التي تُفكر وتخطِّط وتدبر لإسرائيل حسابًا ... إذا طبقنا هذا على ما حدث في لبنان، وجدنا أن أحدًا لم يكن يتصوَّر أن تلك «التجريدة» المحدودة التي قيل إنها قد جُرِّدت لتأديب الجنوبيِّين اللبنانيِّين من لبنانيين وفلسطينيين، سوف تَنتهي إلى ذلك المشهد الذي لم يكن حتى أشد الناس قدرةً على التخيُّل أن يتصوَّره، مشهد لبنان وقد اكتُسح، وحصار بيروت يتم في ساعات، والعرب قد فقدوا القُدرة على التصرف، والمقاومة وقد خرجت من بيروت كما تخرج الشَّعرة من العجين، وأصبح الموقف بعد أن كان الرأي العام كله عالميًّا وعربيًّا وغربيًّا وشرقيًّا يُطالب لفلسطين بوجودِها ودولتها، أصبحت مشكلته الملحَّة أن يعود لبنان نفسه لبنانًا لنفسِه، وأن تَجلو إسرائيل ليس عن الضفة أو غزة أو الجولان، وإنما عن لبنان، وأن لا تَجلو فقط وإنما لا يكون ثمنُ الجلاء دخول لبنان تحت الحماية الإسرائيلية ...

منظر لم يكن أحد يتخيَّله أبدًا ...

ذلك أننا كُنَّا دائمًا مشغولين بالتحركات الظاهرة لإسرائيل، مشغولين بالردِّ التكتيكي على كل فعل لإسرائيل، مشغولين «بالكاموفلاج» عن الأسلحة الثقيلة المدمِّرة التي يخفيها ...

فهل تعلمنا؟

لنتأمل، وبخطورة تحشد لنا كل ذكائنا وقدراتنا، فربما، حينذاك فقط، نبدأ نتعلَّم ...

الفصل الخامس عشر

أخطر رسالة عن إسرائيل

«كتبنا عن نظرية هولاكو التتري في غزو البلاد وقهر شعوبها، وكيف أن طريقتَه كانت إذا أراد أن يغزو عاصمة كبيرة مثلًا، أن يَختار مدينة صغيرة قريبة من تلك العاصِمة، ويقوم جيشُه بمذبحة هائلة يُفني فيها تسعة أعشار سكان المدينة، ثُمَّ يسمح للباقي بالهرب ذُعرًا إلى العاصمة ليحكوا عمَّا حدث وعن الهول الذي رأوه وأفلتوا منه، والنتيجة أن جيوشه كانت لا تكاد تصل العاصمة حتى يكون أهلها قد فرُّوا هالِعين أو استسلم له الذين لم يفرُّوا، وهكذا يَستولي على المدينة دون أي قتال ودون أن يَخسر مُحاربًا واحدًا، وكيف أن الصهيونية الحديثة قد اقتبست هذه الطريقة مثلما كان هتلر قد اقتبسها قبلًا، وأنها استعملت نفس الوسيلة للاستيلاء على الأرض في فلسطين.»

كتبتُ هذا قبل أن أقرأ كتاب الفيلسوف الذي أسلم أخيرًا رجاء جارودي عن «أحلام الصهيونية وأضاليلها»، وأمس فقط انتهيت من الكتاب، فإذا بكل ما فكَّرت فيه وتصورت أنه نوع من الاجتهاد الشخصي في رؤية الصهيونية وأحلامها وتكتيكاتها، ليس سوى الحقيقة والواقع؛ فها هو مفكِّر فرنسي تَفصلني عنه عشرات السنين وآلاف الأميال، وناتج حضارة مُختلفة تمامًا، وليس عربيًّا عانى أو يُعاني شخصيًّا من جرائم الصهيونية، قد اكتشَفَ وتثبَّت من نفس الأشياء التي تخيَّلتُها أحلامًا غير قابلة للتصديق، وانظر معي وهو يقول إن للجنرال آرييل شارون، الذي كان الرجل الثاني في النظام الحاكم، وجلاد لبنان، ماضيًا عريقًا في الاضطهاد والتعذيب يُلقي الضوء على نشاطه الأخير؛ فهو الذي كلفه موشي ديان في أغسطس (آب) ١٩٥٣ بمهمة إنشاء وقيادة «الوحدة ١٠١» المُناط بها التنكيل بأهالي القرى الحدودية، لزَرعِ الرعب في النفوس، ودفع السكان غير اليهود إلى الرحيل طبقًا لأول مطالب عقيدة الصهيونية السياسية.

أمَّا أولى غارات شارون وزبانيته، فقد كانت على «قبية» القرية الفلسطينية الأردنية الصغيرة، ليلة ١٥ / ١٠ / ١٩٥٤ حينما قتل ٦٦ شخصًا (كان ثلاثة أرباع عددهم من النساء والأطفال)، وقد أثبتَ مراقبو الأمم المتحدة العسكريون في تقريرهم المرفوع إلى مجلس الأمن الدولي أنهم رأوا — بعد وصولهم إلى «قبية»، عقب ساعتَين من المَجزرة — أجسادًا مزقها الرصاص، وآثار رصاص فوق الأبواب والنوافذ في البيوت المهدمة، مما يدلُّ على أن السكان قد أُجبِروا على البقاء في الداخل، بينما كانت المنازل تَنهار عليهم، والشهادات مجمعة على أن الجنود الإسرائيليين في ليلة الرعب هذه كانوا يتجوَّلون في جنوب القرية وهم يُفجِّرون البيوت ويُطلِقون النار من أسلحتهم الأوتوماتيكية على أبوابها ونَوافذها ويقذفونها بالقنابل اليدوية.

وبين الحوادث المثيرة التي سبقت أولى حروب سيناء، كانت مذابح خان يونس التي قادَها شارون شخصيًّا في ليل ٣١ /٨/ ١٩٥٥ في الأراضي المصرية، كما قاد الغارات «التأديبية» على الضفة الشرقية من بحيرة طبريا.

أدان هذا العمل مجلس الأمن الدولي في ١٩ / ١ / ١٩٥٦.

أمَّا إسحق شامير وزير الخارجية، وهو الرجل الثالث في النظام السياسي، فإن له ماضيًا مثقَلًا كماضي صاحبه، حتى ولو لم نَتناول منه سوى ما يتعلق بعلاقاته مع الدول الأخرى والمنظمات الدولية.

العنصرية تسلَّطت على أفكاره العملية ونظرته إلى العالم والعلاقات الدولية، وهي واضِحة في مقال في عدد ١٤ / ١١ / ١٩٧٥ من صحيفة «يديعوت أحرونوت»، يُعلِّق فيه على تصديق الأمم المتحدة على قرار اعتبار الصهيونية شكلًا من أشكال التمييز العنصري.

«إذ كيف يتسنى لجماعات بدائية (يقصد كل شعوب العالم في هيئة الأمم) أن تكون لنفسِها آراء خاصة بها؟ إنَّ الضربة التي تلقَّيناها أخيرًا من هيئة الأمم المتحدة يجب أن تُقنعنا من جديد بأننا لسنا شعبًا كالآخرين.»

وكنتُ قد كتبت أيضًا أن طريقة اليهود في التعصُّب والعنصرية في حكم العالم هي التسلُّل لحكم أقوى دولة فيه، ومن خلالها يَستطيعون حكم العالم انتهاءً إلى إقامة وطن لهم يفرضون من خلاله سيطرتهم الذاتية على العالم كله، وهاهي واقع عربي لا يُمكن هو جارودي يكتب في هذا المجال فيقول: إنَّ امتياز إسحق شامير مُستقًى من تلك النظرة؛ فشامير كان أحد الموجِّهين الثلاثة لحركة «ليهي» المعروفة بمجموعة «شتيرن».

وقد كشف المؤرِّخ الألماني كلاوس بوخن أثناء مراجعة محفوظات الرايخ الثالث السرية عن خطة تحالُف اقترحتها مجموعة «شتيرن» في يناير (كانون الثاني) ١٩٤١،

على وزير خارجية هتلر، وقد حمل المقترحات الملحَق البحري في السفارة الألمانية في تركيا «الذي كان يُكلَّف بمهمات خصوصية في بلدان الشرق الأوسط»، هذا الملحق نقل في رسالته المؤرخة في ١١ / ١ / ١٩٤١، مقترحات «ليهي» أو مجموعة «شتيرن»، فإذا هي «إجلاء الجماهير اليهودية عن أوروبا كشرط أوَّلي لحل المشكلة اليهودية.» لكن هذا لم يكن ممكنًا دون إسكان هذه الجماهير في دولة يهودية ذات حدود تاريخية، وهو ما يهدف إليه نشاط «ليهي» وسعيُها سنوات عديدة عبر تنظيمها العسكري القومي:

(١) من الممكن أن تكون هناك مصالح مشتركة بين إقامة نظام جديد في أوروبا طبقًا للمفاهيم الألمانية، وبين طموحات الشعب اليهودي الحقيقية كما تُجسِّدها حركة «ليهي».

(٢) التعاون بين ألمانيا جديدة وأمة عبرية مُتجدِّدة سيكون ممكنًا.

(٣) إقامة دولة يهودية تاريخية على أساسٍ قومي وحكم الحزب الواحد، مرتبطة بمُعاهَدة مع الرايخ الألماني يُمكن أن تُساهم في تعزيز مركز ألمانيا في الشرق الأدنى وتعاون الحركة الإسرائيلية من أجل الحرية، «ليهي» يسير في الاتجاه الذي اختطَّه مستشار الرايخ الألماني السابق هتلر، عندما أشار في خطابه الأخير إلى القبول بأي ترتيب أو تحالُف في سبيل عزل إنجلترا ودحرها.

نفس الحقد على إنجلترا دفع شامير على رأس جماعة «شتيرن» إلى اغتيال وزير الدولة الإنكليزي لشئون الشرق الأوسط اللورد موين، في القاهرة، في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٤، ثُمَّ وبنفس الطريقة الإرهابية إلى اغتيال الكونت برنادوت وسيط الأمم المتحدة في ١٧ / ٩ / ١٩٤٨ في القدس.

وقد كتَب الحاخام هارولد رينهارت من كنيسة «وست إند» في لندن في عدد ٢٢ / ٩ / ١٩٤٨ من جريدة «تايمز» ما يلي:

> الجنون وحده هو الذي يُمكن أن يفسر مقتل الكونت برنادوت، لكن المعروف من تجربة النازيين الحاسمة أن الفاصل بين الجنون والقومية غير المحكومة ليس واضحًا؛ فالقومية العارية لا تعرف لها قانونًا غير الضرورة، وتحمس لأجل المجال الحيوي ليس في نطاق العقل ولا الرحمة. إن قومية عارية تتغذى من اليأس والخيبة تُخيِّم أحيانًا على يهود اليوم، خلافًا لكل المأثورات اليهودية.

ولكن مشكلة المؤسسة اليهودية الصهيونية ليست في الأشخاص، بل في العقيدة، عقيدة الصهيونية السياسية التي ساروا بها إلى أقصى الحدود. إنَّ وحشيةً تتقنَّع بوجه بشري لا تكفُّ عن كونها وحشية.

ولا شك أن ثمة من قد يفضل شيمون بيريز وطريقته، ولكن أي تغيرات ستأتي بها هذه «المعارضة» التي تُعارض شيئًا حوى النقاط الأساسية في السياسة الصهيونية؟

على أيَّة حال، فقد سبق لهذا الفريق أن وصل إلى الحكم، وكان شيمون بيريز من الأتباع المفضَّلين لبن جوريون، الذي رأينا كيف وضع الخطوط الرئيسية لبرنامج الصهيونية السياسية حتى في أسوأ أبعادِه ونتائجه.

فهل كان بيريز أكثر إنسانية تجاه الفلسطينيين؟

حينما أبدى بيريز سخطه في الكنيست على مسئولية وزير الدفاع آرييل شارون عن مذابح صبرا وشاتيلا، أجاب شارون بقوله: «أين كان الضباط الإسرائيليُّون حينما كان الفلسطينيون يُقتَلون في تل الزعتر؟ لقد كنت يومئذٍ يا بيريز وزيرًا للدفاع.»

واقرأ معي أيضًا جارودي وهو يقول: «صحيح أن آرييل شارون هو الذي راح يتباهى بجرائمه قائلًا: يجب أن نَضرب وأن نَضرب بلا هوادة، يجب ضرب الإرهابيين في كل مكان في «إسرائيل» وفي البلاد العربية، وفي كل مكان في الدنيا، وأنا أعرف كيف يكون ضربهم، لأني قد فعلت ذلك، والتحرُّك لا يتمُّ فقط بعد قيامهم بعمليات، بل كل يوم وفي كل مكان، فإذا وصل إلى علمنا أن بعضهم موجود في بلد عربي أو في بلد من بلاد أوروبا، فيجب الوصول إليه ليس في وضح النهار بل خفية، وهكذا يختفي أحدهم فجأة أو يُعثَر عليه ميتًا أو مطعونًا بخنجر في إحدى النوادي الليلية الأوروبية.»

ما قاله شارون يفعله حزب العمل؛ لأن إرهاب الدولة هو في صميم منطق الصهيونية السياسية، فبعد التحقيق الطويل في معتقل وائل زعيتر ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في روما بإيطاليا يوم ١٦ / ١ / ١٩٧٢، أوضحت محكمة الجنايات في روما في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨١ أنها لا تستطيع إدانة فرد معيَّن؛ لأنها أمام قضية سياسية ليست من اختصاصها.

هذه الجريمة من فعل سياسة مرسومة مسبقًا وموجهة بطريقة منهجية وبفعالية عسكرية بواسطة جهاز تابع لدولة «إسرائيل».

كما أشارت المحكمة إلى أن تصفية ستة فلسطينيين جسديًّا بين أكتوبر (تشرين الأول) ٧٢ ويوليو (تموز) ٧٣ قد سبقتها تصريحات رسمية وغير رسمية من قِبَل مسئولين إسرائيليين تعلن حربًا لا هوادةَ فيها وبلا رحمة ضد المقاومة الفلسطينية وممثليها في كل مكان وفي كل زمان وبكل الوسائل الممكنة، ورأت المحكمة وجوب إسناد هذه الجرائم إلى «أجهزة المخابرات الإسرائيلية، وبشكل خاص إلى القسم التابع لهذه المخابرات المكلَّف بالاتصالات الخارجية».

بعد مقتل وائل زعيتر، كان تعليق رئيسة الوزراء «الاشتراكية» جولدا مائير مُشابهًا لأقوال آرييل شارون؛ فقد أجابت عن سؤال في الكنيست يوم ١٨ / ١١ / ١٩٧٢ أي بعد ٤٨ ساعة من وقوع الجريمة، بما يلي:

«كل ما أعرفه أن الرصاصات قد بلغت بالفعل هدفها.» مَن وضع القوانين العنصرية حول «العودة»؟

من نظم مراحل اغتصاب الأرض؟

من ضرب العاملين فيها؟ من قام بالاعتداء على السويس؟ (هيَّأ له في باريس موشي ديان وشيمون بيريز) ثُمَّ الاعتداء عام ١٩٦٧؟ من هنا يفهم موقف المستشار النمساوي برونو كرايسكي اليهودي الاشتراكي الذي قُتلت عائلته في معسكرات الاعتقال الهتلرية والقائل بعد التنويه بالصراع المتفاقم داخل الاشتراكية الدولية: «لا أريد أن تكون لي علاقة بـ «إسرائيل» هذه.»

ويُلخِّص جارودي الموقف بقوله:

> ليس للدولة الصهيونية حينما زُرعت أيَّة مشروعية لا تاريخية ولا توراتية ولا قانونية، كذلك ليست لها أخلاقية في تصرفها بالداخل والخارج «عنصرية – توسعية – إرهاب دولة»، هي دولة كغيرها، بل بين أسوأ أقرانها، شبيهة بالدول التي ترتبط بها أوثق ارتباط كجنوب أفريقيا، وتأخذ عنها ممارسة التمييز العنصري والمنهج الاستعماري القديم.

هكذا تكلم جارودي في كتابه، وما كتاباته إلا حقائق استقاها بعين الباحث الدءوب المفتش عن الحقائق وحدها وبدون أي تصورات أو أوهام.

وهكذا رحت أقرأ جارودي وأنا حائر؛ هل بلغ به الحذْق الشخصي مُنتهاه بالعثور على أطراف هذه الفكرة الجهنمية كلها، أم أننا، لأننا لصيقون بالقضية، نستطيع أن نتصور فعلًا كنه ما يُدبَّر لنا؟

إن كتاب جارودي لا يُمكن أن يمرَّ هكذا مرور الكرام. إن الحقائق الموجودة به لا بُدَّ أن تُقرَّر على كل طلبة وطالبات وشباب العرب ورجالهم ليقرءوها.

الفصل السادس عشر

محاكمة روجيه جارودي!

الموقف الذي يواجهه المفكر الفرنسي الكبير الذي أعلن إسلامه أخيرًا وسَمَّى نفسه «رجاء جارودي» — موقف تقديمه للمحاكمة بتُهمة «العداء للسامية» — ذلك الموقف، لا أعتقد أنه يخص فرنسا أو المفكِّر الفرنسي المسلم وحدهما بقدر ما يخصُّ الأمة العربية مجتمعة ومنفردة؛ فهو موقف لم ينشأ من فراغ، وليس منفصلًا أبدًا عن كفاح الشعوب العربية والشعب الفلسطيني، ومن أجل استعادة الوطن الذي الْتهمتْه الصهيونية اليهودية، واقتطعته من جسد أمة بأكملها، وتربَّعت عليه فيما يُصبح اسمه الآن «دولة إسرائيل».

إننا نعادي الصهيونية ونحارب — أو نزعم أننا نحارب — «إسرائيل»، ولكني أعتقد أن قليلين جِدًّا في وطننا العربي، وهم الذين يُقدِّرون بالضبط حجم وفاعلية العدو الذي نحاربه. ذات مرة، وأنا أتأمل كنه هذا الأخطبوط الذي نحاربه كتبتُ: كنتُ أتمنى لو كُنَّا نحارب إحدى القوتين العُظميَين، أو حتى كليهما — رغم أن هذا مستحيل — بدلًا من ذلك الشعب المتعصب المجنون الذي نحاربه؛ فقد كُنَّا — لو حاربنا إحدى القوتين العظميين — سنُحارب حكومةً أو جيشًا، لكننا لن نكون أبدًا بهذه الحرب نحارب شعبًا، وقد كان الفيتناميون يُحاربون الولايات المتحدة في فيتنام، ولكنهم كانوا يحاربون الجيش الأمريكي، أو بالأصح البنتاغون، وعلى أكثر تقدير أصحاب المصالح الحاكمة في الولايات المتحدة الأمريكية، ولم يكن الفيتناميون يُحاربون الشعب الأمريكي؛ إذ إن هذا الشعب كان ومنذ بداية التدخل الأمريكي ضد هذه الحرب، بل وانتهت تلك الحرب حين وقف الشعب الأمريكي بأجمعه ضدَّها، بل المُضحك أن اللوبي اليهودي الإعلامي الأمريكي وقف ضد هذه الحرب، ولسبب لو تعلمون خطير؛ فإني أعتقد أن هدف اليهود الأمريكيين الذين يُمسكون بزمام الأمور في أمريكا كان: إخراج الجيش الأمريكي الموجود في آسيا بسببٍ غير حيوي، ألا وهو المحافظة على هيبة أمريكا ضد الشعب الشيوعي في آسيا، وتلك مهمَّة ليست حيوية

بالضرورة للمصالح الأمريكية، أو بالأصح للمصالح اليهودية، إخراج الجيش الأمريكي من جنوب غرب آسيا ليتفرَّغ تمامًا للشرق الأوسط، التدخل المباشر فيه ساعة اللزوم بواسطة قوات الانتشار السريع، وتعضيد وحماية الغزو «الإسرائيلي-الأمريكي» لاكتساح المناطق المتاخمة لـ «إسرائيل»، وأيضًا لتخويف بقية الدول العربية البعيدة مثل الجماهيرية الليبية والجزائر وحتى مصر والعراق، بحيث تتهيأ لجيش «الدفاع الإسرائيلي» الفرصة الكاملة ليبتلع ما يشاء من لبنان والضفة الغربية والجولان وغزة والقدس، وتدخل المنطقة في عصر السيادة الإسرائيلية المدعومة بالسلاح والنفوذ والمحاربين الأمريكان، وتحت حماية مظلة أمريكية مؤلَّفة من حاملات الطائرات ومشاة البحرية والطيران الأمريكي وقوات الانتشار السريع ... إلى آخره ... إلى آخره.

تمنيت لو كُنَّا نحارب أمريكا نفسها، إذًا لكانت مواجهتها بل وحتى الانتصار عليها مسألة ممكنة، أمَّا أن نحارب ذلك العدو الغريب المُسَمَّى بـ «إسرائيل»، والذي ليس في حقيقة أمره سوى كل يهود العالم مُتنكِّرين ومُنتشرين في كافة الدول، وبالذات الكبرى منها، والذي يحكم ويتحكَّم في مصير أكبر وأقوى دولة غربية ظهرت للآن، وكذلك في باقي دول الغرب، وحلف الأطلنطي وبعض دول العالم الثالث، فتلك هي المسألة الصعبة كما يقولون.

ولنأخذ محاكمة جارودي مثلًا.

لقد استطاع اللوبي اليهودي المُتحكِّم في العقل الفرنسي، رغم رُقيِّ ذلك العقل، ورغم ما يحمله من تقاليد الحرية والإخاء والمساواة، استطاع اللوبي التسلُّل إلى ذلك العقل الفرنسي من خلال أرقى أشكال الدعاية فيه — المسرح والسينما والغناء والموسيقى، ثُمَّ الصحف وكتاب الرأي، والمواد الموجَّهة إلى المواطنين الفرنسيين العاديين. لوبي يهودي مُتكاتِف في غاية الذكاء والترابط، استطاع أن يغسل مخَّ الشعب الفرنسي من كبار مثقَّفيه إلى رجل الشارع، وكما فعل في أمريكا استطاع أن يُجنِّد الكاثوليك الفرنسيين إلى الدين الجديد «الجودو-كريسيانتي»، ويُحمِّلهم أوزار تاريخ اليهود كله، ويجعلهم يتبنون تلك الكذبة المزعومة عن ضَخامة الضحايا اليهود أثناء الحكم النازي في ألمانيا، رغم أن أيدي شارون وإيتان بيجين لا تزال تقطر بالدم العربي. يَنجح هذا اللوبي في أن يخلق قضية تشغل كل صفحات الجرائد وساعات بث برامج التليفزيون والراديو عن ذلك النازي الهارب إلى إحدى دول أمريكا اللاتينية، والذي سلَّمته في النهاية إلى «إسرائيل» كدقٍّ مُستمِر على وتر ما حدث لليهود، ولليهود فقط، في معسكرات الاعتقال، وتحميل

الأوروبيِّين جميعًا وزر ما اقتَرَفه هتلر ليس ضد الإنسانية كلها، وإنما ضد اليهود على وجه التحديد ... استَطاع اللوبي في فرنسا، وأنا شخصيًّا كنتُ قد يَئِستُ تمامًا أن ينجح قطاع من المثقَّفين الأوروبيِّين أو حتى بعض كبار مثقفيه في الإفلات من الحصار الثقافي الفني الإعلامي «الإسرائيلي»، في اكتشاف الحقيقة وراء هذا الضجيج العادي الهائل، والخروج من الدائرة الجهنمية ومواجهة الرأي العام في بلده بحقيقة ما يُدبَّر له ولشعبه، ودور اللوبي في العبث بعقله وبالتاريخ.

كنتُ قد فقدت الأمل في هذا، إلى أن جاءت حكاية جارودي، وقرأت ترجمةً لكتابه الخطير عن الصهيونية، قرأتُ الكتاب وأنا في حالة من النشوة الغامرة، فها هي ذي الأفكار التي طالما راودتني، وطالَما فكرتُ فيها بيني وبين نفسي، واستبعدتُ أن تكون حقيقية عن دور اليهود في عالم اليوم، ودورهم في عالم الأمس، وعن العصابة التي أخذت شكل شعبٍ يَجعل من العهد القديم وطنه الروحي، يُوقف به عجلات التاريخ ويَدفعها كثيرًا إلى الوراء، ويَغتصب بواسطة تعاليمه المزعومة أغلى قطعة في الوطن العربي، عيانًا بيانًا جهارًا، ويقتل ويسفح دم العرب علنًا أمام الملأ، ويُعربد على ساحة الدنيا دون أن يجرؤ أوروبي أو أمريكي أو أية حكومة غربية أن تقول له: «قف.»

هذه الأفكار وجدتها كلها في كتاب جارودي، ليس هذا فقط، بل بصبر العالم والمفكِّر وبحسِّه الدءوب، استطاع جارودي ليس أن يُورد تلك الأفكار المَجنونة فقط، بل وأن يردَّ عليها ويكشف زيفها ويهدم الأُسس التي اتَّخذوها لبُنيان نظريتهم الكاملة عن أنهم «شعب الله المختار» أو «الأسمى» الذي من المحتَّم — في رأيهم — أن يسود العالم كله ويَحكمه، من خلال حكمهم لأقوى دولة فيه، من ناحية أخرى استغلال قوة وإمكانيات تلك الدولة واختلاق وطن قومي لليهود في فلسطين تخضع له المنطقة العربية والشرق أوسطية كلها، وتدين له بالطاعة، ومنه تقوم إمبراطورية يهودية لا تحكم المنطقة فقط، وإنما تحكم وتتحكَّم بالعالم بأسره، بشرقه وغربه، وشماله وجنوبه.

هالني أن الأفكار التي كانت تُراودني عن أحلام اليهودية العالمية وطموحاتها، والتي كنت أعتقد أنها كوابيس شخصية تُراودني، هالني أن أجدها حقائق عند جارودي ... والذي هالني أكثر أن تلك الأحلام اليهودية لا يُمكن أن تصمد أمام أي منطق ولو بسيط، يناقشها، بل لا تصمد حتى أمام مناقشة طفل وبمنطق الأطفال محتوى تلك الأحلام والتشنُّجات العصبية المجنونة، ومع هذا استطاع اللوبي اليهودي في فرنسا وفي كل مكان من أوروبا وأمريكا، وحتى في بعض دول العالم الثالث غير المُنحاز، استطاع أن يجعلها

حقائق مُسَلَّمًا بها ولا تقبَل جدلًا ولا مناقشة، إلى الحد الذي لا يكتفي فيه اللوبي اليهودي في فرنسا بإشاعتها حتى يؤمن بها الفرنسيون إيمانهم بالأديان أو بالعالم، وإنما حمايتها أيضًا من التصدي لها أو مناقشتها، بحيث يَنجح اللوبي اليهودي العنصري في خلق رأي عام ينجح في جعل ما يُسَمَّى بـ «العداء للسامية» جريمة يستحق المواطن عليها المحاكمة، وتَصدُر ضده الأحكام، في حين أن الإلحاد نفسه في تلك الدول المسيحية الكاثوليكية لا يُعتبر جريمة، والكفر والإيمان بالعلم لا يُعتبَر جريمة، ومعاداة الدولة الفرنسية وسب رئيس الجمهورية الفرنسية لا يُعتبَر جريمة، لا شيء خاص بالرأي أو إبداء الرأي في فرنسا يُعتبَر جريمة، الرأي الوحيد الذي يُعتبر جريمة بشعة هو أن يقول أحد رأيه في اليهود أو في معتقداتهم، أو يتصدى لأحلام الصهيونية العالمية، أو أحيانًا ينقد إجرام الدولة الإسرائيلية إذا قرن هذا الإجرام بكونها دولة يهودية.

إلى هذا الحد وصل نفوذ اللوبي اليهودي في فرنسا، وفي العالم الغربي كله.

وصَل وسيطر وهيمَن إلى درجة مخيفة وشاملة، إلى درجة أن أحدًا لم يجرؤ على التصدِّي لهذا التفكير، وقد كنت أسعد حتمًا لو أن مفكرًا ماركسيًّا أو مسيحيًّا أو حتى ملحدًا لا يثمن إلا بقوانين العلم قد تصدَّى لمناقشة تلك الأفكار. كنتُ حتمًا سأسعد لو كان جارودي قد تصدى لهذا الجنون اليهودي المتعصِّب الأعمى، وهو بعد لا يزال قائدًا من قادة الحزب الشيوعي الفرنسي، أو حتى بعدما أُقيل؛ أي كنت أتمنى لو أن مفكِّرًا من داخل حضارة الأوروبية المسيحية — ودون خروج عليها — قد تصدى لمناقشة هذا العبث الصبياني الذي للأسف قد تسلَّح بأقوى وأحدث ما وصل إليه العقل البشري من وسائل الإعلام، ويَحظى بأبوَّة ورعاية المعسكر الغربي كله وعلى رأسه أمريكا. كنتُ أتمنى هذا، باعتبار أن مناقشة تنشأ من داخل تلك الحضارة المسيحية سيكون لها صدى أعمق داخل الرأي العام الأوروبي.

أمَّا وقد شاء جارودي أن يَخرج عن تلك الحضارة كلية، وأن يعتنق الإسلام عن إيمان بأنه الوسيلة المثلى لحياة الإنسان أيًّا كان على سطح الأرض، ثُمَّ يتصدَّى لمناقشة الأفكار اليهودية المغروزة في قلب مجتمعه من خارج هذا المجتمع، إذا كان قد فعل هذا، فأهلًا به داخل حضارتنا السَّمحة، بل وأهلًا به قائدًا فكريًّا من قوادها الفكريين لو شاء. لقد زار جارودي الجماهيرية الليبية، وزار المملكة العربية السعودية، وها هو الآن في القاهرة يحتفل مع مُسلميها بالعيد الألفي للجامعة الإسلامية الكبرى، الأزهر، أهلًا به وسهلًا ومرحبًا …

ولكن جارودي أمامه مهمة كبرى، هي مهمة مواجهة الرأي العام في بلده فرنسا، وفي أوروبا بالتالي، وأيضًا مواجهة ذلك القانون الإرهابي الذي نجح اللوبي اليهودي في إصداره.

فماذا نحن فاعلون لدعم موقف جارودي وهو يواجه «الكودية» الكبرى بأكملها؟

لقد طلب صديقي وزميلي الأستاذ كامل زهيري من قرائه أن يكتبوا لجارودي رسائل تصله وتدعم موقفه وتشيد به.

وهذا أضعف الإيمان.

أمَّا أنا فأطلب من مثقَّفي ومفكري الوطن العربي، وهم كثيرون والحمد لله، أن يتصدُّوا هم للقضية، يتصدون لها على اختلاف مشاربهم، سواء كانوا قادة فكر إسلامي أو مسيحي أو غيرهما. أطالبهم ليس فقط بكتابة رسائل تُرسَل لجارودي وتؤيِّد موقفه، ولكني أطلب منهم ما هو أكثر من ذلك، فإذا كان جارودي قد اختار موقف مواجهة مجتمعه بما يَحفل به اللوبي اليهودي المخيف، فإني أطلب من المثقفين العرب، بدعم من حكوماتهم لو كانت عربية ووطنية وإسلامية فعلًا، أن يشكلوا «لوبي عربي حر» في قلب باريس أثناء النظر بقضية جارودي، يُشكلون تجمُّعًا أو مؤتمرًا يعسكر في قلب باريس أثناء النظر بالقضية، ولا يتعرَّضوا لها؛ فالمفكر الكبير يستطيع بسهولة أن يدافع عن نفسه في المحكمة، إنما تجمُّع يَنتهز فرصة نظر القضية ويُرسل مدفعيته الفكرية العربية الإسلامية الثقيلة، موضحًا بما نَمتلكه من صور ووثائق الغزو الإسرائيلي المتوحِّش للبنان، ومذابح معسكرات صابرا وشاتيلا، الوجه الآخر لعُملة معاداة السامية؛ فنحن في نظر الأوروبيِّين نحن العرب ساميِّين، وهل يُعتبر العداء للسامية بالقول جريمة؟ فما بالك إذا كان العداء للسامية — أي العربية، ولو حتى كانت اليهودية معها — ليس بالقول وإنما بالفعل، بالتوحُّش الحيواني المتعصِّب المَجنون، وقد ارتدى أحدث الأزياء العسكرية والتكنولوجية وأحدث الشعارات التحرُّرية، وأحدث عطور «بيار كاردان» ليُغطِّي على رائحة الدم والقبح المتصاعدة من «هولاكات» أقامها اليهود الإسرائيليون الساميُّون ضد العرب الساميِّين؟ أم إن العداء للسامية لا بُدَّ أن يكون من الأوروبيِّين، فإذا جاء من الساميين أنفسهم لا يُعتبَر عداءً ولا اعتداءً ولا جريمة؟!

وفي مؤتمر كهذا لن نقابل التعصُّب لليهودية بتعصُّب إسلامي أو عربي، حسبُنا أن نعرض قضيتَنا من مُنطلَق بسيط جِدًّا، أبسط منطق، مُنطلَق المنطق العادي للرجل أو المرأة أو حتى الطفل، فما فعله «الإسرائيليون» في لبنان، أحدث مَذابحهم، لا يُمكن إلا أن يمجِّهم ويدينهم أي منطق مسيحي أو لا ديني بسيط بساطة منطق الأطفال.

إنَّ معركتنا ليست فقط بسلاح الكلاشينكوف، إنَّ اللسان أيضًا والفكر الثاقب أحيانًا يفعل ما لا يستطيعه أي كلاشينكوف، وأي دبابة أو طائرة، وهذه فرصتنا للمواجهة الفكرية مع اليهودية والصهيونية، تلك المواجهة التي خسرناها طويلًا، وكثيرًا، وأحيانًا تجنَّبنا خوضها في عقر دارها، واكتفينا بخوضها في عُقرِ دارنا فقط، هذه فرصة السماء لنُواجهها هناك حيث تُعشِّش وتُخيِّم وتَستولي على العقول، والمعركة مضمونة، فقط لو خُضناها، فهل نخوضها؟! ذلك هو السؤال.

إنَّ حرب ٧٣ الفكرية تنتظرنا، وإذا كانت ٧٣ العسكرية قد ضيعها علينا الخونة، فهل نستطيع نحن كمثقَّفين وكمُفكِّرين أن نكسب لأمتنا ٧٣ الفكرية، وفرص الانتصار قاب قوسين أو أدنى مِنَّا؟

إلى باريس، حيث المعركة ستدور، فلنتَّجه ولنجعلها فعلًا معركة، هذا إذا كُنَّا ما زلنا أحياء.

فهل نحن لا نزال أحياء؟!

أقصد المثقفين، والحكومات؟!

فالمثقفون وحدهم وبدون دعم ليسوا سوى أشباح وجود.

هل لا نزال أحياء؟

حكوماتٍ ومثقفين؟!

الفصل السابع عشر

تكتيك هولاكو

«كان لهولاكو، ذلك التتري الرهيب الذي خرج كالجني من قلب آسيا، ليجتاح وسطها وغربها وعراقها وشامها، وليصل إلى مصر ويُهدِّد باجتياح كل ذلك العالم القديم الوسيط ... كان لهولاكو هذا طريقة أو «تكتيك» كان هو أول من ابتكره وطبقه وعُرف باسمه.»

اكتشف هولاكو أن الحرب ليست مسألة قتال شريف، كقتال عصور النبلاء؛ حيث يتم التبارز وفقًا لتقاليد راسخة في البطولة، وحيث الغلبة للأقوى والأشجع والأكثر اتِّباعًا لأصول القتال النبيلة. اكتشف هولاكو أن الحرب ليست فقط خدعة، ولكن الذي ينتصر في الحرب هو الطرف القادر على أن يوهم خَصمه أنه أكثر قوة بكثير، ليس هذا فقط، بل لا بُدَّ أن يكون هو القادر على إرعاب خصمه. واكتشف أيضًا أن الذي يهزم الجيوش ليس خوفها أو قلَّتها، وإنما هو أن يجتاحها نوع من الرعب الجماعي، بحيث تَرتعِش لها أوصال المحاربين ويتفكَّك الجيش إلى شراذم مرعوبة ممكن أن تُلقي بكل ما لديها من سلاح وإمكانات وتجري هارعة فاقدة القدرة على التفكير، وقد شلَّ الرعب الجماعي قدرتها على التصرف حتى كأفراد.

وهكذا كان هولاكو إذا أراد أن يغزو عاصمة كبيرة مثل دمشق مثلًا، كان لا يتجه إليها كالغزاة الحمقى بجيوشه وعدَّته وعتاده ويَلتحِم مع حاميتها على الطريقة التقليدية بالغزو، وإنما كان يختار قرية أو ضاحية قريبة من المدينة الكبيرة ويَدخلها بجيوشه العاتية، ويُقيم مذبحة تشيب لهولها الرءوس، فلا يترك طفلًا أو امرأة أو شيخًا أو شابًّا إلا وبقر وذبح وخصى، ومثَّل بالأجسادِ والناسِ تمثيلًا لم تعرف وحشيتَه البشريةُ من قبل، وإلى هنا والمسألة ليست غريبة وجديدة، فكم عرف التاريخ هذا النوع من الغزو والمذابح! الجديد الذي ابتكرته العقلية الإجرامية البالغة الذكاء لهولاكو التتري، هو أنه كان لا يَفتِك بكل سكان القرية أو الضاحية التي يختارها، إنما يُتيح الفرصة لعُشر السكان مثلًا أو

لرُبعهم أن يهربوا من القرية، وكان يفعل هذا لأنه يُدرك أن رعبهم سيدفعهم إلى الإسراع للاحتماء بتجمع سكاني أو بالجيش الأكبر الموجود في العاصمة القريبة الكبيرة، ومن الممكن أن نتصوَّر حالة هؤلاء الناس الذين رأوا من أهوال التنكيل والتمثيل بالأجساد ما لا بُدَّ أن يُطيِّر عقل أكبر القلوب شجاعةً أو حكمةً، وليس هذا فقط، بل إن هؤلاء الهاربين، لأنهم ليسوا أفرادًا وإنما مجموعة بشرية، يدبُّ فيهم نوع آخر من الرعب الجماعي فوق رُعبهم الفردي، والرعب الجماعي أخطر بمئات المرات من الرعب الفردي؛ وذلك أن الذي يزداد رُعبًا هذه المرة هو العقلية الجماعية، بحيث حين يُصيبها الرعب القطيعي الجماعي تُصبح هي نفسها قطيعًا حيوانيًّا مذعورًا، مدمِّرًا، متوحِّشًا، شرسًا، يدوس ويقتل ويجتاح ويدمر، والأهم من هذا أنه رعب مُعدٍ جِدًّا؛ إذ ما إن تراه مجموعة بشرية أخرى، حتى من دون أن تدري السبب أو ما هي الحكاية، تُصاب بنفس الحالة المخيفة من الرعب ويذهب عقلها شَعاعًا، وهكذا.

كان هولاكو يترك تلك المجموعة القليلة تهرب وتنطلق بحالتها تلك إلى العاصمة الكبيرة معذبة وناشرة، وصارخة، ومشِيعة كمًّا مهولًا من الفزع المَهول يدبُّ، أول ما يدب، في الجنود المكلَّفين، أو المفروض أن تقع على كاهلهم، مسئولية قتال هؤلاء الغزاة القادمين، وبدوامة ذعر تبدأ صغيرة بين قلة من الجنود لا تلبث بالضرورة أن تَنتشِر بين القوات، ويكون نفس الذعر قد اجتاح، هو الآخر، جموع السكان المدنيِّين، وهكذا لا تلبث تلك العاصمة أو المدينة الكبرى أن تتحول في ظرف ساعات قليلة إلى جهنَّم مذعورة تجتاح شوارعها وأحياءها وتشمل كل قاطنيها. وهكذا، بظرف ساعات قليلة أيضًا يكون جيش العاصمة قد تفكَّك تمامًا وهرب، وسكانها يُقتلون ويَقتَتلون ويدوسون فوق أطفالهم ونسائهم وكأنهم في يوم الحشر، هاربين تاركين المدينة قاعًا صفصفًا.

وهكذا يتهادى هولاكو على رأس جيشه ويدخل المدينة الخاوية والتي سلمت نفسها قبل أي قتال ودون أي قتال ... يدخل دخول الفاتحين المنتصرين.

هذا التكتيك الهولاكي درسه ووعاه ونفذه الجيش النازي الألماني بحذافيره، وعن هولاكو، وعن الجيش الألماني النازي، أخذته العصابات الإسرائيلية، ابتداءً من الأراجون والهاجانا إلى ما يُسَمَّى جيش الدفاع الإسرائيلي، إلى خليفة هولاكو وشياطين التوحش في الأرض الجزار شارون وأركان حربه بيجن وإيتان وسعد حداد وعُتاة العنصريين الكتائبيين.

ولنرجع إلى ما حدث في القرى الفلسطينية العربية قبل ٤٨ وبعد ٤٨، ومنذ سنة ١٩٣٦ ... إلى مذابح دير ياسين وغيرها، ولنرجع إلى ما حدث للجيش المصري نفسه

في حرب ٦٧؛ حيث تفتقت عبقرية المشير عامر وشلَّته عن فكرة جهنمية، هي أن يجيئوا بالضباط والجنود الاحتياطيين بجلابيب نومِهم ويضعوهم في الخطوط الأمامية بحيث يتلقون الضربة الأولى ليَحموا، باعتبارهم أقل تدريبًا، وبكونهم قوات من الدرجة الثانية، الجسم المدرَّب الأساسي للجيش المصري والمتمركز عند الممرات وفي الخط الثاني والثالث، وكانت النتيجة أنهم ساعدوا موشي دايان على تطبيق تكتيك هولاكو، فكان أن أباد الإسرائيليون فصائل بأكملها من هذا الاحتياطي المرعوب الموضوع في الخط الأمامي، أشياء هي ضد ألف باء العسكرية، ولا يُمكن أن يرتكبها أي شاويش أحمق. أباد الإسرائيليون أعدادًا هائلةً من الخط الأمامي وسمحوا للبقية أن تنفذ بجلودها من الإبادة، فانطلق هؤلاء وقد أصابتهم حالة الذعر التي ذكرتها سابقًا، انطلقوا يشيعون وينقلون العدوى إلى الخط الثاني والثالث وإلى كل الناس المدنيين، وكل القوات في سيناء، لتَحدُث الكارثة الكبرى ويتفكَّك الجيش، ويجتاح الارتباك القيادات وتتضارب الآراء والأوامر ... ويدخل دايان سيناء بعد هذا دخول الفاتح، دون لحظة قتال حقيقية واحدة، وباطمئنان كامل إلى أنَّ الطيران المصري قد انتهى وأن الأمر أصبح مجرد نزهة ... وهكذا لحقت بجيشنا المصري الباسل، وبشعبنا بالتالي، أكبر هزيمة عسكرية في تاريخه الحديث دون حرب، وكأنه أول جيش في التاريخ يَهزم نفسه بنفسِه قبل أن يوجه له عدوه ضربة واحدة، وتلك هي كارثة الكوارث كما لا نزال نعاني منها إلى الآن.

ولكن تلك حكاية أخرى كما يقولون، ونحن في تلك الحلقات التي أكتبها، نتابع مأساة الاجتياح الإسرائيلي للبنان والهزيمة التي لحقت بالعرب أجمعين، سواء أكانوا قوات على أرض لبنان أو بيروت أو جيوشًا حديثة رائعة الشكل والمظهر والملابس والتسليح، واقفة، لها ألف عام وهي واقفة، على الأرض العربية من المحيط إلى الخليج، يَلمع سلاحها وتبرق دباباتها وتَنخلِع معدَّاتها وعرباتها وطيرانها ... واقفة في حالة «صفا» ومعظم الأحيان في حالة «استرح»، واقفة تنتظر «المعركة» ... حتى حين تقوم المعارك فعلًا، سواء في سيناء أو في الجولان، أو في الضفة، أو في لبنان لا تزال واقفة بحالة استرح تنتظر، تنتظر ماذا؟ الله وحده يعلم.

في اجتياح قرى الجنوب اللبناني، طبَّق شارون نفس التكتيك؛ بحيث إن الذين هربوا من المذابح ولجئوا إلى العاصمة «بيروت» أُريد لهم أن يُشيعوا ذلك الذعر الجماعي الهولاكي الذي ذكرناه.

هذا هو بالضبط الخاطر المُقلِق الكبير الذي هبط عليَّ وأنا في مستشفى جونز هوبكنز بالولايات المتحدة، أحاول — ويحاول معي الأطباء — إنقاذ عين ابني، وأتفرج من خلال قنوات التليفزيون الأميركي، ومن خلال صحافته وعبر إذاعته، على المذبحة الحادثة في لبنان.

كنت مندهشًا ومذهولًا؛ لأن المشاهد المروعة التي تلتقط للخراب والدمار والضحايا والناس المقتولين المبقوري البطون، والأطفال المقطَّعي الأذرع ... بعيني شاهدتُ أكثر من ٢٠ طفلًا بلا أذرع وأحيانًا بذراع واحدة، وقد أُجريَت لهم عمليات بتر وصُفُّوا أمام الكاميرات، والحرائق والعربات المدمَّرة والقنابل المُتساقطة من السماء والقادمة من البحر والصادرة من المدفعية الأرضية الإسرائيلية الثقيلة ومن الصواريخ ... هذا الهول الأعظم كانت تذيعه الـ «سي بي إس» والـ «إن بي سي»، وبين كل دقيقة وأخرى، يظهر على الشاشة من أعلاها سطر مكتوب يقول: إن هذا الفيلم راقبته السلطات الإسرائيلية ومرَّ مِن خلال رقابتها العسكرية.

وكنت أحتار حيرةً عُظمى ...

كيف تسمح الرقابة الإسرائيلية لكل هذا الكم من المناظر إن في أوروبا أو في أمريكا أو في كل الدنيا؟ أهو نوع من الملائكية الديمقراطية التي لا وجود لها على سطح الأرض، تريد إسرائيل أن تقول به في وسط المذبحة المهولة، أن الدولة التي تقوم بهذه الأعمال غير البشرية هي في النهاية دولة متحضِّرة ديمقراطية من أحدث موديل؟ أم أن اللوبي اليهودي الذي يُسيطِر على أجهزة الإعلام الأمريكية — بإصراره على ذكر أن الأفلام المأخوذة قد مرَّت على الرقابة العسكرية الإسرائيلية — هو الذي يريد أن يقول هذا باعتبار أن الأمريكان مجنونون بالديمقراطية وبحرية الصحافة والإعلام، ومهتمُّون بها أكثر من اهتمامهم بسقوط القتلى وتخريب المدن والمذابح، وكأن مجرَّد عرضها علانية وبلا تستُّر أو إخفاء، وبإمضاء الرقابة الإسرائيلية وبإذنها، يغفر للقائمين بها ذنبهم.

ألف سؤال وخاطر كان باستمرار يدور في عقلي وأنا أشاهد كل هذا مذهولًا ومبهورًا.

إلى أن عُدت للقاهرة، وحدثَت مذابح صبر وشاتيلا، وهنا فقط أدركت الإجابة الرهيبة على أسئلتي؛ فقد أدركت أيها السادة أننا نواجه عدوًّا ذكيًّا، ذلك الشرير الإجرامي الذي من الممكن إذا لم نَفطِن له أن يوقع بنا، ليس مجرد هزيمة عسكرية محدودة أو غير محدودة، أو اغتصاب جزء من أرضنا، وإنما يُهدد وجودنا ذاته كأمة، وفلسطين رغم فداحة قضيتها ليست سوى الجزء الذي ظهر، إلى الآن، من الغزوة الكبرى التي تستهدف اقتلاع الأسس التي يقوم عليها وجود الأمة العربية كلها.

ونحن أذكياء، وفينا ذكاء، ولكنَّ ذكاءنا ذكاء مطمئنِّين غير أشرار أو مجرمين، ولذلك فهو أضعف بكثير من ذكاء أعدائنا، ذلك الذكاء الشرير.

وحين أدركت الإجابة على أسئلتي الحائرة، وأدركت أننا أمام شيء خطير جِدًّا جِدًّا، أكثر بكثير مما حدث في لبنان أو من المُمكن أن يحدث، بدأت أفتح ملف الذكاء الإسرائيلي.

ويا له من ملف مذهل.

الفصل الثامن عشر

العروبة ضد العرب والإسلام ضد المسلمين؟

تصوَّروا مجموعة همجية من الناس تَغتصِب أرض أناس آخرين، وتُسَمِّي عدوانها هذا ومحاولاتها لتوسيع رقعة «رأس الجسر» الذي أقامته في الأرض الفلسطينية العربية، تُسَمِّي تلك المحاولات الغارقة في إجرامها ضد الإنسان والأرض والله، تُسَمِّيها «حروب استقلال»، ولكن، هؤلاء هم الأعداء، يزعمون ما يزعمون، تلك ليست قضيتنا؛ فالفرنسيون غزوا مصر بحجَّة تخليص الشعب المصري من عصابات المماليك الطغاة، والطليان دخلوا ليبيا بحجة أن ليبيا أرض رومانية، والإنجليز غزوا مصر بحجة حماية أرواح الأجانب ودعم نفوذ الخديوي توفيق ضد المتمرِّدين، حتى لو كان المتمردون هم الشعب المصري كله، وليس غريبًا بعد هذا أن تُسَمِّي «إسرائيل» غزوها للبنان وذبحها لعشرات الآلاف من المدنيين بأنها حرب مشروعة للدفاع عن الحدود الشمالية «لإسرائيل»، أي توطيد استقلال اليهود في هذه الرقعة من الأرض العربية.

لا يُهمنا الأسماء التي يطلقها أعداؤنا لتبرير قتلنا واغتصابنا وسرقة أرضنا، فمتى توقف العقل ليُناقش مَنطق اللص أو قاطع الطريق أو المجرم؟ إنه ما دام في يده المسدس، وأصحاب البيت عُزَّل، يستطيع أن يقول ما يشاء، أو لا يقول شيئًا بالمرة إن شاء؛ فالقوة الراهنة معه، وعلى الدنيا أن تخضع؛ فالدنيا الآن يحكمها منطق القوة الغاشمة، إذا كانت معك القوة فالحق أيضًا يتبعها، وإذا لم تكن تَملكها فأنت الظالم والمُعتدي والدموي والإرهابي الذي يستحق العقاب، أنت الضعيف.

إذن لا يُهم منطق الأعداء.

المهم منطقنا نحن.

فنحن في موقف لسنا مضطرين فيه للكذب للرد على الكذب؛ إنَّ الرد الوحيد على الكذب هو الصدق المطلق مع النفس ومع المنطق ومع الدنيا بأسرها.

ولهذا فأنا أعجب.

عدونا واضح وصريح «إسرائيل» ومعها أمريكا، ومع ذلك يلعب بعض حكام العرب لعبة أقل ما يُقال فيها أنها خطرٌ علينا من كل مؤامَرات وعدوانات إسرائيل وأمريكا.

ذلك أنها لعبة «عربية»، عربية الملابس.

وما دام الشخص يرتدي الزي العربي، ويتكلم اللغة العربية، فهو في نظرنا وفي نظر العالم كله عربي.

وهكذا اختلَط الأمر علينا، وعلى العالم، في موقفنا العربي.

فبعض مواقفنا العربية، بأقل قليل من المناقشة أو المنطق، تخدم مباشرةً وجهة نظر أعدائنا، ومع هذا، فما دامت تُقال باللغة العربية، فإنها تُحسب على الجانب العربي، وهكذا أيضًا ينقسم العرب في نظر الناس، إلى عرب معتدلين وعرب متطرفين وعرب مستسلمين، بمعنى أن المتمسك بحقه وقضيته، لأبسط مبادئ قضيته، هو في نظر الغرب والعالم تقريبًا، المتطرف، بينما المتهاون في قضيته، المسالم للعدو في حقه، هو الذي يعتقد أنه في وضع لا يَسمح له بالمطالبة بكل حقه، وأنه ما دام مغلوبًا على أمره، والعدو أقوى، فمن المستحسن أن يَقنع بالمُمكن، ما دام المستحيل «وهو التمسُّك البسيط بالحق» غير ممكن، هؤلاء يسمُّونهم العرب المعتدلين؛ أي الذين «اعتدلوا» لمنطق العدو، من وجهة نظر العدو، ومن جهة النظر الحقيقية «انحنوا للعدو»، وسلَّموا بوجهة نظره.

أمَّا العرب المستسلمون، فهم في حقيقة أمرهم، ليسوا عربًا.

إنهم أكثر «إسرائيلية» من «الإسرائيليين»، وأكثر أمريكية من الأمريكان.

هؤلاء أمثال الشهير السادات، أناس، وإن كان لون جلدهم عربًا، ولغتهم عربية، ويُسَمُّون أنفسهم عربًا، إنما هم في الحقيقة طابور خامس نجح العدو في استقطابه، وغسل عقولهم وتجنيدهم، ليكونوا حربًا له على قومهم، هم عملاء بكل معنى الكلمة، ليسوا عملاء فقط، وإنما استطاعوا بخياناتهم أن يَصِلوا إلى مدًى لم يكن يحلم به العدو نفسه، ذلك المدى الذي يتبنون فيه وجهة نظر العدو إلى الحدِّ الذي يخترعون له وسائل للانتصار علينا، على العرب، ويقدمون له على صينية من فضة، كل النقاط التي يستطيع أن يَضربنا منها وينال انتصارات أكثر وأفعل.

ذلك ما يخص العروبة والعرب.

فماذا عن الإسلام؟

إن الغزوة البربرية التي نتعرض لها الآن، لم تكتف بعروبتنا تمزقها وتستخدمها في ضربنا وبالضبط في ضرب الخط الحقيقي للقضية للعربية، وإنما باعتبار معظم العرب مُسلمين استعملت الإسلام نفسه لضرب الإسلام ولضرب العروبة.

لقد كان طبيعيًّا، وأرض العرب المسلمين محتلَّة بالفعل، والمسجد الأقصى تُسدل عليه ستائر يهودية صهيونية، بل وتَنسفه وتَحرقه قنابل اليهود، كان طبيعيًّا أن يهبَّ المسلمون في جميع أنحاء العالم وعددهم باسم الله ما شاء الله ٨٠٠ مليون نسمة، لدحر هذا الخطر الذي يغتصب به مليونان من البشر، مهما كانت قوتهم، جزءًا غاليًا، أغلى جزء من أرض المسلمين.

ولكن لنر ما فعله العدو الأمريكي-الإسرائيلي في إسلامنا ومسلمينا.

لقد استعمل ذلك العدو طريقة جهنمية ليقمع بها أي رد فعل إسلامي لهذا الاعتداء الغاشم على أرض المسلمين وعقيدة المسلمين.

وبنفس الطريقة قسم الإسلام والمسلمين إلى ثلاثة أنواع:

إسلام جنوب شرق آسيا، وقد نجَح في تجميد القوى الإسلامية هناك لمحاربة قضيته هو، وقضيته في جنوب شرقي آسيا هي الشيوعية، أو بالأصحِّ مقاومة الزحف الشيوعي الذي ابتلع كوريا ثُمَّ فيتنام وكمبوديا ولاوس، ويُهدِّد بالاستيلاء على ماليزيا وتايلاند وإندونيسيا وكل جنوب شرق آسيا.

وقد نجح الأمريكان في إيقاع الفُرقة بين المسلمين هناك وبين البوذيِّين أساسًا، ونجحوا في خلق حكومات إسلامية في الصورة والشكل، مفرغة تمامًا من محتواها الإسلامي الحقيقي ومزوَّدة بحقن مضادة لكل الفرق الأخرى الآسيوية من بوذيين وهندوكيين وكافة النِّحَل.

ولكن الهدف الأساسي كان استقطاب أغلبية مسلمة خائفة من الديانات الآسيوية الأخرى، لتقف معها، مع أمريكا و«إسرائيل»، تَحمي جنوب شرق آسيا من المد الشيوعي!

ولهذا فإن مُسلمي جنوب شرقي آسيا، وربما مسلمو آسيا كلها، أُخرجوا من المعركة قبل أن تقع المعركة الكبرى.

بقيَ المسلمون في غرب آسيا، الجزيرة العربية ودول الخليج والعراق والشام، هؤلاء اتخذوا لهم طريقة خاصة لعزلهم عن المعركة.

لقد استغل العقل اليهودي الأمريكي الحاكم في العالم الغربي الوقائع الجغرافية-السياسية «جيوبوليتيك» التي حدثَت في المنطقة لفرض نوع من الواقع الإسلامي الغريب عليها.

فقد تفجَّر البترول في أرض المسلمين الآسيوية، وكانت حصيلته ثروة هائلة آلت إلى عدد قليل من الناس انتقلوا من عصر الناقة إلى عصر الصاروخ فجأة، وفجأة أيضًا امتلكوا قدرًا من المال لم يكن يحلم به غلاة الحالمين أو المخمورين.

واشتغل العدو على هذا العامل، وخوَّف هؤلاء الناس من شعوبهم ومن الدنيا بأَسرِها وبالذات من الشيوعية، وأفهمهم أن روسيا هي عدوُّهم، وأنها تنظر شزرًا إلى النقود التي يَمتلكونها، وتطمح إلى الوصول إلى النقطة التي يُسمُّونها المياه الدافئة، وكوَّموا حصيلة من المعلومات التي ما أنزل الله بها من سلطان أمام حُكَّام الجزيرة والخليج.

وبما أن مكة عاصمة المسلمين في العالم، وبالغة التأثير بالذات في المنطقة التي غزَتْها «إسرائيل» وما حولها، فقد كان لا بُدَّ من أن يُسلِّط الأعداء شباكَهم باتجاه مكة نفسها، أو بالأصح من يحكمونها.

يا لسوء حظنا اليوم.

كيف يحدث هذا؟

لكي يحدث لا بُدَّ من خلق نوع غريب من الإسلام، إسلام في ظاهره إسلام، وفي باطنه الخدمة الكبرى للتحالف الصهيوني الأمريكي؛ فهو الإسلام الذي يُكفِّر الناس على أساس أنهم غير مؤمنين الإيمان الكافي بالله، الذي يجعلهم يعتقدون بأن الخطيئة الإلهية فيهم هم المسلمون، وأنهم مارقون وفسقة وفاجِرون، وعليهم أن يُقبلوا على أنفسهم ويطردوا ذواتهم الداخلية النجسة كي يدخلوا الجنة في الآخرة، تاركين الدنيا إلى «ولاة الأمور»؛ أي بمعنى آخر، تاركين النقود إلى حُكامهم، مُنكفئين هم على خيبتهم الذاتية التي ستُدخلهم النار.

وكان لمفهومٍ بالغ السذاجة كهذا، بالغ الكذب كَهذا، دعاة مُتقِنون.

ولقد حاول بعض الحكام العرب أن يشجعوا الإخوان المسلمين على هذا الاتجاه، أمام عبد الناصر.

ولكن عبد الناصر كان مسلمًا له رأي آخر في الإسلام؛ فالإسلام عنده دين الحرية والتحرُّر، ودين الصلاة والزكاة وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا، وليس دين تأليه النفس والذات، وترك العدو يُعربد فوق أرض المسلمين دون ردع ومواجهة، وهكذا بدأت معركة عبد الناصر مع الإخوان المسلمين.

معركة بين إسلام تحرُّر المسلم ككل وتحرُّره كأرض وتحرُّره كذات كبرى، وبين استسلام يدَّعي أن مشكلة الإنسان المسلم مع نفسه وليس مع أعدائه في الخارج والداخل ... إسلام العبودية والإذلال والخنوع المُطلَق للعدو الخارجي والداخلي مع أعدائه من الأغنياء والحكام.

وحين نجح عبد الناصر في القضاء على الإخوان المسلمين ليس فقط بتصفيتِهم وتصفية جهازهم السرِّي الرهيب، وإنما بتجنيد مصر كلها والعرب كلهم لمقاومة العدوِّ الغاشم، والقيام برسالة الإسلام الحقيقية في دحر الظلم الأجنبي عن الأرض والنفس والمال والبنين. حين حدَث هذا تبيَّن لأولئك الحكام أن قضيتهم مع الإخوان قد خَسِرت، ولهذا قامروا على فلول الإخوان وتبنَّوهم وبدءوا على مهلٍ يَخلُقون دعوة جديدة.

ومن فكر سيد قطب، ذلك الناقد الفني الذي تحوَّل إلى داعية إسلامي في آخر حياته، وغيره، ابتكروا مسألة تكفير الناس بتُهمة عدم طاعة الله، ونُشرت جماعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجماعات التكفير والهجرة، والفرماوي، والزفتاوي، والعنجهاوي، والموريتاني، وكل ماني وماني، ووضعت القيود الرهيبة على وسائل الإعلام والصحافة حتى لا يتسرَّب إليها أي كلمة تجعل الإسلام دين كفاح العدو ودين صمود المسلمين في وجه الغزوة الفاجِرة الداعرة الاستعمارية الكبرى.

وكان طبيعيًّا جِدًّا أن ينشأ لهذه الدعوة المغرضة «نابغة» اسمه محمد متولي الشعراوي، يتمتَّع بكل خصال راسبوتين المسلم من قدرة على إقناع الجماهير البسيطة وقدرة على التمثيل والحديث بالذراعين وتعبيرات الوجه، والقُدرة على جيب كبير مفتوح دائمًا للأموال، باختصار، قدرات أي ممثِّل نصف موهوب.

ولم يكن سخفًا أبدًا أن «يكتشف» أحمد فراج، الإخواني السابق، والإذاعي المدلَّل، هذا الداعية في برنامج كان اسمه «نور على نور»، أقامه عبد الناصر ليُرشد المسلمين إلى دين الحق، فحوله الإخوان المسلمون الذين عُهد إليهم بتنفيذه إلى طريق آخر ... كان طبيعيًّا أن يكون اكتشاف هذا الداعية من خلال هذا البرنامج المسلم الموجَّه، برنامج لم يحدث أن شاهدتُه ووجدت «عالمًا دينيًّا يذكر كلمة الأعداء أو «إسرائيل» أو أمريكا، أبدًا، وكأن لا وجود لهم بالمرة، وإنما الوجود للشيطان والعفاريت ولوسوسة العفاريت والمشايخ الذين لا وجود لهم بالمرة.» والعدو رابض أمامنا يقتلنا ويهجرنا ويذبح أبناءنا ونساءنا، ونحن كعلماء مسلمين لا نعتبره عدوًّا بالمرة، وإنما شيء لا نذكره ولا نُسميه في ندواتنا.

وهكذا جاء الشيخ شعراوي، والشيخ شعراوي له الآن «عام» يُفسِّر في جزء محدود جِدًّا من سورة البقرة في التليفزيون المصري وفي التليفزيونات العربية.

وقبل هذا أيَّد السادات في ذهابه للقدس و«كامب ديفيد»، وخرج معه يُحيِّي المرتزقة المتظاهرين المهنئين للسادات بعودته من «إسرائيل» عاصمة أعداء المسلمين وأعداء العرب، وبعد اتفاقه معهم على اغتيال حقوق العرب والمسلمين، وكان أيامَها شعراوي وزيرًا للأوقاف.

ولم يكتفِ بهذا، ولكنه دافع عن السادات وقال عنه في مجلس الشعب المصري: «إنَّ هذا الرجل لا يُسأل عما يفعل.»

فصاح فيه الشيخ صلاح أبو إسماعيل النائب بمجلس الشعب والذي يفهم الإسلام جَيِّدًا: لقد كذبت يا رجل، لقد كفرت، لقد كدتَ تكفر، فاستغفر الله؛ فهذه الصفات لا تُمنَح لبشر، إنما اختص بها المولى سبحانه.

ولكن الشيخ شعراوي لم يأبَه لهذا، فقد كان هدفه منذ البداية واضحًا، أن يرتكن بظهره إلى حكومة السادات القائمة، وأن يُبشِّر بإسلام غريب، يجعل مشكلة المسلم تنحصر في ذاته وطريقة عبادته، ولا يأبه أبدًا لأرضِه أو عدوِّه وعدو المسلمين، تنفيذًا لأوامر سادتِه وأمرائه؛ بحيث إن مذابح لبنان كانت ولا تزال، بينما الشيخ شعراوي لا يزال يُفسِّر في صفحتَين فقط من سورة البقرة.

إنَّ هذه لمؤامرة بشعة تُرتكَب باسم الإسلام وتَستفز غير المسلمين؛ فقد استفزَّت مفكِّرًا شيوعيًّا مُلحدًا هو جارودي، أسلم من أجلِها وجاء إلى بلادنا ليُبشِّر بها، بينما علماء المسلمين في نَومِهم قانعون وفي سكوتهم على هذه المؤامرة ضد الشعب الإسلامي إنما يَقومون بشيء سيُعاقَبون عليه في نار الجحيم، تلك التي سوف تجرُّ عظامَهم مع عظام السادات وكارتر وبيجين وكل الأفاقين.

أمَّا الفرع الثالث من المسلمين، فهو ذلك النوع الذي خلَعَ رسالة الإسلام وحضارته عن أكتافهم، واتَّجه إلى الحضارة الأوروبية، يَسجُد لها ويُدين بها، ومنها إلى الفينيقية والفرعونية والبابلية والآشورية يَستعيد مجدَه الخرافي التليد.

وهو عين ما تُريده أمريكا و«إسرائيل»، أن يَنكفئ المسلمون على ماضيهم الخرافي، فليسَت «إسرائيل» نفسها سوى انكفاءة تاريخيَّة على ماضٍ ذُكر في كتابٍ مشبوه، وماضيًا بماض، فإسرائيل إذن لها الحق أن تقوم، أعرفتم الفكرة؟!

هكذا، وبذكاء شديد، استعمل العقل الإسرائيلي الأمريكي الغازي الإسلامَ نفسَه ضد المسلمين، وليس غريبًا بعد هذا أن نقرأ أن دولة عربية قد تبرَّعت للفاتيكان الكاثوليكي

المسيحي بكذا مليون دولار، لتأكيد الصرح الآخر للديانات، فهذا العقل البدوي يريد أن يُؤكِّد التديُّن، ويؤكده بمعناه الخاطئ، ليُبرِّر قيام دولة متعصِّبة تدين باليهودية الرجعية المجنونة في «إسرائيل»، وهو ضامن سلفًا أن الإسلام بالطريقة التي ذكرناها إذا دخل مباريات الأديان سيظلُّ دائمًا العقل الأضعف، وكيف لا يظلُّ والمسلمون سيظلون بهذه الطريقة التي يُستعمل الإسلام فيها هم الأضعف؟! يا لذكاء العدو! فقد استعمل الإسلام وآخر شعوذاته الشعراوي.

ويا لغبائنا!

فقد استمعنا لكلام الشيخ الشعراوي وكأنه صادر عن عالم مُسلم ولم نَعرف خريطة الخيانة بعد.

بينما الخيانة في صميم أدعياء الإسلام المقدَّس ورسالته، فيا ربنا أغثنا.

الفصل التاسع عشر

«صبرا وشاتيلا» البترولية!

تَحضرني بهذه المناسبة قصة طريفة حدثت لي أثناء زيارتي للكويت عام ١٩٧٧، ففي مؤتمر صحفي عُقد لي هناك قُلت: إنَّ البلاد المُستورِدة للبترول وهي البلاد الغربية على وجه التحديد، لا تُعطي العرب ثمنًا لبترولهم، وإنما تعطيهم الثمن وتحدده بناءً على قوة العرب، بدليل أن أسعار البترول لم تبدأ تَرتفِع إلى بعد أن أظهر العرب للغرب العين الحمراء، وبدا أنهم يَقْوُون ويتوحَّدون، ولهذا بدأ سعر برميل البترول لا يَرتفع ولكن يَقفِز من دولار واحد وبضعة سينتات للبرميل إلى السِّعر الحالي؛ أي يقفز ٣٥ ضعفًا، وأن من الممكن أن يؤدي انهيار مصر أو خروجها وتشرذم العرب إلى انخفاض متسارع لأسعار البترول بحيث يصبح ثمن البرميل لو ضَعُف العرب كثيرًا ملاليم أو فلسات معدودة.

ولم تُعجب تصريحاتي الأستاذ عبد الرحمن العتيقي وزير المالية والبترول الكويتي في ذلك الوقت، فسعى لأن يتمَّ بينَنا لقاء «يشرح» لي فيه ما استغلق عليَّ فهمه، وفي اللقاء شجب فكرة أن الغرب يدفع في البترول مقابلًا للقوة العربية، وأن السبب في ارتفاع أسعار البترول عمَّا كانت عليه قبل ١٩٧٣ ليس حرب ٧٣ وليس المقاطعة، ولكن تكتيكات وزراء البترول العرب في «الأوابيك» و«الأوبك»، وتكتُّل الدول المصدِّرة للبترول تحت القيادة السعودية الخليجية البترولية.

ولقد حاولتُ بكل ما أملك من منطق وحقائق أن أُثنيه عن رأيه، ولكن العتيقي عنيد ولم تُثنِه عن رأيه أي محاولات قُمت بها.

الآن أعتقد، أو أرجو أن يُعيد العتيقي واليماني والعتيبة التفكير؛ فالمسألة البترولية أخطر من أن تُترك في يد البتروليِّين وحدهم كما يقول الداهية كيسنجر عن الاقتصاد أنه أخطر من أن يُترَك في يدِ الاقتصاديين وحدهم، فلا شطارة الوزراء ولا التكتيكات ولا التكتُّلات هي التي ستُنقذ «الأوابيك» أو «الأوبك» من الانخفاض المتوقَّع في أسعار البترول.

فلقد اكتشفَ العرب متأخِّرين كثيرًا سلاح البترول في معركة ١٩٧٣، وارتعَدَت فرائص الغرب لهذا الاكتشاف؛ فالعرب يقعدون فوق أعظم كنز اكتشفَتْه البشرية، كنز الطاقة؛ بحيث إن الغرب وعلى رأسه أمريكا في سبيل سيطرته على العالم لا يلجأ فقط لتسليح نفسه ذريًّا وعسكريًّا وتطوير أسلحة دماره الشامل باستمرار، ولكنه في سبيل أن يُحكم قبضتَه على العالم بشرقه وغربه، قرر أن يحتفظ لنفسه بثلاثة أسلحة ربما كانت أخطر من الأسلحة العسكرية؛ ألا وهي: سلاح القمح، وسلاح الطاقة، وسلاح المعرفة التكنولوجية المتقدمة.

بهذه الأسلحة الثلاثة ترى أمريكا أنَّ الدنيا كلها تركع تحت أقدامها، بما فيها الاتحاد السوفيتِّي نفسه الذي يستورد منها القمح ويُحاول أن يستورد التكنولوجيا المتقدِّمة من أوروبا.

لقد أدرك الغرب، ولا داعي لاستعمال كلمة الغرب المضلِّلة، فلنقل الولايات المتحدة باعتبارها قائدة المعسكر الغربي … أدركت أمريكا وأدرك معها اللوبي اليهودي الذي يَحكم أمريكا، وكفانا تخريفًا في محاوَلتِنا للتفريق بين «إسرائيل» واليهود وبين «إسرائيل» واليهوديِّين في أمريكا؛ فاستراتيجية اليهود الثابتة منذ القرن الثامن عشر هي محاولة حكم العالم عن طريق التسلُّل لحكم أقوى دولة فيه، بحيث يَحكم اليهود تلك الدولة وتحكم تلك الدولة العالم، وبهذا يتمُّ ما جاء في خطة حكماء الصهاينة السرية من فرض سيطرتهم على العالم كله، ولقد حاوَل اليهود هذا مع إنجلترا حين كانت إنجلترا تُسيطر على العالم، ووصلوا في محاولاتهم إلى حدِّ تنصيب إزرائيلي اليهودي رئيسًا لوزراء بريطانيا — وهو الشيء الذي لم يحصل من قبل — وحين تخلخَلَت القوة البريطانية وهدَّدت ألمانيا بأن تحتلَّ مكانها، تسلَّل اليهود إلى ألمانيا، وشنت ألمانيا حربها العالمية الأولى، لكنها فشلَت وقام هتلر وحزبه النازي ليكشف أن الرأسمالية اليهودية كانت وراء هزيمة ألمانيا القيصرية في الحرب، وتشتَّت اليهود الألمان، ذهب معظمهم إلى الولايات المتحدة باعتبارها مرشَّحة لتكون أقوى دولة في العالم، ولم يَخلُ الأمر من تسلُّل كثيرين منهم إلى الاتحاد السوفيتي مخافة أن يُصبِح هو الدولة الأعظم، ولهذا ليس عجيبًا أن تؤيد أمريكا قيام «إسرائيل» بعد دقيقة واحدة فقط من إعلان قيامِها، وأن يعقبها الاتحاد السوفيتي الذي تنكَّر كثير من يهوده بأثواب شيوعية فاقعة الحُمرة حتى وصلوا إلى أعلى المراكز في اللجنة المركزية والمكتب السياسي وحتى في حاشية ستالين نفسها.

ولأن الاستراتيجية اليهودية التي ذكرناها ثابتة لا تتغير، فقد وصل اليهود في الولايات المتحدة إلى الاستيلاء على عقل الأمريكان عن طريق الاستيلاء الكامل على دور النشر ودور

الإذاعة والتليفزيون والمسارح وهوليوود وصناعة السينما والصحف، وأيضًا وصلوا إلى الاستيلاء على جيوب الأميركان بقبضتهم الحديدية على البنوك الأمريكية وصناعة المال.

ولم يكن غريبًا أن يصلوا بنفوذهم إلى تنصيب هذا الأستاذ الجامعي كيسنجر — بعد تلميعه وإضفاء آيات العبقرية الفذَّة عليه — وزيرًا للخارجية الأمريكية والمسئول الأول عن الأمن القومي الأمريكي؛ أي منصب أعلى بكثير من منصب إزرائيلي أو رئيس وزراء في البلاد الأخرى.

قلت في مستهلِّ الكلمة أن فرائص أمريكا قد ارتعدَت مخافة أن تَسلبهم القوة العربية الصاعدة السلاح الاستراتيجي البترولي وتتحكَّم هي فيه، وهكذا كان لا بُدَّ من رسم خطة جهنمية لإسقاط هذا السلاح من يد العرب، لتعود للولايات المتحدة الفرصة الكاملة للتحكُّم فيه وتوجيهه.

وكانت خطة شيطانية حقًّا؛ فرفعوا أسعار البترول إلى درجات خرافية، وماذا يُهمُّهم من رفع سعره، إن هي إلا بضعة أصفار جديدة تُضاف إلى أرصدة العرب وودائعهم في أمريكا، بمعنى أن الرفع سيكون لمصلحة أمريكا أوَّلًا وأخيرًا، وسيؤدِّي إلى أن تستجيب الدول العربية إلى حِمى البلايين التي أخذَت تَكتسحها وتزيد من كمية البترول المضَخِّ والمُباع نظريًّا كما قلت؛ إذ بربكم، ما حاجة السعودية مثلًا إلى ١٦٠ مليار دولار سنويًّا كدخل من البترول لا يُنفَق منه — رغم التبذير والإسراف الجنونيَّين — إلا بضعة مليارات كل عام، والباقي هو أصفار في البنوك الأمريكية لا تستطيع السعودية لو شاءت أن تَسحَب منها إلا بإذن، وبقدر ضئيل جِدًّا، وبشرط تقديم مسوِّغات سحب ودراسة المشاريع من قِبَل الحكومة الأمريكية والموافقة على الصرف عليها.

اندفعت الدول الخليجية تَرفع إنتاجها الذي أتصور أن أمريكا كانت تَسحبه وتُعيد ضخه في آبارها في تكساس وغيرها حتى تختزن احتياطيًّا يقولون إنه يكفيها ويكفي الغرب لخمس سنوات في حالة المقاطعة العربية الشاملة الكاملة، ولأنَّ كثرة النقود تُغري بكثرة الإنفاق، بل إلى الجنون في الإنفاق، فقد كانت النتيجة أن كثيرًا من الدول والدويلات العربية سحبت على المكشوف، بل واستدانت وغرقَت في الديون، كما فعلت المكسيك جريًا وراء الحلم الدائم أن الأسعار ستظل ترتفع وأن كمية المضخوخ من البترول ستظل في تصاعد.

الخطة الشيطانية إذن كانت بسيطة جِدًّا، إنها الخطة الرأسمالية في جوهرها؛ إغراق الزبون بالمال النظري لتنشأ له مطالب وتطلُّعات كثيرة تستهلك حسابه وتدفعه للاستدانة،

وفي الوقت الذي يتمُّ فيه وبخطة أخرى دقيقة مدروسة توفير الطاقة واستهلاك البترول، وبهذا يُصبح المعروض من البضاعة أكثر من المطلوب شراؤه بكثير، فينخفض السعر، وتنقضُّ دول «الأوابيك» و«الأوبك» على بعضها البعض تتطاحَن وتتطاعَن وتتنافس في تخفيض أسعار بترولها من ناحية، ومن ناحية أخرى في كسر الحكر المفروض على إنتاجها أو مخصَّصاتها في الإنتاج، وتكون النتيجة زيادة في المعروض وقلة في الثمن.

هذا عن اقتصاديات الخطة.

أمَّا عن موضوعنا الرئيسي، وهو أن الغرب لم يكن يدفع ثمنًا لبترول العرب بقدر ما كان يدفع مقابلًا لقوة العرب، فتلك مسألة واضحة تمامًا؛ فلو العرب هم الأقوى الآن لكان باستطاعتهم الاتفاق والتنسيق فيما بينهم، بل ولكان باستطاعتهم إدراك الهدف الخبيث الذي كان يبيت لهم من زمن وتحديد كمية المنتج وسعره بحيث لا يتحوَّل أعظم كنز اكتشفته البشرية، لا تتحوَّل ثروتنا القومية البترولية، إلى أصفار زائدة في البنوك الأمريكية، لا يستفيد منها سوى اللوبي اليهودي-الأمريكي من ناحية، ومن ناحية أخرى كان مُمكنًا للعرب — لو كانوا سياسيًّا وعسكريًّا أقوياء — أن يَفرضوا على أرضهم وثرواتهم قوة وجود تكفل للسلعة البترولية ثمنها.

ولكن ما حدث في «كامب ديفيد» وبعد «كامب ديفيد» وما حدث في لبنان أثبَت أن القوة العربية قد تفتَّت نتيجةً لواقع عربي قَبَلي مُتخلِّف، وخطة ذكية بالغة الذكاء من أعداءٍ أكثر تطورًا بكثير، وأن تقوم إسرائيل وحلفاؤها بمذبحة صبرا وشاتيلا وبيروت على مرأى واستكانة معظم البلاد العربية وحكوماتها، لم يكن استعراضًا لقوة العدو فقط، ولكنه كان أيضًا تسجيلًا دقيقًا لمدى الضعف الذي أصاب حكومات العرب.

ولهذا لم يكن غريبًا أن تحدث أيضًا في اجتماعات «الأوبك» مذبحة بترولية لا تذبح فيها الكيسنجرية «الرمز المجسد للتحالف الصهيوني الإمبريالي ضد العرب وضد العالم»، وكما حدث في صبرا وشاتيلا أيضًا، تنوب مخالب القطط المعادية عن العدو في القيام بالمذبحة البترولية، كما قامت بالمذبحة في صبرا وشاتيلا.

وإذا راجعتَ الصحف الأمريكية والأوروبية سوف تُدرك مدى الشماتة التي يُحسُّها الغرب تجاه العرب وبلادهم البترولية، ومدى التلذُّذ الذي تُحسُّه صحافة الغرب، بينما يتولى العرب بأنفسهم تصفية سلاحِهم البترولي بعد أن دخلوا شرك الخطة.

إن الصورة العربية الكاريكاتورية للرجل العربي الفظ الذي يَحمل حقائب المال ويَرتدي العقال ويكشف عن فم مزوَّد بأنياب وكأنه الوحش أو الشيطان القادم ليهتك

أعراض نساء الغرب وحضارة الغرب بجشعه وتخلُّفه، قد أزالت تمامًا صورة «شايلوك» اليهودي الذي يقتطع رطلًا من الجسد البشري سدادًا لدينه؛ بمعنى أن الصهيونية في مرحلتها الكيسنجرية قد نجحت في إزاحة صورة يهودية مقيتة وإحلال صورة عربية شديدة البشاعة، ولم يكن ذلك كله إلا تمهيدًا بحيث حين يَهزم الغربُ العربَ عسكريًّا وسياسيًّا في «كامب ديفيد»، وعسكريًّا مرة أخرى في لبنان، وبتروليًّا في اجتماع «الأوبك»، لا يُحسُّ الرأي العام الأوروبي أو الأمريكي إزاء العرب المهزومين إلا بالشماتة والتشفِّي.

وأيضًا — وهذا هو المهم حقًّا — يمهِّد الغرب لعدوان غاشم كادت تَرتكِبه الولايات المتحدة ضد الجماهيرية الليبية الشقيقة، والمحاولة السافلة للإيقاع بينها وبين مصر في الأحداث الأخيرة من «نيميتز» و«الأواكس» ومحاولة الانقلاب المزعومة.

ولكن هذا حديث آخر.

الفصل العشرون

احترسوا من باطن الظاهر

وصلنا إلى أن الهدف الإسرائيلي الذي ترعاه أمريكا ليس هو فقط احتلال واستيطان فلسطين بأكملها، أو حتى أرض إسرائيل الكبرى من النِّيل إلى الفرات — كما جاء في التوراة — أو على وجه الدقة، وبالتعبيرات الأكثر حداثة احتلال فلسطين بحدودها كما كانت تحت الانتداب البريطاني، إضافةً إلى الضفة الغربية كلها والقدس الشرقية، وبالطبع مرتفعات الجولان السورية وجنوب لبنان كله، وأيضًا إعادة احتلال الجزء الشرقي من سيناء، بحيث تُصبح الحدود الجنوبية لإسرائيل هي خط العريش–رأس محمد، وأن إسرائيل ليست من الغباء بحيث تقف أهدافها عند هذا؛ فهي تدرك تمامًا أن هذه الأراضي التي ستَحتلُّها ستجر عليها شاءت أم أبت عداوات مصر والأردن وسوريا ومسلمي لبنان ومن ورائهم الأمة العربية والإسلامية كلها.

إنها لا بُدَّ أن تلجأ إلى ثلاثة أسلحة لإحكام قبضتها نهائيًّا على هذه الأرض:

السلاح الأول: هو فرض الأمر الواقع الغاشم، فرضًا أبديًّا؛ وذلك بإقامة مجتمع عسكري زراعي صناعي محصَّن في كل قرية فيه وكل كيبوتز وكل معسكر تحصينًا ذاتيًّا، بحيث يُمكنه الدفاع عن نفسه تمامًا والصمود وقتًا كافيًا — إذا حدث عليه أي هجوم من الفلسطينيين أو العرب الموجودين داخل ما يُسَمَّى «إسرائيل» — وقتًا كافيًا لاستنفار الجيش الإسرائيلي النظامي واستعمال ذلك الجيش ليس فقط لصدِّ أي هجوم، إنما لإفناء القوة التي قامت به وإيقاع العقاب — على طريقة هولاكو — في الأبرياء من العرب أو الفلسطينيين، بحيث تُلقِّن القاصي والداني درسًا لا ينساه، وبحيث تجعل من الواقع كابوسًا مرعبًا لا بُدَّ أن يفكر فيه كلُّ من تُسوِّل له نفسه أن يقوم بهجوم آخر على أي منطقة سكانية إسرائيلية أخرى.

السلاح الثاني: هو تأمين ما سوف يُصبح الحدود لإسرائيل الكبرى؛ وذلك بتكبيل مصر وسوريا ولبنان والفلسطينيين في شرق النهر ... بمعاهدات سلام أبدية، والتحكُّم في قوتها العسكرية عن طريق الاتفاق المبرم بين الولايات المتحدة وفرنسا وإنجلترا، والذي تتعهَّد فيه تلك الدول بألا يتعدى إمدادها للدول العربية بالسلاح ما تُمدُّ به إسرائيل، وبهذا لو فكرت أي من تلك الدول بالتحرُّش بإسرائيل، أو اتفقت مجتمعة على حربٍ ضدها، فإن الجيش الإسرائيلي وحده سيستطيع أن يَسحق هذا الهجوم أو التحرُّش، ولو حدثت الكارثة وبدا أن هذا الجيش لم يَنتصِر انتصارًا حاسمًا، فإن الجيش الأمريكي وكل إمكانات البنتاجون تُعتَبر في هذه الحالة احتياطيًّا استراتيجيًّا إسرائيليًّا يتدخَّل بكل ثقله وُيساعد إسرائيل في انتزاع ما تشاء من نصر، وهي — أي الولايات المتحدة — ضامنة لعدم تدخل الاتحاد السوفيتي فيما لو اجتاحَت الجيوش الإسرائيلية-الأمريكية سوريا أو الأردن أو مصر، الشيء الذي لن يَحدث؛ لأن هدف «إسرائيل» الآني ليس اجتياح هذه الدول، وإنما إبقاؤها في حالة تحجيم عسكري كامل وضعف اقتصادي وتخلُّف اجتماعي لا تسمح لها أبدًا بالوصول إلى درجة من القوة تُهدِّد ليس وجود وإنما مجرد أمن «إسرائيل».

السلاح الثالث: ادَّخرته «إسرائيل»، وهذه المرة بتعاون كامل مع الشريك الأمريكي، للدول البعيدة؛ ليبيا والجزائر والسعودية والعراق واليمن وحتى باكستان، وهذا السلاح هو ما يُسمونه استراتيجية اليد الطولى لإسرائيل؛ بحيث تستطيع ضرب أي مصدر تخوُّف أو قوة في تلك الدول، على غرار ما حدَث بالنسبة إلى المفاعل النَّووي العراقي، وما يُلمِّح له بعض قادة إسرائيل بين الحين والحين عن نيات مبيتة تجاه الجماهيرية الليبية.

تلك هي الأسلحة العسكرية الثلاثة فقط.

ولكن، لأننا نواجه قومًا من الذكاء بحيث يُدرِكون أن سلاح الفعل الخارجي وحده هو دائمًا وأبدًا سلاح مؤقَّت من ناحية، ومن ناحية أخرى لا بُدَّ لكي يتهيَّأ استعماله على النحو المثالي أن يبقى العرب في حالة تفكُّك وتنافُر وتناحُر؛ بحيث لا يمكن أبدًا أن يصلوا إلى الحد الأدنى من درجات الوحدة، أو الاتفاق، أو التكامل أو التنسيق، وهنا السلاح السياسي يَلعب دوره، وهنا تتَّحد تمامًا جهود أمريكا و«إسرائيل» في سياسة واحدة ثابتة قد تكون أدوارها موزعة، بل إن الاختلاف الظاهري بينها وارد، ولكن العمود الفقري لتلك السياسة ثابت ومؤكد؛ ذلك أنه، فوق وحدة الموقف، فإن وحدة الهدف تجمع بين سياسة أمريكا وسياسة «إسرائيل» في تلك النقطة بالذات؛ «إسرائيل» تُريد الأرض والخلود في

انتزاع الأرض وغرس بذور وجود لا يتزعزَع أبدًا، والولايات المتحدة تريد البترول والثروة، هنا لا يختلف الاثنان، بل لا بُدَّ لهما أن يتَّفقا وأن يكون الاتفاق على إضعاف ذلك الرجل الذي يريدون انتزاع بيته، وأيضًا الاستيلاء على ثروته. إن قوته تعني أن أحدًا منهما أو هما مجتمعان لن يستطيعا أن ينالا منه شيئًا، وهكذا لا بُدَّ من إضعافه، ولكن ليس إلى حد الإبادة والموت — حبذا لو كان هذا ممكنًا — إذ إننا في زمن عالمي لا يُسمح باستعمال القنابل النيوترونية وإبادة الناس دون المنشآت، ثُمَّ إن الاثنين لا يزالان بحاجة لجهد ذلك الرجل العربي وعرَقِه لاستخدامه عبدًا لاستخراج الثروة وإبقاء تلك الأرض الشاسعة مكانًا صالحًا للحياة ولوجود الخبراء لإكمال مهمَّة فك الوطن العربي وسرقة ثروته ووضع إنسانه على طريق تَحلُّلِه وفنائه.

وهكذا فإن اجتياح لبنان وإخراج المقاومة ومذابح صبرا وشاتيلا، وكل المذابح المُقبِلة، ليست سوى الحروف الأولى من أبجدية كبيرة العدد سوف تُصنع منها كلمات وجمل وكتب.

ولهذا، فهي تبدو لنا غير مفهومة، لا نملك إزاءها إلا الحديث عن وحشية الإسرائيليين، وبشاعة عملائهم، ونستغرب والعالم كله يستغرب لماذا تلك الوحشية، وأيُّ منطق في قتل الأطفال الرضَّع وانتهاك أعراض النساء ثُمَّ بقر بطونهن من بعد هذا.

ولو كُنَّا في زمن هولاكو التتري في القديم لفَهِمنا؛ لأن الأمور في ذلك الزمن كانت من البساطة بحيث يستطيع الإنسان العادي أن يكشف عدوَّه من صديقه بسهولة، ويستطيع وبسهولة أيضًا أن يكتشف أهداف العدو الذي كان لا يقوم بأي جهد لإخفائها، هولاكو كان هدفه اجتياح الأرض ونهبها وتدمير الحضارة العربية ونهب كنوز بغداد ودمشق والقاهرة.

أمَّا هولاكو الجديد، فأُولى خصائصه أنه يُخفي أهدافه.

هل يُمكن أن يتصوَّر أحد أن عملية «السلام للجليل» ستتطوَّر هذا التطور بحيث يتمُّ اجتياح لبنان كله وحصار بيروت، وبحيث يَنتهي الأمر بخروج المقاومة الفلسطينية كلها من أقوى معاقلها مناعةً وتحصينًا؟

فإذا كان الإسرائيليُّون يَتركون لنا وللعالم الحبل على الغارب لكي نَصِف بيجن وشارون بالإجرام والتوحُّش والنازية، ونُهدِّد بالويل والثبور وعظائم الأمور، فمعنى ذلك

أن الخطة قد حقَّقت أهدافها تمامًا، وأنَّ الشعب الإسرائيلي، حتى حمائمه و«حركة السلام الآن»، يضحك في أكمامه فرحًا لانتهاء كابوس الوجود الفلسطيني المسلَّح من لبنان. إنَّ الذي يقول بغير هذا إمَّا أعمى أو يتعامى عن الواقع، مهما كانت بشاعته، إلا أنه يفرض نفسه فرضًا، ولا يملك أي امرئ أن يتجاهله، حتى المذابح ليست إلا جزءًا مُكملًا للخطة، وتُمَّ بعد استيعاب كامل لخريطة لبنان السياسية والطائفية ودراسة دقيقة لكلِّ الجروح التي خلفها وجود المقاومة الفلسطينية المسلحة في بيروت، وفي الجنوب، وفي البقاع، وفي الشمال، ودراسة أيضًا لكلِّ الواقع العربي المشتت الموزَّع، وقد استخدموا تلك المعلومات؛ بحيث يتمُّ بالقوة الغاشمة المسلحة إلقاء المقاومة في البحر، وبالمذابح يتمُّ تخويف الفلسطينيين بل وكل المسلمين من شيعة وسنة ودروز، على أن يدفعهم الذُّعر الجماعي الذي اكتشفه هولاكو، للهرب وترك الأرض وما عليها، ليتمَّ تهيئة البيت لحساب الكتائبيين، وفي الوقت نفسه يتمُّ إلحاق بقية السكان المسلمين المسالمين في لبنان كله؛ بحيث يَقبلون بالفتات — فتات الوجود والكيان — إذا عُرض عليهم هذا الفتات، وعلى الأقل يجعلهم يقبلون بالوجود كأقلية، بحقوق الأقلية المعدومة أو المهضومة …

ورغم هذا.

فكل ما حدث منذ اجتياح الجنوب في حزيران (يونيو) الماضي وحتى الآن، هو الحروف الأولى من الأبجدية الكثيرة الحروف كما ذكَرتُ؛ فعلى الفور بدأت «إسرائيل» استعمال الحروف التالية مباشرة، بدأ استعمال السلاح الثاني الذي ذكرناه سابقًا.

سلاح إجبار كل جيران «إسرائيل» على التوقيع على معاهدات سلام أبدية، و«إسرائيل» أيضًا لا يُمكن أن تُصفي الوجود الفلسطيني والإسلامي في لبنان لحساب الكتائبيين وتمكينًا لهم؛ إذ من يَدري؟ ربما يَحسبون في نهاية ويَجدون أن مصالحهم الحيوية هي في الارتباط بالدول العربية الأخرى؛ إذ ماذا سوف يأخذون — اقتصاديًّا — من إسرائيل، هم الذين يُشكلون المنافسين الأساسيِّين للتجارة والاقتصاد الإسرائيليين، فيما لو أجبر العرب على إقامة علاقات اقتصادية مع «إسرائيل»، أو أصبح الاقتصاد حُرًّا دون مقاطعات.

ولهذا لا بُدَّ — والحديث لا يزال ساخنًا والسكِّين يقطر دمًا — من أن تتقاضَى إسرائيل ثمن ما فعلت، تتقاضاه من الجميع، من أمريكا معونةً وسلاحًا، باعتبارها قد أخرجت لها من المنطقة الخطيرة بأَسرِها، قوة كانت تزعج الوجود الاستعماري الأمريكي، وباعتبارها قد نظفت البيت من المشكِّكين ومكَّنت للكتائبيين الذين أصبحوا الحكام الأساسيين للبنان، فلا بُدَّ أن تتقاضى الثمن معاهدة سلام وتطبيع كاملَين؛ بحيث تضمن إسرائيل أن لبنان سيبقى تحت جناحها لا يجرؤ على أن يلعب بذيله أو يُشمشِم بأنفه هنا وهناك.

وهكذا على الفور أُعِدَّ المسرح للفصل الثاني، فصل التفاوض.

وبدأ خلف الستار عقد مَشاهد الفصل الثالث.

ولكن، من فضلكم، لا تأخذوها بسهولة ...

كفانا السهولة التي أخذنا بها عملية السلام في الجليل ... فنحن الآن أمام المقدمات فقط، مجرد مقدِّمات تبدو بريئة تمامًا.

عنوان الرواية مثير: حلُّ المشكلة الفلسطينية.

العنوان التالي مباشرة: المبادرات.

مبادرة ريجان.

مبادرة فاس.

قبول الفلسطينيين بمبادرة فاس كاملة والتحفظ على مبادرة ريجان، قبول الفلسطينيين أيضًا لإقامة اتحاد كونفيدرالي بينهم وبين الأردن.

وكل هذا ...

ليدخل الأردن قاعة المفاوضات.

هذه هي اللقمة التي تُلوِّح بها أمريكا وإسرائيل.

وليسوقوا الأردنيين والفلسطينيين ليُسوُّوا أمورهم فيما بينهم، وأن «يعتدلوا» إلى الدرجة التي يُكوِّنون فيها الوفد من عمد الضفة وممثِّلي الأردن دون ممثِّلي المنظمة، وقد يوجد مراقب من المنظمة، ولكن هذا ليس هو المهم.

المهم حقيقةً هو سؤال لا بُدَّ أن نَطرحه على أنفسنا ويطرحه معنا كل عربي وكل فلسطيني وكل أردني.

قيام اتحاد كونفيدرالي أو غير كونفيدرالي بين الضفة والأردن سيكون بالضرورة أقوى من الأردن وحدها، وأقوى من كيان ولو فلسطيني تمامًا في الضفة وغزة، وأيضًا أقوى من وجود الأردن والكيان منفصلَين.

فكيف تقبل إسرائيل الوضع الأقوى لاتحاد كونفيدرالي؟

إنها ترفض تمامًا الوجود الفلسطيني المنفصل الذي لا بُدَّ أنه أضعف بكثير من وجوده متَّحدًا مع كيان أردني منسَّق معه سياسيًّا وعسكريًّا؟

بل، كيف تعرض أمريكا هذا وهي تعلم حقًّا أن إسرائيل قد رفضَت الوضع الأضعف؟

أليس معنى هذا أن في الأمر سِرًّا لم يتكشَّف بعد؟ أيكون هذا السر أن «إسرائيل» والولايات المتحدة ستَضمنان أن هذا الاتحاد الكونفيدرالي سيكون أضعف من الكيان الفلسطيني؟

أم تكون المبادرة الأمريكية — والموافقة الإسرائيلية عليها إن جاءت — مبنيةً على دراسة دقيقة لخريطة وتاريخ الأردنيين والفلسطينيين معًا؛ بحيث إنهما ضامنتان أن هذا الاتحاد سيكون أضعف من الكيانات المنفصلة حتى لو كان أحدهما فلسطينيًّا بالكامل؟

لنتوقَّف عند علامات الاستفهام تلك؛ فالإنسان يتعلم من أخطائه، ولا بُدَّ أن نكون قد تعلمنا إلى الآن شيئًا ولو — على الأقل — أن كلَّ حركة إسرائيلية أو أمريكية ظاهرية تُخفي في باطنها هدفًا قصيرًا لا يُمكن أن يتوقَّع الإنسان وجوده أمام براءة مظهره الخارجي.

لنفكر كثيرًا هذه المرة.

ولنَحترِس من باطن الظاهر.

الفصل الحادي والعشرون

غيِّروا قبل أن تتغيَّروا

ففي مواجهة عالم أصبح يعتقد غزو الجيوش لشعوب مستقلة جريمة شنعاء، يُدان من أجلها المعتدي، بل وتؤلَّف أحيانًا قوات دولية لمساعدة جيش البلاد التي تعرضت للهجوم، ودحر المُعتدي، كما حدث في حرب كوريا مثلًا، وفيما زعمته الولايات المتحدة من هجوم على فيتنام، والمساعدات التي تقدمها أمريكا لحرب العصابات في أفغانستان.

في مواجهة عالم كهذا، تمكَّنت «إسرائيل» من الضرب عرض الحائط بأي رأي عام عالَمي، وبأي سلطة دولية، سواء كانت هيئة الأمم المتحدة أو مجلس الأمن، ضربت إسرائيل عرض الحائط بكل هذا، وفي وضح النهار غزَت ودمَّرت وذبَحت وقتَّلَت، ليس القوات الفلسطينية المُعسكِرة في جنوب لبنان فحسب، وإنما الأهالي الفلسطينية والجنوبيين اللبنانيين العزَّل، بمعنى انتهاك سيادة دولة على أراضيها وانتهاك إنسانية مواطنيها وسكانها، وفي وضح النهار الوصول إلى عاصمة عربية هي بيروت ومحاصرتها وتقطيع مواصَلات الدولة وكل مؤسَّساتها، وعمل هذا كله دون أن تفلح قوة دولية أو عربية في التحرك لصدِّ هذا الاجتياح الذي يعتبر الأول من نوعه في تاريخ العالم الحديث.

وجعلت «إسرائيل» من حصار بيروت وتمزيقها بالقنابل من البر والبحر والجو رهينة تضمن بها جلاء القوات العسكرية لمنظمة التحرير، ذلك الجلاء الذي أصبح كثير من قادة المنظمة ومسئوليها يندمون عليه الآن أشد الندم؛ فهو قد تمَّ بتعهد من أمريكا للمحافظة على المهاجرين الفلسطينيين حال جلاء قوات المنظمة، وكان ارتكان المنظمة إلى هذا التعهُّد خطأً تاريخيًّا بشعًا؛ ففي ظله تمت أبشع مذبحة في القرن العشرين ضد سكَّان مخيَّمي صبرا وشاتيلا.

الخطة الإسرائيلية كانت واضحة وصريحة ولا تقبل أي تأويل آخر. منذ البداية كان واضحًا للعالم كله أننا أمام عصابة مجنونة بالجريمة والتعصب، وأن لا الرأي العام

العالَمي ولا المؤسسات الدولية ولا العرب حكوماتٍ وشعبًا ومنظماتٍ ... لا شيء من هذا كله مُمكن أن يوقف تلك العصابات عن مخطَّطها ولا عن تحقيق الهدف الجهنَّمي الذي تسعى إليه.

وكان واضحًا أيضًا أنَّ المُجرمين الثلاثة الذين وضعوا الخطة ونفَّذوها لا يَحسبون أي حساب لأي تدخل عربي من أي نوع، وأعتقد أنهم كانوا يَضحكون في أكمامهم كلما نشرت الصُّحف خبر استغاثة رئيس دولة عربية أو ملك من ملوكها، وهو يلهث في طلب التدخل من الرئيس الأمريكي رونالد ريجان، وكأن رونالد ريجان بعيد عن «اللوبي» اليهودي-الأمريكي الذي أضاء النور الأخضر أمام «إسرائيل» ومنحها موافقته ومباركته، وهو نفسه «اللوبي» الذي أرسل ألف عسكري أمريكي، مع بعض الجنود الفرنسيين والآخرين، ذرًّا للرماد في العيون، بل أَستطيع الآن أن أقول: إن إرسال هذه القوات تمَّ سحبها قبل إتمام الجلاء الإسرائيلي، وبعد إعطاء التعهُّد لياسر عرفات، كان جزءًا من الخطة الجهنمية الشاملة، كي تبدو أمريكا أمام حلفائها العرب أنها مهتمَّة باستغاثتهم، وأنها قد فعلت «شيئًا من أجل خاطرهم.» وفي نفس الوقت تكون قد قدمت المؤازرة الحقيقية لـ «إسرائيل»؛ فالألف عسكري لا يَستطيعون الوقوف أمام الجحافل الإسرائيلية من ناحية، ومن ناحية أخرى هم يَحولون دون تدخل أي جيش عربي لو حاول أن يتدخل، لأنه سيجد نفسه في هذه الحالة وجهًا لوجه أمام الولايات المتحدة الأمريكية وقوَّتها الضاربة وأسطولها السادس، ومَن يدري ربما حاملة قنابلها الذرية.

وهكذا أستطيع أن أقول إنه، للآن على الأقل، قد نجَحَت الخطة الإسرائيلية تمام النجاح، وبخروج المقاوَمة من بيروت بدأ الفلسطينيون عهد الشتات موزعين حول الدول العربية من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر، ومِن مُرتفَعات حلب إلى مضيق البحر الأحمر في عدن والسودان.

نجحت الخطة، ولم يَعُد الفلسطينيون قوة يُحسَب لها ألف حساب في مفاوضات الحكم الذاتي أو غيره، بل إنَّ العرب جميعًا لم يعودوا قوة يُحسَب لها أي حساب في مستقبَل الضفة وغزة والجولان والقدس.

فمصر متمسِّكة بمعاهَدة «كامب ديفيد» أكثر من تمسك «إسرائيل» بها، فللحظة واحدة لم تتمسَّك «إسرائيل» بـ «كامب ديفيد»، لقد استولَتْ على طابا رغم أنف المعاهدة، وشنت حربًا ضروسًا طاحنةً على لبنان رغم القول الشهير: «إنَّ حرب ٧٣ ستكون آخر الحروب.» وفي الوقت الذي اكتفت فيه مصر بهذه المعاهدة وتحت التهديد بـ ١٧ فرقة

مُعسكِرة في النقب تصبح معاهدة «كامب ديفيد» مثل معاهدة ٣٦ مع الإنجليز، ليست معاهدة «شرف واستقلال» وإنما معاهدة «تكتيف وإذلال».

وسوريا أيضًا وحلفاؤها السوفييت أصبحوا في موقف الدفاع عن الأراضي السورية نفسها وعن الجيش السوري الموجود في البقاع.

وكذلك المملكة الأردنية بعد أن رفض الفلسطينيون إعطاءها صكَّ دخول المفاوضات، أعلنت أنها تَنفض يدها من العملية كلها، وغير ملزَمة بدخول مفاوضات الحكم الذاتي.

أمَّا السعودية، فأعتقد أنها لا تستطيع أن تتحرَّك حركة واحدة بعيدًا عن الخط الأمريكي وموقف الولايات المتحدة، الذي هو بالتالي ليس سوى الموقف الإسرائيلي رافعًا الراية الأمريكية.

وحدِّث أيضًا عن بلاد المغرب العربي والسودان واليمنيين.

فأي قوة عربية إذن ممكن أن تُرغم أميركا على أن تُرغم «إسرائيل» على الدخول في مفاوضات الحكم الذاتي بهدف الوصول إلى حكم ذاتي فلسطيني، وليس الوصول إلى حكم ذاتي على الطريقة الإسرائيلية-الأمريكية؟

أي قوة عربية تملك الضغط أو الفرض؟ إنها لا تملك سوى الرجاء تلو الرجاء، وأمور العالم اليوم لا يحلها الرجاء أبدًا، وإنما القوة في مقابل القوة، والفرض في مقابل الفرض.

والموقف الآن واضح كل الوضوح؛ لقد نجحت الخطة الإسرائيلية وتم طرد المقاومة من لبنان، من آخر معقل في مواجهة «إسرائيل»، وتوقفت مفاوضات الحكم الذاتي، ولا أمل باستئنافها إلا على أساس قبول فلسطيني عربي بالشروط الإسرائيلية المدعومة بالمباركة الأمريكية.

فلنكن صريحين مع أنفسنا ونعترف بأن «إسرائيل»، ومِن ورائها أمريكا، قد كسبتا جولة لبنان، وبأتفه ثمن، ثمن زحزحة شارون من وزارة الدفاع إلى وزارة أخرى، ورئاسة لجنة الأمن القومي في الكنيست، ويا له من ثمن نجس قفَزت فيه «إسرائيل» من موقف التأزُّم إلى موقف السيادة شبه التامة على الشرق العربي كله.

والبركة في «كامب ديفيد» أوَّلًا.

والبركة في المواقف العربية الأشد خِزيًا من «كامب ديفيد».

والبركة في واقع عربي لا يُمكن معه إلا التمزُّق والتشتُّت في مواجهة موقف إسرائيلي-أمريكي موحد مُتكاتف متآزِر مسلَّح إلى أقصى مدى بمقوِّمات البطش والقوة.

فماذا نحن فاعلون؟

واضح تمامًا أن كل الطرق التي نَستعمِلها لرأب الصدع العربي المُخيف لم تنجح، بل ولن تنجح أبدًا؛ فالطريق المرسوم طريق فشل مُستمِر وطرق تمزِّق أكثر وأكثر، وهو في نفس الوقت طريق ازدياد القوة والتآلف والتكاتُف بين إسرائيل والولايات المتحدة.

وها هو الملك الحسن يُرسِل رسله تمهيدًا لعقد مؤتمر قمة عربي.

الورقة الأخيرة الباقية لدى العرب، يَلعبون كلما تأزَّم الموقف واحتد، لعبة زهدنا فيها، فهي دائمًا بلا نتيجة، ودائمًا لا تفعل أكثر من تهدئة ثائرة غلاة المُستنكِرين للأوضاع العربية ولسياسة الحكام العرب.

أعطونا الأسبرين إذن تلو الأسبرين، والمخدِّر تلو المخدر، ومؤتمرًا للقمة تلوَ مؤتمر للقمة ... والنتيجة ها أنتم ترَونها واضحةً وضوح الشمس، نراها وترَونها ويراها العالم كله ...

فهل في جرابكم لعبة أخرى غير المؤتَمرات؟

أمَا آن الأوان لليأس الكامل من أوضاع الحكم العربي الراهن أن تنجَح في مقاومة عدم مجرم رهيب؟

ويكون الموقف التالي المحتَّم على الشعوب العربية هو موقف ضرورة أن تُغيِّر أنظمتها إذا لم تغير أنظمتها من سياساتها الخانعة المتهافتة.

نصيحة أسوقها للحكام العرب:

> غيِّروا سياستكم، وقِفوا وواجهوا وافعلوا شيئًا قبل أن تُغيِّركم شعوبكم، وفي مدى لا تَستطيعون تبينه.

الفصل الثاني والعشرون

مسرحية الموسم

شيئًا فشيئًا بدأت أقدامي تتعثر في طوب ثُمَّ رمل وبقايا بياض، ووجدت على بسطة السلم ذات يوم «بوتاجازًا» ضخمًا بفرن كبير من الطراز القديم، بعد شهر لاحظتُ نفس الشيء في الدور الثالث، حين وصل الأمر الشقة المقابلة، ووجدت هذه المرة «بوتاجاز-فرن» كهربائيًّا هائلًا يكاد يَحتلُّ بسطة السلم كلها ولا يَترك لي ولغيري إلا فرجة بسيطة نمرُّ منها. حينذاك بدأت أفكاري تتوقَّف عند هذه الظاهرة وتتأمَّلها، ليس في المنزل الذي نقطنه فقط، وإنما في منازل أصدقاء آخرين أزورهم، فلا بُدَّ أن أجد شقة أو شقتَين قد نكتَتا مطبخهما على بسطة السلَّم أو قارعة الطريق، وثمَّة دقٌّ وحَفر وعُمال وكل الدلائل التي تدلُّ على أن مطبخًا جديدًا في طريقه لأن تُزيَّن الشقة به.

وما هكذا تصورتُ خطورة الأمر وأنا أرى إعلان التليفزيون؛ ذلك الذي يُصوِّرون لك فيه مطبخًا «مش بطال» ولكنه قديم، تَدخله سيدة المنزل وتنظر إلى أدواته بامتعاض، ثُمَّ فجأة «بم» انفجار ينسف كل محتويات المطبخ ودواليبه وطلاء جدرانه، ثُمَّ فجأة وكأنما بعصًا سحرية يتجسَّد لنا في الصورة مطبخ جديد أنيق، كل ما فيه جديد وأنيق، والصورة مصحوبة بكلام محرِّض مُغرٍ تذوب له أذن ربة المنزل، وهو يقول ما معناه: تخلَّصي يا سيدتي من مطبخك القديم وفورًا، يكون لك وفي ٧٢ ساعة مطبخ جديد رائع من محلات كذا. هذا هو ما نراه في صورة التليفزيون، والفيلم الإعلاني مصنوع فعلًا صناعة جيدة جِدًّا، بحيث يسهل تمامًا عملية «النسف» ويسهل جِدًّا عملية «التركيب»، يختصر الزمن والمواعيد وحلول آيات الأناقة والجمال في ٧٢ ساعة فقط ... يا بلاش ...

وتكون النتيجة أن تصبح ذات صباح فتجدَ مطبخ جارِك الذي كنت تلمحه خلسةً وأنت صاعد السلم وتجد أنه — بالقياس إلى مطبخكم — أنيق وظريف، ويُمكن أن يخدم عشر أو عشرين عامًا أخرى، تجده قد نُسف فعلًا نَسفًا، وامتلأت بسطة سلَّمكم بالحجارة

والمونة والأسمنت والجير، وثمة مطبخ جديد قد بدأت تَتوالى قِطَعه التي بالطبع لن تراها أنت وحدك، وإنما — وهذا هو أخطر ما في الموضوع — ستراها السيدة زوجتَك، وحتمًا لا بُدَّ أن يدور في أول فرصة تختليان فيها ذلك الحوار الذي تَستطيع من الآن أن تتنبَّأ به، إن آجلًا أم عاجلًا، وحرام أو حلال، وبالنَّقد أو بالتقسيط، ستَجِد عملية النسف قد تمت أيضًا في بيتكم، وعملية الإحلال قد بدأت، وفعلًا بأبسط طريقة، وبالضبط ٧٢ ساعة. ولكن الذي لا يقوله إعلان التليفزيون، ولا يقوله الصوت المحرِّض المدسوس الذي صُنع خصيصًا ليدغدغ آذان كل زوجة وربة بيت، الذي لا يقوله أن الـ ٧٢ ساعة هذه ستكلفك على الأقل ٧٢٠ جنيهًا؛ فالمسألة حقيقة تبدأ بقول الإعلان إن المطبخ سيتكلف مائة وخمسين أو مائتي جنيه، ولكنك حين تأتي لحظة التنفيذ ستجد أو بالضبط ستجد زوجتك أن البوتاجاز القديم لم يعد يليق بالمطبخ الأنيق الجديد، وأن الثلاجة الإيديال التي احتملتكم عشر سنوات آن لها الإحالة إلى المعاش، وإذا كنتَ من إياهم فسوف تجد أن المسالة دخلت في سخانٍ لمياه المطبخ لغسل الأطباق، ولأن خادمتكم العجوز استقالت لتعمل في الشُّقَق المفروشة تدخل العملية في ماكينة لغسل أطباق، ومروَحة، وتجد أن الـ ٧٢٠ جنيهًا — التي لا بُدَّ شهقت عزيزي القارئ وأنت تقرؤها — ستَصِل إلى أربعة أو خمسة آلاف جنيه.

كُنَّا إذن نحيا في ظلِّ مطبخ لا نقول قديمًا ولكنَّنا للإنصاف نقول «شغَّالًا»، ويؤدِّي وظيفته على الوجه الأكمل، وكان مُمكنًا أن يظلَّ يُؤدِّي تلك الوظيفة خمسة أو عشرة أو ربما عشرين عامًا أخرى، ولكن كلمة سحرية نطقَتْها أعظم آلة لتعذيب رب البيت — التليفزيون — فجَّرت في بيتكم وبيتنا رنين كلمة «الجديد … الجديد»، لها وقعٌ لا يُقاوَم كلمة الجديد هذه، وسعرها دائمًا أكبر من طاقتك. وهكذا بدلًا من أن كنتَ ناعم البال بعمل تؤدِّيه في الصباح ويُترَك لك المساء فارغًا تصنع به ما تشاء، تبحث كالمَجنون عن عمل في المساء، ولا يكفيك المساء فتبحث عن عمل في ساعات الظهر، أو قد تلجأ للطريقة السهلة الوعرة، وأنتم جميعًا تعرفون ماذا أعني بالسهل الوعر، ولأنَّ كل جديد يصبح بعد عام أو عامين قديمًا، وتبدأ كلمة جديد أخرى ترن وتغري وتسحر، فلا بُدَّ أن نلهث أكثر وأكثر، وتتحوَّل إلى حصان لا بُدَّ أن تجري بأسرع ما يستطيع لكي يجلب نقودًا تشتري الجديد ولوازم الجديد، وإذا تكلمتَ قالوا لك: أصلك خايب، ألم ترَ فلانًا الذي بنى عمارة، وفلانًا الذي يربح في الشهر من عمل واحد ألف جنيه، وفلانة التي فتحت «بوتيكًا» تكسب منه ثلاثين ألف جنيه؟! هذه هي الناس الشاطرة، هذه هي الناس التي فعلًا تعيش، أمَّا

أنت، أنت فاقد الهمة، لا تُفلح إلا في التثاؤب ونومة بعد الظهر، وصوتك المجعجع إذا صحوتَ من النوم: ما تعملوا لنا شاي.

هذا النوع من الحياة، النوع اللاهث الذي لا وقتَ فيه لالتقاط الأنفاس، في حاجة إلى ضابط إيقاع يُلهب السائر كي يُسرِع، والمسرع كي يَلهث، واللاهث حتى يَموت. ضابط الإيقاع هذا فن عظيم خطير اسمه: فنُّ الإعلان، وبالذات فن الإعلان التليفزيوني. في تجوالي ببلاد أوروبا وأمريكا أجد نفسي — وأنا الغريب العابر — قد بدأت حُمَّى الشراء تنتابني؛ ذلك أن فن الإعلان التليفزيوني لم يَعُدْ مجرَّد براعة في الإعلان عن بضاعة، وإنما أصبح هو نفسه طريقة إنتاج وطريقة حياة بأكملها، بندٌ كلُعب الأطفال مثلًا، في كل أسبوع تقريبًا يُنتجون لطفلك لعبة جديدة، وأنت باعتبارك أبًا مدلهًا بحبِّ ابنه أو ابنته لا يمكن أن يَحتمل مشهد طفله أو طفلته وهو يُطالبه بأن يقتني تلك اللعبة التي رآها في التليفزيون، إنك حينذاك مُستعِد أن تسرق حتى لتجلب له اللعبة؛ فمطلب الطفل شيء يَشرَح الصدر ومُحالٌ مقاوَمته، وبعد أسبوع تظهر لعبة جديدة. فكرة المودة مثلًا، يَغيظني تمامًا أن أفتح دولاب الملابس فأجد لي بدلة جديدة تمامًا، لم ألبَسْها إلا لعام أو عامين، مركونة، وأخجَل أن أرتديَها، لأنها تُمثِّل مودة قديمة، فما بالك بالسيدات، ولهنَّ كل عام ولكل فصل من الفصول مودة؟! إنَّ أي فتاة أو سيدة تقطن المدينة في عالَمنا الثالث من المحتَّم أن تجد في دولابها نصف ملابسها على الأقل مُعلَّق لا ترتديه لأنه أصبح «مودة قديمة».

هذا النوع من الحياة يُسمُّونه المجتمع الاستهلاكي، والتسمية في رأيي خاطئة؛ لأن هذا المجتمع لا «يستهلك» ما ينتجه أو يستورده، إنه فقط «يستعمله» لبعض الوقت، ثُمَّ يُرغَم على التخلُّص منه وشراء ما يُسمُّونه الجديد، في حين أن لا جديد فيه إلا بضع تغييرات سطحية تمامًا. خذ السيارات مثلًا؛ إنَّ موتور العربة لم يتغيَّر تغييرًا جذريًّا منذ أن صنَعها فورد الأول، ومع هذا فللسيارة — التي يُمكنها أن تعمل على الأقل لعشر سنوات — في كل عام موديل يميزه عن الموديل الذي سبقه شيء تافه، أحيانًا كل الفَرْق تغيير «الدريكسيون» وموضع آلة التنبيه، ولكن، لأن استعمالك للشيء الذي أُنتج في نفس العام أو اتِّباعك للمودة يعني تميُّزك الطبقي؛ فالناس جميعًا يهفون لهذا التميُّز الطبَقي، وهكذا يُحاولون باستماتة أن يتَّبعوا المودة، ولأن شراء الجديد يتطلَّب نقودًا، وصاحب الدخل هو هو لم يتغير، فلا بُدَّ أن تتغير عدد ساعات عمله، أو بالأصح يَقتل نفسه عملًا ليلاحق هو وأفراد عائلته المودة ويستمتعون بهذا التمايُز الطبقي.

والنتيجة: مليارات الجنيهات، إذا قُسمت على مستوى العالم، تضيع لتغيير الأشياء الكمالية في حياة الناس، مليارات الجنيهات التي لا بُدَّ للحصول عليها من تغيير ملايين الذمم وسقوط ملايين المُثُل العليا وإهدار ملايين القيم ...

... ماذا لو استُخدمَت هذه المليارات، ليس في تغيير فستان أو حقيبة يد أو ولاعة، وإنما في إنتاج أشياء عظيمة؛ أعمالٍ فنية باهرة، اكتشافات تجلب المتعة والراحة للإنسان، علاج أمراض تحصد ملايين الأرواح كل عام.

واسرح ما شئت من الأحلام، فعاجلًا أو آجلًا ستصحو على ذلك الصوت الساحر المحرض يقول لزوجتك: ماذا تنتظرين يا سيدتي، فجِّري مطبخك القديم، وفي ٧٢ ساعة تحصلين على مطبخ كامل مجهز بأحدث ما وصل إليه العقل البشري من اختراعات وأذواق. وتنظر إلى زوجتك تتمنَّى أن لا تكون قد فطنت إلى الإعلان، ولكنك لو دقَّقت النظر فستجد ملامحها تكشف عن بداية استعدادها للفصل الأول من مسرحية المطبخ الجديد.

(١) وابور السبع وما يجيء

انا واحد من القلائل — خارج سكان وأصحاب عشَش الترجمان — الذين سعدوا أيما سعادة بمشروعهم الجليل، مشروع تحويل قلب القاهرة العشَش إلى قلب هائل خفاق، ونقل السكان إلى مكان أصلح للسكن وللمأوى وللحياة في شكلها الإنساني البسيط، وليس أبدًا في شَكلها السرديني المعلب كما كان الحادث، أنا من القلائل الذين سعدوا لأن لي علاقة خاصة بالحي، وقصة غريبة طويلة، لا بحكم أن مبنى الأهرام يُجاور عشش الترجمان، ولكن بحكم أنني عِشتُ في الحي وعرفتُ أناسه وعن قرب شديد لمست إنسانه النقيَّ نقاءً لا علاقة له بقذارة المحيط أو اصطخاب الشوارع والحواري والأزقَّة، أو الحياة في الحجرات الصفيح الشديدة البرودة في الشتاء الجهنَّمية الحرارة في الصيف، في الحقيقة مدافن أكثر منها مساكن، كان ذلك في منتصف الخمسينيات، وقد كِدنا نَنتهي من فترة الأحلام، وقد عاد «يسري» من منفاه الاختياري في «واو» جنوب السودان، وخرجتُ أنا من المعتقل بعد أن أدَّيتُ ضريبة الحالم الذي يُفيق على أمر واقع، وواقع الأمر أن ثورة تَنشُد حياةً أرقى قد قامت في مصر، وأن علينا نحن الآخرين أن نصع شيئًا، وما دامت الثورة قد منعَتْنا من الاشتغال بالسياسة، فليس أقل من أن نُزامل الطب ونؤدِّي رسالة السياسة في دائرة، وأن تكون محدودة مثل دائرة معالجة المريض والفرد والعائلة، إلا أنها عمل وإرضاء للضمير المؤرق الذي يُريد أن يصنع شيئًا لبلده وأهم ما في بلده، الناس.

ورأينا أن نفتح عيادة مشتركة في حيٍّ شعبي، وبكشف لا يتعدى القروش العشرة، واخترنا عشش الترجمان مكانًا لفتح العيادة.

ولم أكن أعرف عن الحي أو أناسه شيئًا كثيرًا، وما أعرفه أمر لا يُشجِّع كثيرًا على فتح عيادة فيه أو حتى إقامة مستوصَف مجاني، ولكن صديقي وزميلي الدكتور محمد يسري أحمد الذي خُضت وإياه، أنا وصلاح حافظ، ذلك الثالوث المعروف لكلية الطب ثُمَّ للحركات الأدبية الجديدة التي كانت تنمو براعمَ في ذلك الوقت، خُضتُ وإياه مرحلة التجريب في كتابة القصة القصيرة، وانفتح لنا معًا عالم غريب غامض يَجذبنا بعنف ودفء اسمه عالم الفن، خُضت وإياه تلك المرحلة ومضيتُ أنا أكتب بينما كفَّ هو عن الكتابة والتفَتَ للطب الذي بدأتُ أنا — بعد حماسي الشديد له — أزهد فيه.

فكرة العيادة استقَيناها من المرحوم الدكتور إبراهيم ناجي، أستاذنا، والذي لم تمنعه عيادته في وسط البلد من فتح مستوصَف في أفقر أحياء شبرا، مستوصف كان يعامله أهل المنطقة والمرضى فيها معاملتهم لقدِّيس في يده بمجرد اللمس جلبُ الشفاء.

أمَّا الهدف منها فقد انقسمنا، كان هدفي من مُزامَلة يسري في فتح العيادة أن أجرَّه معي مرة أخرى إلى عالم كتابة القصة، وكان هدفه هو أن يَجرَّني أنا إلى عالم الطب الذي تركتُه. وصحيح أن كلينا قد فشل في تحقيق هدفه، وظلَّ هو سادرًا في طبِّه وظللت سادرًا في كتابتي، إلا أن هذه الأيام التي زاملنا بعضنا البعض فيها في عيادة الترجمان لا يُمكن أن تُنسَى. الحي صحيح اسمه عشش الترجمان، ولكنه في الحقيقة مجرد شارع طويل صاخب الازدحام اسمه شارع وابور السبع (أيُّ وابور وأيُّ سبع؟! لستُ أدري) تصبُّ فيه وتأخذ منه مجموعة من الحواري المختلفة العرض والطول الدائرية مرة البيضاوية مرَّة المسدودة في أغلب الأحيان، حَوارٍ وأزقة مكدَّسة هي الأخرى ومُلتوية وكأنها أمعاء غليظة ودقيقة ومُتداخِلة في بطن ذبيحة، وربما لهذا كان للحواري نفس رائحة بطن الذبيحة، وكانت فكرة الحي على الأقل بالنسبة لي مُرعبة، فقبلها لم أكن قد عرفتُه أو مررت به، والمرة الوحيدة التي فقَدتُ فيها طريقي وأنا أُحاول أن آخذ طريقًا بين شارع رمسيس وبولاق، ووجدت نفسي في قلب الترجمان محطَّ نظرات مُستنكِرة متسائلة وإحساس واضح وملموس بالرغبة في العدوان، أحسستُ يومها أني من علُ من شارع رمسيس، وعلى بُعد خطوة سقطت في بئر خُيِّلَ إليَّ أنها مليئة بتجارة المخدرات وقُطَّاع الطرق والهاربين من العدالة الذين يُكنُّون عداءً لا بُدَّ شديدًا للمدينة التي احتلُّوا قلبها بالقوة، وعمَّن تزاحموا في جبِّهم ليَتُوهوا في الزحمة وتصبح هي الغوث والملجأ والأمان، ازدحام وإن بلغ ذروته

في الليل إلا أنه في النهار أيضًا قائم ومستمر وموجود، ازدحام يَستنكِر وجودك وسطه، ولا بُدَّ أن تلفظ نفسَكَ منه قبل أن يلفظك هو، وويلٌ لك إذا لفظك.

أكان لا بُدَّ يا يسري أن تختار عشش الترجمان؟

ولكنَّا بسرعة مضَينا في المشروع حتى أصبح بعد ثلاثة أيام حقيقة، وحتى احتوَتْنا شقة محترمة، أجل حتى بمقاييس المدينة مُحترَمة، ولكن المهم هو الطمأنينة، غُرَباء هؤلاء الناس، لا تَلقى منهم إذا أسقطتك الصدفة بينهم إلا نظرات نارية مُعادية، ثُمَّ إذا أثبتَّ حسن نيتك أو عثرت على إنسان مثل محمد أفندي يُعرِّفُك بهم ويُعرِّفهُم بك زال الكابوس في الحال، واستحالوا إلى أناس ودودِين مُبالِغين — دون هدف أو قصد — في ودِّهم وكرمهم وإحاطتهم بك، يُلبُّون لك الطلب قبل أن تنطق به، ومرحِّبين بنا، هم الذين تولوا طلاء الشقة وبياضَها ونقل الأثاث ورفعَه إلى الدور الثاني، ورجَوا صاحب البيت ليَتغاضى عن الأيام الباقية في الشهر، وفي أسبوع أصبحنا جزءًا من الحي، بمجرد أن تضع قدمك في أول وابور السبع تلمَح لافتَتَنا من بعيد؛ الدكتور يسري والدكتور يوسف، وفروع الطب قسَّمناها بالعدل بيننا، ومحمد أفندي جالس يُنظِّم حركة المرور ويرشد طالبي الكشف الذين اكتشفنا أن معظمهم — في الأيام الثلاثة الأولى — كانوا «هدايا» من أهل الحي جاملونا بها وأرسلوا أولادهم وزوجاتهم وأقرباءهم بلا مرض ظاهر لتَمتلئ العيادة بالزباين، وتفتح أنفسنا «للشغل». أجل الشغل، أليس كله، حتى الطب شغل، وما داموا يُجاملون بعضهم بعضًا في شغلهم، لماذا لا يجاملوننا ونحن ضيوفهم في شغلنا؟!

أيام وأشهر وسنون قضيناها في وابور السبع وحواريه، رأينا فيها درجات من الفقر لا يُمكن أن يتصوَّرها البشر، ولكنَّا أيضًا رأينا النفوس حين تعرَّت لنا نقيةً نقاءً لا يُمكن أن يخطر على قلب بشر، هؤلاء الناس الذين أرعبَتْني نظراتهم ذات يوم، ما أروَعَ ما تَحفل به قلوبهم من حسن النوايا ورقيق العواطف، ويَفعلون هذا ليس بسبب فقرهم وحاجتهم إلى التساندُ معًا، وإنما يفعلونه رغم أنف الفقر، يفعلونه لأنه طبيعتهم التي خُلقوا بها. كل ما كان ينغص عليَّ حياتي هو مشهد أكواب الشاي، أكواب شاي بأكملها وقد ذُوِّبت فيها كميات ضخمة من الأفيون يجرعونها، في أغلب الأحوال على الريق، وعلى بطن خاوية يَجرعونها، ما الذي يدفع أناسًا رأسمالهم هو صحتهم أن يصبُّوا هذه الكميات من المخدِّرات في أجوافهم، ألكي ينسوا؟ وما الذي يريدون نسيانه؟ أهو المدينة الكبيرة الدائرة كالطاحونة الهائلة فَوقهم وحولهم، أم حياتهم داخل وخارج وابور السبع؟ الحياة على هيئة أجساد متلاصِقة متدافعة الأكتاف ضيقة الخلق، سريعة الغضب، قاسية الحكم،

حياة لا ترحم. حياة كهذه لا يُمكن أن يتحمَّلَها المرء إلا مُكرَهًا إلا وهو إمَّا واعٍ لا بُدَّ أن يَدفعه وعيُه لارتكاب الجرائم وإمَّا وهو فاقد الوعي يشلُّ المخدِّر مراكز حنقِه وسخطه وغضبِه.

ومن هنا يَجيء جانبٌ يُضيء وجه الحياة لغالبية الشعب المسحوقة ويَنتزع من أيدي أصحاب الدخول الطُّفيلية جُنَيهات يُنفِقها على من يَستحقُّونها، إنه حقًّا لمشروع عظيم.

لا يَملك الإنسان أمامه إلا أن يشكر كلَّ من ساهم فيه، فهذا هو انفتاح مصري فائدته ستعود على مصريين، سواء أولئك الذين سيُقيمون العمارات الاستغلالية، أو هؤلاء الذين كان نصيبهم حيًّا جديدًا وشوارعَ جديدةً وشققًا منيرةً واسعةً يدخُلُها الهواء وتَشيع الصحة.

كل ما أرجوه أن يُخلِّف سكان الترجمان في حبهم القديم الذي ستجتاحه البولدوزرات، يخلفوا وراءهم ما كان يَعلق بحياتهم من طفيليات وقاذورات ومخدِّرات وسموم ليَسحقها المَكَن والآلات.

فقط عليهم أن يَحملوا معهم، إلى حيِّهم الجديد، روح عشش الترجمان، تلك الروح التي كانت تؤلِّف بين القلوب وتَجعلُهم في الشدة رجلًا واحدًا وفي لحظات الحاجة أشجع الشُّهَماء، هذه روحٌ أخاف عليها أن تضيع في الشوارع الجديدة الفسيحة، أو أن يقتلها ليل لا تُضيئه أنوار الكلوبات والكهرباء المُلعلعة يسهر حولها الناس ويأتنسون، هذه رُوح أودُّ لها البقاء.

وهكذا لا يكون سكان عشش الترجمان قد استبدلوا مسكنًا خانقًا ضيِّقًا بمسكن نظيف أرحب، وأن يكون «حي» عشش الترجمان قد انتقل إلى «حيٍّ» أو أكثر إنسانية، والحي من الأحياء، ولقد كان سكان الترجمان أحياء عشش الترجمان، ونُريد لهم أن يُنشئوا في الحي الجديد حياة جديدة أيضًا، حياة فيها كل ما كان في حياتهم من مُتعة وحياتهم فعلًا لم تكن تخلُو من المتعة، وفيها أيضًا ما سوف يجبه الشارع الواسع ومدرسة الأطفال والخير القادم العميم، حي وحياة فيهما طب أيضًا وعيادات، لكن القائمين بها لن يَكونوا ضيوفًا قادمين من المدينة، ولكنهم أبناء الحي، وقد أصبحوا أطباء، وبأنفسِهم يُعالجون أهلهم وجيرانهم، أطباء ومُهندسين وعمال وصنايعية.

والمؤكد أنك إذا زُرت الحي الجديد لن تُطالعك أبدًا نظرات الشك الملتهبة والتوجس المخيف.

وأيضًا لن يُطالعك كوب الشاي بأكمله وقد ذوب فيه السم على هيئة مُستحلب الأفيون.

(٢) شكرًا عائلتي الثانية

أنا ابن عائلة.

وهي والحمد لله ليست عائلة إقطاعية أو أرستقراطية أو رأسمالية أو حتى متوسطة؛

إذ هي أكبر من كل هذه العائلات التي مهما بدَت «كبيرة» فهي دائمًا «صغيرة»،

عائلة أفخر بالانتماء إليها، مع أن التفاخُر بالعائلات شيء مرذول حتى في أيام كُنَّا نحيا في نظام العائلات ونُباهي بها.

أنا ابن عائلة كريمة المحتد كما يقولون،

ابن العائلة الطبية.

صحيح أنني اخترت بإرادتي بعد هذا أن أنضوي تحت لواء عائلة الأدب …

ولكن هذا الشرف الذي أُحسُّه كابن للعائلة الأدبية

لا يُضاهيه إلا شرف انتمائي للعائلة الطبية،

ولهذا، فصاعدًا سُلَّم التفاخُر أقول: إني حقًّا كريم المحتدين.

فعلًا، أنا إنسان محظوظ، ويكفيني حظًّا أن طريقي إلى الأدب كان الطب، وحمدًا لله أن الأمر لم يكن العكس.

في رقبتي أيها الأعزاء القراء لعائلتي الطبية هذه دَينٌ كبير، كبير جِدًّا، دين عمري، فالعائلة الطبية بعد أن رعَتْني طالبًا وإنسانًا، وأدَّبتني وهذَّبتني، ثُمَّ أسلمَتْني للعائلة الأدبية ناجحًا جاهزًا، لم تكفَّ أبدًا عن رعايتي من أيامها، إلى يومنا هذا.

ولولا هذه الرعاية ما كنتُ أنا الآن.

وما كانت هذه الكلمات.

والمسألة لا بُدَّ لها من إيضاح.

لا بُدَّ أنه كان مكتوبًا منذ الأزل وفي لوحي المحفوظ أن أخوض صراعًا رهيبًا مريرًا مع المرض، مع أني أبدًا لستُ مريضًا وأبدًا لم أمرض.

ولقد ظلَّت هذه المشكلة تُحيِّرني منذ أمد طويل، وتُحيِّر معي أهلي وأصدقائي، وأنَّهم من أجلها أني أنا الذي أُهمل في صحَّتي وأني أنا السبب، ويصل الأمر حدَّ أن تسألني ذات

مرة إحدى المستشرقات: كيف يكون لك هذا الجسد القوي وتَمرض كل تلك الأمراض؟ لا بُدَّ من خطأٍ ما هناك.

وحقيقة، كيف يكون هذا؟ ذلك هو السؤال الذي ظلَّ يُلحُّ عليَّ بلا إجابة تشفي الغليل وأنا حائر مؤمن بَيني وبين نفسي أنه من المستحيل فعلًا أن أكون قد مررتُ بكل هذه الحالات والأمراض التي لا رابط بينها ولا ضابط وخرجتُ منها سليمًا مُعافًى، وفي نفس الوقت أنا حقًّا مررت بها، وبالتأكيد لم أَمُت.

إلى أن قابلتُ فعلًا ذلك الطبيب أو بالأحرى العالم العبقري الذي حلَّ لي اللغز الرهيب، فأنا فعلًا لم أكن مريضًا؛ فالمرض موجود من حولنا وفينا ونحن نعيش لأن في أجسامنا وإرادتنا طاقة مقاومة هائلة لكل أنواع الأمراض، حتى إذا أُصيبت هذه الطاقة بوهَنٍ أو بضَعف، انقضَّ علينا هذا المرض أو ذاك، نختاره من بين الأمراض أو يختارنا حسب الظروف القدرية المحيطة بنا وحسب كم الانهيار الذي حدث لطاقتنا القادمة ونوعها، وهكذا حين أعود وأقاوم وأريد حقيقةً أشفى وأعيش، وليس هذا مجال شرح هذا الموضوع الخطير، بل ولا حتى مجال الحديث عن التوليفة الغريبة من الأمراض التي أصابَتْني أو المفروض أن تكون قد أصابتني، ولكنني أُلخِّص الأمر فأقول، ويقول معي معظم الأطباء الذين عالَجوني، أنَّ إنسانًا حتى في مثل بنياني الجسماني القوي لو كان قد أُصيب حقيقةً بعُشر الأمراض التي أُصبتُ بها لمات وتوكل من زمن.

وهكذا من أجل أن أحيا وأُوجَد، كان عليَّ أن أخوض معركةً رهيبةً مع نفسي ومع إرادتي الداخلية ومع الظروف الخارجية لأظل حيًّا، بلهَ أن أَستمتِع كما يقولون بتلك الحياة بأن أعيش سليمًا ليس فيَّ من خدش.

معركة مرعبة كم كلَّفتني من شعر أسود ابيضَّ، ومن رعب أقرؤه في عيون أهلي وأصدقائي، وأذكر لهم في صمت وبيني وبين نفسي أني أبدًا، هذه المرة أيضًا، لن أموت.

وكان شركائي في معركة الحياة والموت تلك، كوكبة من أنبل وأعظم من عرفت من جنس البشر، كوكبة مُنتقاة من عائلتي الطيبة التي كم افتروا عليها.

إنَّ الدرس الكبير الذي تعلَّمتُه من وقائع حالتي أن الطبيب المصري لا يُضارَع، وأنه بالضرورة طبيب نابغ ما لم تتدخَّل الظروف لتَفرِض عليه الفشل فرضًا. في رقبتي لهذه الكوكبة دَين ثقيل لا أدري كيف أُوفِّيه، باسمكم وباسمي، أرجو أن يتقبلوا عميق الامتنان،

شيء لا يُمكن أن يُقارَن بضخامة ما قاموا به، ولكنه يكاد يكون الشيء الوحيد الذي أملكه الآن.

ليسمحوا لي أن أوجه إليهم شكري على الملأ وأنا أعرف أن هذا سيُخجِلُهم وأنهم ليسوا بحاجة إليه، ولكنه حتمًا، والأطباء خير من يَعرفون سيُخفِّف عنِّي بعض القلق.

والحمد لله، مع أن الذي حدث لم يكن مكروهًا، وإن كان معركة أخيرة وفاصلة مع المرض؛ إذ كنتُ قد قررت أن لا أمرض بعد هذا أبدًا، ولهذا فأنا أشكر الآن فقط أطبائي؛ فقد كنتُ وأنا دائمًا أؤجل الشكر لهم لأني كنت على يقين أن علاقتي بهم لن تكون الأخيرة، هذه المرة أنا مصمِّم، بإرادة الله طبعًا، ألا أمرض، وقد يَسخر البعض من تصميمي هذا ويعتبره نوعًا من التفكير الصبياني؛ إذ إني أتحدث وكأنما المرض هو الآخر بالإرادة، فبإرادتك أيضًا ألا تمرض إذا صمَّمت، ولكن هذا حقيقي فعلًا؛ فالمرض أيضًا إرادة، مهما كان نوع المرض، حتى السلُّ والسرطان، فإنه لا يُصيب الجسم أوَّلًا، إنه أوَّلًا يُصيب الإرادة، إرادة البقاء والحياة، وهكذا حين تمرض الإرادة تضعف المقاومة وينقضُّ الميكروب أو المرض على هذا الجزء أو ذاك من الجسد، فيَقضمه، وفي النهاية يقتل الإنسان.

والعلاج ليس أن تقف في ميدان التحرير وتقول: ها أنا ذا أريد الحياة وأريد ألا أمرض.

العلاج أن تجلس مع نفسك في انعزال كامل وتسألها: لماذا أُصيب مركز إرادة الحياة فيك بعطب، وبمجرد إدراك للسبب ستَرفع الغشاوة عن عينيك وتَكتشِف أمامك كل طرق البقاء.

فليَسخَر من يشاء بمن يشاء.

فإني مُوقِن تمامًا أنك لو أردت الصحة بكل ما تملك من قوة، واستجمعت كل ذرة رغبة في البقاء في جسدك، وأردتَ إرادة عظمى، تلك الإرادة الأقوى والأعنف من الموت ومن المرض ومن الحديد، أقوى إرادة مُمكن أن يمتلكها بشر، إذا استطعت هذا، فهو أبدًا ليس بالأمر المُستطاع أو السهل، فستُصبح الصحة بل والسعادة نفسها عند أطراف أصابعك.

والموضوع واسع خطير، وعشمي أن أعود إليه.

الفصل الثالث والعشرون

المعجزة المقلوبة

لا أجد مثلًا حيًّا ملموسًا على ما هو حادث لنا قدر حكاية السوبر.

وبدلًا من أن أصدع رأسي ورأس القارئ — حتى المثقَّف — بتحليلات واصطلاحات لأُوضِّح ما أريد أن أقول، فلنأخذ كما قلتُ حكاية السجائر السوبر.

وبصرف النظر عن رأي الأطباء في التدخين، ورأي الصديق الدكتور حمدي السيد نقيب الأطباء في مضارِّه إلى درجة أنه يمنع التدخين في عيادته وحتى في أي ندوة يُدعى إليها، ومعه حق؛ فالسجائر مُضرَّة فعلًا، لا جدال في هذا، وهي ليسَت مُضرة صحيًّا فقط، بل إنَّ ضررها المادي والمَعنوي لا يقلُّ خطورة، ومع هذا، فليس هذا هو ما قصدتُ إليه …

في السنوات الأخيرة القليلة أُتيحت لي شبه جولة حول كثيرٍ من بلدان العالم بشرقه وغربه، ومن أقصى جنوب شرقي آسيا إلى أيسلندا، ومن أقصى درجات الفقر في بلاد عالَمنا الثالث إلى مجتمعات الوَفرة والكثرة والعز، ومع هذا، فلم أرَ في أي مكان من بقاع الدنيا طابورًا يقف قرب الثانية عشرة عند بائعي وأكشاك السجائر يَنتظِر أن تُهلَّ عربة الدخان ليحظى الواقف فيه بعلبة سجائر …

أبدًا لم أرَ، ولا أعتقد أن أحدًا رأى شيئًا كهذا … أنا أفهم أن نقف في طوابير تَذاكر، طوابير لحمة، طوابير عيش، أمَّا السجائر فهي الشيء الذي أستطيع أن أقول إننا نَنفرد به، وبجدارة، دونًا عن بلاد العالم …

ذلك لأن السجائر، بجانب أنها مزاج شعبي، مصدر دخل رئيسي لأي دولة من دول العالم؛ بحيث إن الدولة في أي مكان من الدنيا تَحتكر صناعة السجائر، بل وتحتكر استيراد السجائر، بل وفي السنوات الأخيرة لم تَعُد معظم دول العالم تستورد السجائر الأمريكية أو الإنجليزية المصنعة في الخارج، وإنما هي تأخذ امتياز تصنيعها في بلادها،

لتكسب منها أكثر من ناحية، ومن ناحية أخرى لتضبط توريد الجمارك عنها وكذلك الضرائب المستحقة عليها.

فالسجائر نوع من الدعم.

بل هي أهم دعم.

ولكنه ليس دعمًا تدفعه الحكومة لاحتياجات الشعب الغذائية والكسائية، ولكنه الدعم الأكبر الذي تدفعه جماهير الشعب لإيرادات الدولة، دعم يصل في بعض الأحيان إلى مئات الملايين من الجنيهات كل عام، وفي مصر تصل حصيلة الضرائب المحصَّلة على الإنتاج المحلي للسجائر رقمًا قرأت ذات مرة أنه مائة وخمسون مليونًا من الجنيهات، وإن كنتُ أعتقد أنه أكثر.

بمعنى أن صناعة السجائر في أي بلد من بلاد العالم، أبدًا لا تخسر، إنها بالضرورة أربح وأضمن صناعة تقوم بها الدولة، جميل هذا؟

كيف يحدث إذن أن الدولة التي تَربح تلك الملايين من صناعة كهذه تبدأ تُهمل هذه الصناعة، بل المثير للذُّعر أني قرأتُ مرةً أنها تخسر، وأن الحكومة تدفع دعمًا للسجائر المحلية لتَبيعها بالسعر الذي تَبيعها به.

وهذا في رأيي مسألة كان من المُمكن في أي دولة من الدول وفي أي مجتمع من المجتمعات أن تُثير الذُّعر، فلا بُدَّ أن شيئًا مهولًا رهيبًا قد حدث لهذه الدولة ولذلك المجتمع؛ فالسيجارة في أي مكان من العالم لا تزيد تكاليفها على المليمَين في الجملة، بمعنى أن علبة السجائر لا تزيد في تكاليفها في أمريكا حتى على أربعة قروش مصرية، والفرق بين القروش الأربعة والخمسة والتسعين قرشًا أو «سنتيمًا» التي تُباع بها هو أرباح خالصة للمُنتِج، الذي هو الدولة، وللضرائب المسدَّدة — للدولة أيضًا — عن كلِّ علبة، بمعنى أن المواطن المصري يدفع للدولة في كل علبة سجائر يشتريها ضريبة لا تقل عن الثلاثين قرشًا.

واضرب ثلاثين قرشًا في كذا مليون — أو مليار! — علبة في السنة تخرج بحاصل رهيب لدخل الدولة من صناعة السجائر.

فكيف بتلك المعجزة المعكوسة تحدث في مصر، وتُصبح السجائر مصدر خسارة، وإن لم تكن مصدر خسارة، ويُصبح المعروض منها أقل بكثير جِدًّا من المطلوب؟ ما معنى هذا؟

معناه:

أوَّلًا: إنَّ القائمين على صناعة السجائر إمَّا أناسٌ غير موجودين أصلًا؛ لأنهم ظلوا يَرون الوضع يتدهور في الآلات وفي الإنتاج وهم يَحلُّون الكلمات المتقاطعة أو غائبون عن الوعي تمامًا؛ فصناعة كصناعة السجائر لا تتدهور بين يوم وليلة، ولا يقلُّ المعروض منها عن المطلوب بين يوم وليلة أيضًا. إن لهذا كله شواهدَ مُبكرة، وباعتبار السجائر مصدر دخل للدولة، كان مفروضًا أن تَنتبه «الدولة» إلى النقص الخطير في مواردها، وكان مفروضًا من وزارة الصناعة أن تستجيب إلى مذكِّرات القائمين على صناعة السجائر إن وُجدت أو أن تَنتبه هي إلى هذا الخلل المُروِّع وتُبادر بعلاجه، وعلاجه لم يكن يتجاوَز استيراد مكنِ مَزجٍ ولفٍّ ببضع عشرات من الآلاف أو حتى الملايين من الجنيهات ليستمرَّ هذا الدخل الأساسي الذي لا بُدَّ يجيء لتُنفقه الحكومة على إصلاح حال الشعب.

ولكن لا المسئولون عن صناعة الدخان تنبَّهوا؛ بدليل أني لم اسمع لأيهم صوتًا طوال السنوات الكثيرة الماضية، ولم أسمع أن أحدًا منهم استقال أو حتى هدَّد بالاستقالة لأنه لم يجد صدًى لتنبيهه لوزارة الصناعة، ولم أسمع شيئًا بالمرة.

إلى أن وجدت ووجدنا جميعًا، أسعار السجائر قد بدأت تَرتفِع، والطوابير قد بدأت، وما لبثت أن امتدَّت واستطالت، وكاد يَتوقَّف الإنتاج، لا أقصد إنتاج السجائر ...

ولكن إنتاج المواطنين الذين يُدخِّنون، وهم بالملايين ... وكيف يُنتج مواطن موظَّف أو عامل أو حتى عسكري، ولقد رأيت عساكر المرور يَتركون نقاطهم ليَقِفوا في الطابور، كيف ينتج واحد من هؤلاء وهو يقضي الفترة من التاسعة والنصف إلى العاشرة يُحاول الحصول على سنتدويتش طعمية، ومن العاشرة إلى الواحدة ملطوعًا في طابور السجائر، ومن الواحدة والنصف إلى ما شاء الله في طابور أي جمعية أو مطعم سمك أو حتى سندويتشات فول وطعمية القطاع العام؟!

ومن نُحاسِب؟ وكيف نُحاسِب؟

لو كنتُ من المدَّعي العام الاشتراكي لأقمتُ محاكمة عاجلة لكل وزراء الصناعة خلال السنوات العشر الماضية، ولكل المسئولين عن صناعة السجائر، للإهمال في إضاعة إيرادات الدولة وفي إيصال المواطنين المُنتجِين المُبتلَين بعادة التدخين وتحويلهم إلى قوة مَلطوعة في طوابير؛ فالمدَّعي الاشتراكي كان مَفروضًا أصلًا أن تكون وظيفتُه أن يُراقب أموال الدولة، والذين يُضيِّعونها، بجانب أن يُراقب المُواطنين الذين يَسرقونها ويَسرقون بني جلدتهم من أبناء الشعب، ولكني لا أعتقد أبدًا أن محاكَمة كهذه ستُعقَد.

فكلٌّ مسئول يتنصَّل من المسئولية.

وعنده حق، فجهاز الحكومة جهاز مسئوليات، وليس جهاز تفكير؛ فالذين يُفكِّرون لا يحكمون، والذين يَحكمون لا يُفكِّرون، وإنما همهم الأول إزاحة المسئولية، حتى مسئولية الإنتاج، عن أكتافهم.

وقد كان مفروضًا والحال هذه، أن تتولى التفكير أجهزة أخرى، كان مفروضًا من مجلس الشعب أن يُفكِّر، أمَّا مصر الدولة، فلها ربٌّ اسمه الكريم.

وكان من المفروض أن الصحافة تُفكِّر وتقوم بالتحقيقات وتَعرف الأسباب، ولكن الصَّحافة أصبح مثلها مثل الموظَّفين الذين لا حول لهم ولا قوة، تَكتفي بالشكوى لترفعها إلى الحكومة والمسئولين، وبما أن الشكوى لغير الله مذلَّة، فقد كفَّتِ الصحافة هي الأخرى عن الشكوى … وكان مفروضًا أن الحزب الحاكم يفكر …

ولكن الحزب — حزب الأغلبية الحاكم — لا يُفكر؛ لأنه حزب أغلبية، وما دام ضامنًا أغلبيته فهو ضامن استمرار حكمه، وما دام ضامنًا استمرار حكمه، فماذا يُهمُّه من مناقشة إهدار مصادر تمويل الدولة ما دام يفوز كلما أراد الفوز في الانتخابات، ويُصوِّت بالأغلبية الساحقة على كل ما يريد من قوانين. وهناك جهاز مُسلٍّ تمامًا في مصر اسمه: المجالس القومية المتخصِّصة، جميلة، كان الهدف منها أن تُصبح كمعهد «وودرو ولسون» في أمريكا أو معهد «بروكنجز» الذي تتولى لجانٌ متخصصة فيه دراسة إمكانيات البلاد ومصادر قوتها ومصادر ضَعفها ودراسة علمية لكافة متطلباتها؛ بحيث تكون هناك سياسة ثابتة لتنمية مواردها وسد العجز في صناعتها وزراعتها وخدماتها … إلخ.

ولكن المجالس المتخصِّصة، تخصَّصت في إصدار تقارير، وآخرها تقرير قرأته عن «انحدار فن الرواية في مصر».

وكأن هذه هي المشكلة، وكأنَّ الملايين التي تُصرَف على هذه المجالس عملها أن تناقش الروائيين المصريين في ضَعف إنتاجهم.

كان مفروضًا على هذه الجهات كلها أن تفكر، وأن تَستجوِب، وأن تُحقِّق، وأن تتصرَّف، وأن تتلافى.

ولم تفكر أي جهة منها؛ لأنها جميعًا، كما قُلت، ليست في حاجة إلى تفكير، أو ربما وهو الأصح لا تعرف كيف تُفكِّر خارج إطار مصالحها الذاتية اليومية المباشرة …

جهة وحيدة هي التي بادَرَت بالتفكير …

هذه الجهة، هي الجهة المسئولة عن جزء من صناعة السجائر، وبالذات سجائر كليوباترا صاحبة الأزمة.

فكَّرت الجهة وفكرت …

وكان الحل … سيجارة جديدة تُنتجها اسمها سيجارة سيناء، أهناك فقر مجدب في التفكير أكثر من هذا، عندك أزمة مروِّعة في خطوط إنتاج كليوباترا، نَتيجتها تدهور خطير في إيرادات الدولة، وطوابير تهبط بالإنتاج إلى الصِّفر في بلد يجأر بالشكوى من ضعف الإنتاج، وبأنه الوسيلة الوحيدة للخروج من الأزمة، في ظروف كهذه، تذهب أيها الشاطر وتُحضر خطوط إنتاج لسيجارة جديدة، ليتها تستطيع أن تَحلَّ بالكم أو بالكيف محل الكليوباترا، فلا هي تُغني عنها من ناحية، ولا خطوط إنتاج قادرة حتى أن تُنتج أيضًا الكليوباترا.

ولا يبقى أمام أي حسن للنية إلا أن يقول إن ثمة جهة أجنبية قد دفعت عمولة لبيع هذه الخطوط غير الصالحة في بلادها. فلا أجد أبدًا، ولا يُمكن لمن يملك ذرة عقلة واحدة أن يجد سببًا يحدو بالقائمين على صناعة السجائر إلى شراء خطوط لسجائر مختلفة عن المطلوب وخَلق سيجارة جديدة لا وجود لها إلا في إعلانات الصحف، هذا هو العبث بعينه، أو هو التخريب لاقتصادنا القومي، وأي تخريب أكثر من أن تُحيل الشعب المنتِج إلى شعب «خرمان»؟ والخرمان أبدًا لا يُنتِج! وأي تخريب أكثر من أن تمنع عن خزانة الدولة مئات الملايين من الجنيهات، وحين تفكر في تجاوز الأزمة تَدفع بالخسارة ملايين الجنيهات في شراء آلات لا تحلُّ أزمة سجائرك، وإنما تُحمِّل خزائنك بالتالي مصاريف أكثر، وبالخسارة كما قلت؟! تخريب للاقتصاد لا أعتقد أنه نتيجة لفقر الفكر أو فكر الفقر؛ إذ هو إمَّا تخريب بحسن نية، وعلى هذا يكون المسئولون عن الجريمة هم المسئولون عن السياسة الداخلية والصناعية؛ إذ لا يُعقَل أن مشكلة كهذه لا تُشكِّل بالنسبة إليهم مسألة سياسية عظمى كان من الواجب حسمها سياسيًّا من زمن وتوقِّي حدوثها، وإمَّا أن يكون التخريب بسوء نية …

ومن هنا أتساءل: وأين هو دور عشرات الأنواع من المَباحث والبوليس والرقابة الإنتاجية والسياسية والحزب الحاكم والحكومة والمجالس القومية المتخصصة والموقَّر مجلس الشعب والموقر تمامًا مجلس الشورى؟

إنَّ القضية هي قضية كرامتي وكرامة أي مواطن يقف أو حتى يرى — مجرَّد يرى — طابور الواقفين أمام دكان السجائر، ليحظى كلٌّ منهم بعد انتظار ساعات وساعات، بسيجارة لا يجد أي مواطن في أي دولة من دول العالم مشكلة أبدًا في الحصول عليها،

ولا أي دولة من دول العالم تَرفُض أن تحصل على مئات الملايين من الجنيهات ثمنًا لسجائرها … كرامتي التي تَنزف كلما رأيت طابورًا كهذا …

ترى لو رآك الزعيم مصطفى كامل أكان يقول: لو لم أكن مصريًّا لوددتُ أن أكون مصريًّا؟!

يا إلهي …

ماذا حدث حتى جعلوا مصر التي كانت أغنية وأمنية في فم أبنائها، عقوبة توقَّع، وبالذات على من يؤثرون البقاء فيها، عقوبة محكوم عليهم بها أن لا يُفيقوا أبدًا من الأزمات وطوابير الأزمات؟!

وهذا أبدًا ليس فقر فكر وفكر فقر …

هذه — كما يقولون — قضية أخرى.

الفصل الرابع والعشرون

ماذا فعلنا برمضان؟

ماذا فعلنا برمضان؟ فأنا لا أستطيع أن أقول: ماذا فعل رمضان بنا؟ فرمضان شهر عبادة وصيام، ومراجعة للنفس وتبتُّل، شهر السهارى، لا لكي يأكُلُوا إلى آخر ثانية إمساك، ولكن ليعيدوا توازنهم النفسي ويراجعوا ما كان من حياتهم وعامهم وحتى يومهم، ويتبينوا الخط الأبيض من الخط الأسود في علاقاتهم بالمولى سبحانه. وفكرة الصيام نفسها هي فكرة الامتناع عن الاستجابة للحاجات الجسدية العاجلة من مأكل ومشرب ومُتَع، حتى لا ينشغل الجسد بالجري وراء تلك المتع، ويتفرَّغ الجسد والعقل جميعًا لما هو أليَق بالإنسان. الإحساس الشامل بالطهر والرغبة الخالصة في السمو بالذات عن متطلبات الحياة اليومية والتواصُل مع الحق ومع العدل ومع الحقيقة الإسلامية الكبرى وجوهرها.

ذلك هو رمضان.

وذلك هو الصيام كما لا بُدَّ أن يَصومه أهل كل كتاب.

ولكن يبدو أننا نحن المصريِّين دائمًا ما نلوي أعناق الأشياء لتلاءم مزاجنا وأهواءنا، ولذلك ما كاد الفاطميون يَجيئون إلى مصر، وهم فرقة من فِرَق الشيعة التي دفعها القهر في الجزيرة والشرق العربي إلى الهجرة غربًا وإنشاء مذاهب شيعية كالإباضية والفاطمية وغيرها، ثُمَّ ما لبث الفاطميون في المغرب العربي أن قويَت شوكتهم وغزوا مصر في النهاية، كما هي عادة مصر أن يكون مقياس القوة لدى أي دولة صاعدة أن تجرِّب عضلاتها في غزو مصر. جاء الفاطميون وأنشئوا القاهرة والأزهر الشريف، وجاءوا معهم بالمذهب الشيعي، وجاءوا أيضًا — وهذا هو الأهم في حديثنا هذا — بكثيرٍ من الطقوس والمهرجانات التي تُصاحب المواسم والأعياد الإسلامية؛ مثل مواكب الفوانيس في رمضان، والتواشيح، وصنع الكعك، واستيراد الياميش، والأكل إلى حدِّ التُّخمة. وحين انتهى الحكم الفاطمي انسحَبَ معه المذهب الشيعي تمامًا من مصر، ولم يُخلِّف أثرًا يُذكَر إلا في المساجد الكبرى

التي أُقيمت لآل البيت، وكذلك انسحبت مع الحكم والمذهب كل المظاهر الحضارية التي جاءت مع الغزو الفاطمي، ما عدا الأزهر الذي تحوَّل إلى جامعة كبرى أصبحت منارةً للمسلمين في عهود التمزُّق والتخلف التي حاقت بالأمة الإسلامية والعربية.

ولكن الشيء الوحيد الذي ترسَّخ في الحياة المصرية، وبقي ولا يزال باقيًا إلى الآن، هو مظاهر «الفنطزية» الفاطمية التي كانت تصاحب حلول رمضان والمواسم والأعياد … وهي مظاهر فنطزية؛ لأنها كلها تتعلق بالطعام والشراب والأُنس والسمر، ولا علاقة لها بالمناسبة التي تُقام من أجلها؛ فالمصريون في الريف، وفي كثيرٍ من المدن، يحتفلون بليلة الإسراء والمعراج مثلًا بعشاء فاخر من البط والإوز والدجاج، ومعجزة الإسراء والمعراج لا علاقة لها البتَّة بطعام أو شراب، ولكن هكذا أراد المصريون.

وشهر رمضان هو شهر الامتناع إلا عن الحد الأدنى من الطعام؛ فقد كان المسلم البدوي في صدر الإسلام وفجره وضُحاه يصوم اليوم كله ولا يفطر إلا على قليل من التمر وبعض اللبن المَخضوض إن وُجد، وفي أحيان نادرة يُصيب قطعة لحم حين يتهوَّر أحدهم ويَذبح شاةً ويُوزِّع لحمها على الأهل والجيران والأسباط.

ولكن شهر رمضان في مصر هو شهر الطعام لا شهر الصيام، وقد كنتُ أدهش وأذهل حين أقرأ في الجرائد — قبل حلول رمضان من كل عام — عنوانًا رئيسيًّا ضخمًا يقول: استيراد مائة ألف طن من اللحوم بمُناسبة شهر رمضان … أو توفير كذا ألف طن من السمن والأرز بمناسبة شهر رمضان. كنتُ أدهش، لأن المفروض أن تكون العناوين هي: توفير كذا ألف طنٍّ لحم بمناسبة شهر الصيام، أو شهر رمضان يُوفِّر كذا مليون جنيه عملة صعبة قيمة ما كان مفروضًا استيراده من المأكولات والأطعمة.

ولكني لم أعد أدهش لهذه العناوين الفرعية، بل لم أعد أدهش، فأنا أقرأ تصريحات المسئولين عن التموين وهم يذكرون أن الاستهلاك زاد في رمضان بأكثر من ثلاثين في المائة عن متوسط الاستهلاك في شهور الإفطار.

حوَّلنا رمضان إذن من شهر صيام وتبتُّل إلى شهر جشع والتهام للطعام، وادخل أي بيت مصري مهما تواضَعَ دخله وانظر كم ونوع الاحتفال الغريب بوجبة الإفطار، والتفنُّن في عمل السلاطات والحلويات والمُحبشات، واصعد قليلًا في الدرجة ستجد المشويات والمقليات والأرز بالخلطة وبالزبيب وبالبندق والأسماك والمحشيات، ويكون أفراد الأسرة خمسة أو سبعة، فيُحضَّر طعام يكفي عشرة أو أحيانًا عشرين، ويُفطر الصائمون والفاطِرون الذين يَكتفون احترامًا للشهر العظيم بالامتناع عن وجبة الغذاء،

حتى «يُفطروا» مع الصائمين، يُفطِرون وتَمتلئ الكروش، ويُصبُّ فوق الطعام السوائل بالأكوام، التمر الهندي والليمون والشاي والقهوة، وعشرات الأكواب من الماء، ويبدأ بخار هذا كله يَفعل فعله، ويتكرَّع الواحد أو الواحدة تكريعة نكراء ويقول: أمَّا كان حتة يوم!

ولو اقتصر الأمر على حدود الطعام لهانت الكارثة؛ فالكارثة الحقيقية أننا حوَّلنا شهر «العبادة» إلى شهر إضراب عن العمل، أو بالأصحِّ إضراب عن الإنتاج؛ فكل شيء مؤجل إلى ما بعد رمضان «كل سنة وأنت طيب»، والعمل مفروض أن يبدأ في العاشرة، وغالبًا ما يبدأ في الحادية عشرة.

وبعد قليل استئذان لأداء فريضة الظهر، وقد تؤدَّى الفريضة أو لا تؤدى، ولكن «الدنيا صيام»، وصاحبنا قد نام بعد «صلاة الفجر» في الثالثة والنصف ورأسه لا يزال يَحفل بالوخم، وأقصاها نصف ساعة أو ساعة، وجريًا إلى المنزل حيث قيلولة يومٍ رمضانيٍّ حارٍّ تمتد إلى ما قبيل الإفطار، بينما الزوجة في المطبخ منذ الصباح تقلي وتُحمِّر، وشعرها منكوش وكأنها تخوض معركة الموت والحياة، ومزاجها عصبي تَصرخ في الأولاد وتُهدِّد بأنها ستترك المنزل وتمشي بلادَ الله لخلق الله، وتلعن الطبيخ والطعام وتنابلة السلطان (بقية الأسرة) النائمين نومة أهل الكهف في انتظار المدفع.

وحتى قبل أن يَضرب مدفع الإفطار تكون فنطزية رمضان الإذاعية والتليفزيونية قد بدأت؛ ففي الإذاعات المختلفة هناك ثماني مُسلسلات (وربما أكثر لا أعرف)، وتُمسك المسلسلة منها فتجد موضوعات سخيفة سخفًا لا بُدَّ أن مؤلِّفه عبقري في قدرته على السخافة. موضوعات مفتعلة ومُصطَنَعة وكوميديا لا ضحكَ فيها، وحتى لا وجودَ له حتى على سطح القمر، وأناس يُمثِّلون كلامًا لا أدري من أين يجيئون به، وكله «تسالي صيام»، وكأنها ساعة جوع أو بضع ساعات تذهب بعقل أيٍّ مِنَّا تمامًا وتُحتِّم على الإذاعة والتليفزيون أن يملأ الفراغ العقلي الذي أحدثه الجوع بمزيد من الفراغ العقلي الذي تُحدثه المسلسلات والفوازير.

وما أروع تلك المُعضِلات الفذَّة التي اسمها الفوازير، أنا أفهم أن تقدم الإذاعة أو التليفزيون فوازير تنشِّط العقل وتستدعي إلى الذاكرة معلومات ثقافية، أو تعرِّف المستمع بمعلومات، ولكن أن تصل العبقرية بالفوازير إلى حدِّ أنها لا تضيف معلومة وإنما تنتقص من معلوماتك، فهذا هو الشيء المدهش حقًّا.

وأن أصل إلى درجة أنني قررت ذات مرة أن أستمع لكل برامج رمضان في الإذاعات المختلفة وعلى عدة أجهزة مرة واحدة، استمعتُ إلى الضيوف، ناس من نجوم مصر

وساساتها وعلمائها، تُحضرُهم الإذاعة ليقولوا أفرغ كلام مُمكن أن يُقال. ست ساعات إرسال من مختلف المحطات، يُستقدم فيها ناس كبار ليلعبوا معهم لعبة الكراسي الموسيقية و«يهزروا» معهم هزارًا سمجًا، لا يُضحك إلا مقدمي البرامج الذين «نسمع» ضحكهم، وكأن عقل المستمع المصري غير قادر أن يَستوعب.

أُراهنك أن تجلس إلى التلفزيون فعلًا من الساعة الخامسة مساءً وإلى انتهاء البرامج في الثانية والنصف (تسع ساعات ونصف إرسال) في كل قناة، أراهنك أن تخرج بشيء يهزُّك حقًّا، أو على الأقل يجعل عقلك يعمل أو يفكر في التحرُّك، كل شيء يدعوك أن تسطِّح مخك، وأن تستلقي كالمغمى عليه لا يحتاج إلا لعُشر وعي كي يتابع البرامج؛ فكلها برامج «تسلية»، وفي كل تليفزيونات العالم برامج تسلية، ولكنهم دائمًا يضعون أمام أعينهم فائدة المُتسلِّي، فيُغلِّفون الثقافة والمعلومات بغلاف مسلٍّ حقًّا. لقد ذهبتُ منذ شهر أو أقل إلى لندن، وكانت لديَّ أعمال هامة، ومع هذا فلم أستطع أن أغادر الفندق لأنَّ التليفزيون شدَّني إلى مقعدي بطريقة لا أملك معها حراكًا، معلومات ومعلومات، وآفاقًا واسعة تفتحها لك كاميرا التليفزيون تُريك العالم كله وأنت جالس، تُعلِّمك التاريخ، تُريك الجغرافيا، ليست علمًا جافًّا كما كُنَّا ندرسه، وإنما حقائق مذهلة مصوَّرة، العالم حقيقة بين يديك، والمناقشات خطيرة تتناول أدق تفاصيل الحياة هناك، وبالذات مشاكل التعليم والتربية، يشترك فيها آباء وأمهات وطلبة وأساتذة وعلماء؛ بحيث إنني بعد يومين من مشاهدة التليفزيون البريطاني أحسستُ وكأني قرأت أكثر من كتاب عن الحياة في إنجلترا والحياة في العالم أجمع. وليس معنى هذا أن اللوم كله يقع على الإذاعة والتليفزيون، إن صحافتنا أيضًا تشترك في عملية تبطيط عقل الصائم والمواطن؛ فالصفحات الدينية تتحدث عن رمضان وكأنه أول رمضان يصومه المسلمون، وليس كما هو الواقع رمضان رقم ١٤٠٥، تتحدَّث عن رمضان وكأن القراء مجموعة من الجهلة أو كأنهم كانوا بالأمس فقط يعبدون الأصنام. إن الصفحات الدينية في جرائدنا ومجلاتنا تنسى أننا شعب مسلم له تاريخ عريق في الإسلام وفي التعبد وفي معرفة ما يضره وما ينفعه. والفلاح المصري الأمي يعبد الله ببساطةِ الذي أصبح الدين جزءًا لا يتجزأ من تكوينه وكيانه، وهو بالتأكيد أكثر تقوى — إذا كانت التقوى تُقاس بالتلقائية والنوايا الحسنة — من بعض من ينصبون أنفسهم أوصياء على الدين وعلى المتديِّنين بحيث لا يصح في العبادة إلا ما يقولون وما به يشيرون.

كان مفروضًا أن تتحدَّث تلك الصفحات عن القيم العليا الكامنة وراء الامتناع عن المتع الجسدية، كان مفروضًا أن تَنتهِز شهر العبادة وتشرح لنا الحكمة في تشريع طقوس العبادة، كان مفروضًا لا أن تتحدَّث عن «كيف» تُصلي و«كيف» تصوم، ولكن أن تتحدث عن «لماذا» تصوم و«لماذا» تصلي، ولكن ما بين الفنطزية في الإذاعة والتليفزيون والهلوَسة في الصحافة الدينية، يضيع المعنى الكلي لرمضان الكريم، ويبقى الشهر يَنظر إلينا بَرِمًا من عليائه. جموع من الرجال والنساء المسلمين القادِرين على شق الصخر ولوي الحديد تقضي يومها في كسل مروِّع، وليلها في طعام وشراب و«تسلية»، ويضيع من عمر الإنسان شهر لم يكسب فيه عبادة، وإنما «أدى» فريضة، وبشق الأنفس، ويضيع على المصريين كم وافر من الطعام استهلكوه، وكم وافر في الحقيقة من ملايين الملايين من مساعدات الإنتاج لشعب محتاج فقير أُهملت وأُضيعت بحجة الصيام، مع أن الصيام حجة المجتهد، والعمل عبادة في حد ذاته، وأن يهمل المواطن عمله بحجة أنه صائم جريمة دينية وخُلقية ودنيوية أيضًا.

والمملكة السعودية قد وجدت حلًّا عمليًّا لتكاسل الناس في رمضان، فهي في الشهور التي يأتي فيها رمضان في الصيف، تُحول العمل إلى ساعات الليل؛ بحيث تُقضى مصالح المسلمين ولا تتعطل، وبحيث لا يكون الشهر الكريم شهر «إضراب مُقنَّع» عن العمل، وأن يكون شهر عبادة وإنتاج أيضًا.

إن ما نُحدثه في أنفسنا وفي حياتنا من تحويل رمضان إلى شهر جشع طعامي وفنطزية وتسلية وكل شيء ما عدا العبادة والعمل أمر جد خطير، والفوازير التي بدأت خجولة زكيَّة أصبحت عشرات الفوازير المُقتحمة المَحشورة الغبية، والمسلسلات التي بدأت بواحدة في البرنامج العام أصبحت وباءً في كل قناة ومحطة. وتحوَّل المصريون إلى التخمة، فبالقروش التي تأتي من العاملين في الخارج، وبالدين وفوائده الباهظة، تُملأ كروشنا وتنتفخ أجسادنا ونترهل ونتكاسَل ونتثاءب ويكاد يُغمى علينا من الإفراط في النوم والهزل وكل ما لا يمتُّ بصلة إلى الشهر الكريم، ثُمَّ نتمطى ونقول: أمَّا الصيام صعب بشكل.

أي صيام أيها الناس، وأي رمضان؟!

الفصل الخامس والعشرون

الأثرياء ... زعلانون

الأثرياء المصريون ساخطون على الصحافة المصرية باعتبار أنها «انتهزت» فرصة سرقة ١٨ مليون جنيه وتسميم الشعب المصري بلحمٍ فاسد، والاعتداء على أرض الدولة وحيازتها، وأخذ سُلَف من البنوك المصرية بالملايين علىٍ حسابها لزوم الأثرياء بمعدَّل مائة مليون جنيه في العام. ساخطون على الصحافة المصرية لأنها بهذه «الحملة» قد خوَّفت رأس المال وجعلتْه يَقبِض يده عن الصرف والعملة السائلة، وجعلت المغتربين المصريين يكفُّون عن تحويل النقود من الخارج، ورفعت أسعار الدولار وزعزعت الثقة في البنوك المصرية الاستثمارية وجعلتْهم يبدون أمام الناس وكأن كُلًّا منهم — لا مؤاخذة — لص وحرامي وسفاح، وكأنه رشاد أو توفيق آخر، في حين أن الأمر ليس كذلك.

والأثرياء جِدًّا المصريون لهم حق في سخطهم.

ولكنهم يَسخطون على الجهة الخطأ.

فلم تكن الصحافة المصرية سوى ناقلة لاتهام ثُمَّ لأخبار تحقيق ثُمَّ لإدانة من النيابة أوَّلًا ثُمَّ من القضاء، وهكذا فعَلت في قضية من ثبتَت براءتهم مثل الكفراوي ومحسن التونسي.

الصحافة هنا إذن لم تؤدِّ سوى واجبها تجاه قرائها باعتبار أن واجبها الأول هو أن تقوم بتزويد القارئ بالأخبار، ومنها أخبار الجرائم وعلى رأسها أخبار جرائم الذمة والمال العام.

هم على حق في سخطهم، ولكنهم يجب أن يسخطوا أوَّلًا على القانون؛ فالقانون هو عدو توفيق ورشاد وغيرهما، وليس الصحافة والقضاء العادل هما عدوَّهم اللدود، فمن يجرؤ على ارتكاب ما فعلوا لا بُدَّ أنه يُناصب القانون والقضاء العداء باعتبارهم خارجين عن مجال نفوذهم وسطوتهم وسيفًا مُسلَّطًا على رقاب أمثالهم.

وسخطهم يجب أن ينصب ثانيةً على أنفسهم؛ فقد كان واجبًا أن تبادر المؤسسات التي يتبعها هؤلاء الناس، ومنها الغُرَف التجارية واتحاداتها واتحاد المستوردين، أن يستنكروا وبشدة هذا الذي حدَث، وأن يقفوا مع القانون ضد الخارجين على القانون، وأن يُؤكِّدوا أن هذا الحادث الفردي أو ذاك لا يَعني أن كل مُستورِد أو مصدِّر غشاش أو نصاب أو مُتطفِّل، وإنما معظم القائمين على أمر الاستيراد والتصدير والتجارة أُناسٌ يُراعون الله وضمائرهم ومصلحة الشعب ككلٍّ في عملهم وربحهم، وأن كل الفئات فيها السيئ وفيها الحسن، وأن ليس معنى أن طبيبًا أخطأ أو كاتبًا زلَّ أن كل الأطباء مخطئون وأن كل الكُتَّاب يزلُّون بطريقة لا بُدَّ أن تتضامن معها نقابة الأطباء أو اتحاد الكتاب للوقوف بجوار المخطئ. إنَّ هذه الطريقة القبلية في «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» تضرُّ أول ما تضر برأسمالية مصرية وطنية وشريفة تقوم بقدر كبير من مشاريع الإسكان والتصنيع والتجارة والتصنيع الزراعي، هناك آلاف الرأسماليين الشرفاء الذين يُراعون حق الوطن والمواطنين، ووراءَهم مئات الآلاف من أصحاب المئات والآلاف من الجنيهات الذين لم تُزعِجهم حكاية رشاد عثمان ولم يَسحبوا شهادات استثمارهم من البنك الأهلي ولا ودائعهم في بنك مصر ولا هرَّبوا نقودهم إلى الخارج؛ لأنهم يُحسُّون أن مصر هي بلدهم ونقودها نقودهم وحلُّ مشاكلها هو حل لمشاكلهم، أمَّا أولئك الذين يَعتبرون أن حقهم من الربح الفاحش الباطل هو الأصل، وأن مصر ما هي إلا أفواه يملئونها باللحم الفاسد والجبن الفاسد، وإذا تكلم الناس وحقق القضاء ونشرت الصحافة، فهذه هي الجريمة الكبرى، فهؤلاء ليسوا مِنَّا، وبالتالي ليسوا من أغنيائنا الوطنيين، بل هم سُبَّة في جبينهم. ولقد انتظرت بيانًا واحدًا من أيَّة هيئة تضمُّ هؤلاء الأغنياء تستنكر هذه الجرائم، ولا أزال إلى الآن أنتظر، وأخوَفُ ما أخافه أن أظل أنتظر إلى الأبد.

يا أيها الأثرياء الوطنيون، لا يُصيبكم الذعر إذا أُمسك بحرامي أو بمهرِّب أو بغشاش؛ فأنتم في معظمكم شرفاء تُسْدُون أعظم الإنجازات لبلدكم، ومن يخف منكم لا بُدَّ أن على رأسه «بطحة»، فليتفحَّصْها جَيِّدًا، وليُراجع نفسه، وليمضِ بالحَلال ويبني معنا بلادنا، ونحن على استعداد أن يَربح مِنَّا وبنا ما يشاء، فقط لا يغشُّنا، فقط لا يَسرقنا …

أمَّا المذعورون الذين هربوا وهرَّبوا، الذين أوقفوا المشروعات، الذين خافوا ونكصوا، فلا يُهمكم أيها الأثرياء ولا يهمكم أيها الفقراء منهم؛ فهم كانوا سيخافون وينكصون في أي محطة قادمة أو حتى يَقفِزُون من القطار، مثل نشَّالي القطارات والأوتوبيسات، فهدفهم ليس أن تسير القافلة، ولكن أن ينشلوا أكبر قدر من قروش جيوب القافلة.

والله إنها حقًّا لمهزلة، إمَّا أن تُصفِّق الصحافة للغش والسرقة والجريمة، وإمَّا أن تصبح عامل إفساد للحياة الاقتصادية وسببًا لهزة نقدية، وكأن الطبيعي تمامًا أن يَسرقنا البعض ويُسمِّمنا، ونبتلع السرقة ونزدرد السم وعلى وجوهِنا ابتسامة السعادة والرضاء.

(١) وأنا ساخط

أمَّا أنا شخصيًّا فساخِط على صحافتنا المصرية، ولكن لسبب آخر تمامًا، أننا دائمًا نضرب المثل بأمريكا، فلماذا لا نَضرب بها المثل في تلك الواقعة الغريبة التي لا يكاد يُصدِّقها عقل.

شعب يظلُّ لأكثر من عام يأكُل لحومًا فاسدةً، وتُصنع داخل بلده لحومٌ فاسدةٌ، وتُستورد له جُبنٌ فاسدةٌ، وأشياء غريبة جِدًّا لا يكاد العقل يتصورها، بكل همة ونشاط تَنشُر صحفنا الوقائع والتحقيقات. ولكني بالأمس جلستُ أتأمَّل هذا الذي يحدث؛ من أين كانت تأتي هذه اللحوم والأطعمة الفاسدة؟ إنَّ قوانين هيئة الصحة العالمية، وقوانين كل دولة في العالم تسلك تجاه الأطعمة بالذات مسلكًا صحيًّا شديد الصرامة والقسوة، وتُعاقب أي بائع أو تاجر جملة يُعرف عنه أو تُضبَط لديه أطعمة انتهت مدَّتها المُقدَّرة بعقاب قد يصل في حالات مثل التي حدثت عندنا إلى السجن المؤبد.

وهذه الأطعمة لم تَفسد في مصر أيضًا، بل ثبت بالدليل التحليلي القاطع أنها كانت تصل إلى ميناء الإسكندرية وهي فاسِدة ولا تصلح طعامًا للبشر أو حتى للحيوان (فالحيوان أيضًا يمرض من اللحم الفاسد أو الجبن الفاسد)، إذن السؤال هو: من أين كانت تأتي هذه اللحوم؟

قرأت مرة أن بعض السفن كانت تأتي مِن اليونان، ولكن أعرف تمامًا أن الحكومة اليونانية شديدة الدقة في هذا، وأنها لا يُمكن أن تسمح بتجارة أطعمة فاسدة حتى لو كانت للتصدير.

قرأت مرةً أنها من البرازيل، ولكني أعلم أن البرازيل حريصة على سمعة لحومها، حتى المعلب منها، إلى درجة قصوى؛ بحيث إني قرأت مرة أنها أعدَمَت من علب البولوبيف ما قيمته ملايين من الجنيهات لمجرد شك سلطاتها الصحية في طعمِه وليس أبدًا لاحتوائه على «السالمونيلا». من أين وكيف ومن هم التجار أو الوسطاء أو «الأعداء» الذين كانوا يتولون تسويق لحوم فاسدة إلى الشعب المصري عن طريق مصري مارق أعماه الجشع إلى درجة أن يُحلَّ لنفسه أن يكسب مالًا حرامًا ثمنًا لتسميمه لشعبه وبني جلدته؟

هذا هو السؤال.

وهذا ما كنتُ أتصور أن صحافتنا ستُجيب عليه.

ففي أمريكا — التي يحلو لنا دائمًا أن نضرب بها المثل — لم يكن الأمر طعامًا فاسدًا، ولكنه كان مجرد تسجيل لحديث لا يصحُّ من أحاديث نيكسون في بيته الأبيض، ولكن الصحافة هناك — والصحفيُّون هناك — لم يتركوا هذه القشة تمر، ظلوا يَحفرون وراءها حتى خرجوا بالرئيس نفسه وأخرجوه من الحكم.

وموضوع كهذا — سمٌّ بمئات الملايين من الجنيهات — لا يُحرِّك في صحافتنا ليس غريزة البحث عن المتاعب وإنما غريزة البحث عن الحقيقة وكشف الخطط الجهنمية التي استعملتها جهات أجنبية ومصرية لجلب هذه السموم لبلادنا.

كيف لم تتحرَّك الحاسة الصحفية لتتبُّع خيوط هذه الجريمة النكراء، واكتفَينا بأذون الاستيراد التي ربما تكون مزوَّرة، ثُمَّ أين وكيف كان يُعاد تغليف الدجاج والجبن بحيث يُمحى من الغلاف تاريخ انتهاء الصلاحية.

أليسَت هذه مواضيع كان من الممكن أن تلعب فيها الصحافة، ولا أقول وزارة الداخلية بمباحث أمن الدولة (التي يجب أن تكون أيضًا مباحث لأمن الشعب)، وأين صحافة البحث عن «المتاعب» للحصول على خبر؟!

وأمامها الخبر بعرض البحر الأبيض المتوسط وطوله، تَعيث فيه السفن ناقلة وشاحنة وحاملة السم الزعاف للشعب المصري.

(٢) ماذا أفعل بخمسة وعشرين دولارًا؟

أوقعني صديق قارئ من بلد عربي في حيرة عظمى؛ فقد أرسل لي شيكًا باسمي بمبلغ خمسة وعشرين دولارًا، وأرسل رفق الشيك خطابًا يفيض بالإخلاص لشعبنا ووطننا وبلادنا؛ فقد ترامت إلى مسامعه أنباء الأزمة الاقتصادية، ولأن الشهامة لا تنقصنا سواء كُنَّا في الداخل أو في الخارج، عائدين أم مقيمين، فقد حسبَها بينه وبين نفسه ووجد أن عدد العاملين المصريين بالخارج لا يقلُّ عن ٢ مليون مصري، لو تبرَّع كل منهم بخمسة وعشرين دولارًا في السنة لكان الناتج خمسين مليون دولار ممكن أن تُرصد لحل جزئي لمشكلة الإسكان أو التصنيع أو العمالة، وببراءة وبساطة شديدين راح يشرح لي كيف أن الخمسة والعشرين دولارًا لا تُشكِّل أي عبء على أي عامل في الخارج، فهي حتى لأقل العمال أجرًا تشكِّل أجر نصف يوم، نصف يوم كل ٣٦٥ يومًا يتبرع بها العامل في الخارج لبلده الأم، وليس من أجل بلده الأم وحدها، وإنما من أجله هو نفسه بحيث حين يعود

بعربته الفارهة أو بنقوده المدَّخرة يجد طريقًا معقولًا يقود فيه عربته، ومسكنًا معقولًا يدفع ثمنه أو إيجاره، وشوارع معقولة يسير على أرصفتها دون أن تدهمه العربات.

إن الذين يعملون بالخارج لا يَدفعون ضرائب لمصر، ومع ذلك فهم مصريون، وهم الذين يُسبِّبون لنا الغلاء وارتفاع الأسعار وتكدُّس العربات، ألا يضعون في عينهم حصوة ملح أو خجل ويَدفعون لبلدهم، ومن أجلهم وليس من أجل القابعين فيه، خمسة وعشرين أو خمسين أو حتى مائة دولار، أجر يوم من ثلاثمائة وخمسة وستين يومًا.

ذلك كان الدافع للصديق القارئ أن يُرسل شيكه، والشيك قد وصَلني أيها الصديق، وللآن لا أعرف ماذا أفعل به ولِمَن أُرسله، ولستُ أملك أن أشن حملة قومية في جرائدنا القومية كلها بما فيها من صحف معارضة لأشن حملة من أجل أن يُساهم أبناء مصر المغتربون في بناء مصر المغتربة.

هل أجد عند أحد جوابًا؟!

الفصل السادس والعشرون

الجحيم الأرضي

لم أكن أتصور أن العلاقة بين الكاتب والقارئ شيء عميق حقيقي مغور في النفس بكل تشعُّباتها، علاقة مثلها مثل العلاقات الكبرى في حياة الإنسان، الأخوَّة أو البُنوَّة أو الصداقة، لا أريد أن أكتب هذه الكلمات التقليدية وأقول إن لقاءَ القراء أوحشني وأني لا بُدَّ قد أوحشتهم، ولكني أريد أن أتساءل: إذا لم يكن الأمر كذلك، فماذا أفسِّر هذا السيل المنهمر عليَّ طول العام الماضي يَستفسِر: أين أنا؟ ولماذا لا أكتب؟ هل هو منع أو امتناع أو مرض أو تكاسل، أو لعل المانع خير. أسئلة تُقال بصدق حقيقي وبراءة، وليس من ورائها هدف إلا الاطمئنان فعلًا، أنا الآخر كانت تزدحم الأسئلة في رأسي، تُرى ماذا حدث لهذا الخيط الذي كان يَربِطني بالكثيرين؟ ماذا جرى لهذا الصديق الذي أرسَل يَستغيث؟ وللآخر الذي حمَّلني المسئولية كاملة؟ وذلك الذي هدَّد بالانتحار؟ ماذا جرى لأصحاب الكلمات الوَدودة التي كانت تُشجِّعني بما لا طاقة لي به والأقلام الناقدة التي لا تَترُك صغيرة أو كبيرة إلا أحصَتْها وعلَّقت عليها؟

عام أو بعض عام، ولكن يُخيَّل إليَّ أنها — بحقٍّ — عشرات الأعوام قضيتُها منفيًّا في سيبيريا، خاصةً من صنع وسخرية القدر، عام وبعض عام كم تألَّمتُ، وكم صحوتُ مفزوعًا في ليالٍ كثيرة أتساءل: أين أنا من مسئوليتي وأين مسئوليتي مني؟! إنَّ الكتابة عندي، كما أنا وأني أقول: عملٌ في غاية الخطورة، لا يُمكن أبدًا أن آخذها تسليةً أو تلهيةً أو بديلًا عن حياة، إنها هي الحياة في أكثر صورها جديةً ومتعةً وصرامةً، ولا بُدَّ أن شديدًا قويًّا، وقويًّا جِدًّا، هو الذي يَحول بين الإنسان وبين أن يكتب إذا كان كاتبًا، وبينه وبين أن يقرأ إذا كان قارئًا. إن الكتابة عندي حتى ليسَت معانيَ وأحرفًا وسطورًا على ورق، معاني تَنتقِل من عقلٍ إلى عقل عبر شفرة منغمشة على هيئة حروف، الكتابة تعبير كيماوي كهربي بيولوجي حقيقي يحدث في مخ، وماديًّا ينتقل عبر حركة الأصابع إلى

الورق ليضع «برنامجًا» كالبرامج التي تُوضَع للعقل الإلكتروني؛ بحيث إذا أُدير البرنامج مرةً أخرى على هيئة قراءة واستقبَلَه المخُّ الآخر أو أمخاخ الآخرين أحدث فيها تفاعُلًا كيماويًّا مؤثرًا، ومُغيِّرًا في تفكير القارئ المُستقبِل وعواطفه وحتى حركة جسده، مؤثرًا، قد يكون أثره للحظة، وقد يكون ليومٍ، وقد يستمر طوال العمر، وحتى تَنقله «جينيات» الوراثة في أحيان إلى الأبناء والأحفاد.

حسنٌ إذن، قد يكون هناك ألف سبب لأني فعلًا كدتُ أتوقَّف حتى عن التفكير طوال هذه المدة، ولكن المؤكَّد أنها كلها أسباب «رغم أنفية»، ولو كان مبعثها المرض، وقد يَستنكِر البعض أن أُعطي كل هذه المساحة لأتحدَّث عن شيءٍ قد يبدو لأول وهلة وكأنه لا يخصُّ القارئ بقدر ما يخصُّني أنا، ولكن الحياة علَّمتني أنه في تلك العلاقة الغريبة المتشابكة، علاقة القارئين بالكاتِبين والكاتبين بالقارئين، لا يُوجد ما يُمكن أن يُسَمَّى بشيءٍ يخصُّ هذا أو ذاك، بل حتى ليسَت الكتابة والقراءة وحدهما، ولكن ما يحدث لأي مواطن ويكون فعلًا أمرًا خاصًّا هو بالضرورة أمر يُهمُّ جميع المواطنين بالضبط مثلما يهم المواطن الفرد الواحد أي شيء يحدث للوطن كله أو للمواطنين.

نحن في قارب هائل واحد، والبحر مُصطخِب هائج، والأمواج عاتية، والرباط المُشترك والمصير الواحد والعلاقة الحميمة بيننا أمرٌ يهمُّنا جميعًا ولا محيص لنا عنه.

ولقد قرأتُ مقالًا للناقد الشاب عبد الرحمن أبو عوف يَتساءل فيه عن «دلالة» صمتي، وهل أقول بهذا الصمت شيئًا من الصعب التعبير عنه بالكلام، والحقيقة هزَّني التساؤل، ليس فقط لأن مشكلة انقطاعي أصبحت مادة للنقاش العلني دائمًا لأني وقفت عند القضية المطروحة: حقيقة … هل يتكلم الإنسان بصمتِه أحيانًا، وهل صحيح أن الصمت في أحيان أبلغ من أي كلام؟

وأيضًا وجدتُ ما أؤمن به يطفو في التو ليتجسد أمامي جوابًا، أبدًا، لا يوجد في رأيي صمت بليغ وصمت غير بَليغ؛ فالصمت هو الصمت، وأبدًا لا يقول شيئًا، وإنما هو دائمًا وأبدًا يُعبِّر عن العجز، وإذا كان التعبير عن العجز بالصمت يُغتفر لعضو في مجلس إدارة ساعة عرض موضوع أو الامتناع عن التصويت في جمعية عمومية أو مجلس أمن، فهو لا يُمكن أن يُغتفَر لمواطن اعترف به المواطنون كاتبًا أو نائبًا عنهم أو متحدِّثًا باسمهم، من واجب الإنسان — أي إنسان — أن يعبر عن رأيه في كل لحظة وفي أيِّ قضية؛ فالرأي ليس مجرد كلام، الرأي هو أنا وأنت، بغيره لا وجود لي أو لك، الموت هو إنسان بلا رأي،

والقتل أن تمنع إنسانًا من إبداء رأي، والمرض أن يعجز الإنسان بسبب أو بلا سبب عن الإدلاء برأيه.

وهكذا لأن الصمت عمره ما كان بليغًا، فالكلام دائمًا أبلغ، سواء كانت براءته في قول الحقيقة أو ما يعتقد الإنسان أنه الحقيقة أو في كشف الحجاب عن إنسان يحتمي بالصمت خوفًا أو إيثارًا للسلامة أو زُهدًا عن خوض معركة يدافع فيها عن نفسه أو يوضح ويؤكد وجهة نظره. صحيح أن الكُتاب والفنانين والسياسيِّين وكل من يتصدَّى لمواجهة الحياة العامة ومشاكلها في عالَمنا الثالث كثيرًا ما يُصادر رأيهم ويُمنعون عن إبدائه منعًا، باعتبار أن وسائل قول الرأي هي ٩٩٪ من عالمنا الثالث ملكًا للحكومة أو لحزب حاكم. ولكن هنا أيضًا لا يمكن لإنسان أن يركن إلى السكوت تعبيرًا عن استنكاره واستيائه؛ فنحن نحيا في عالم غليظ الجلد لا يُلقي بالًا ولا يُهمُّه أبدًا أن يحتجَّ فلان بصمتِه أو أن يسكت ليستنكر الناس سكوته وينحون باللائحة على من هم السبب معه في هذا السكوت. نحن نحيا — سواء في عالم أول أو في عالم ثالث — في حقبة من التاريخ لا بُدَّ أن يُمسك الإنسان فيها بمقرعة من حديد أو خشب أو حتى الأرض نفسها ليرغم الآذان على سماعه، بل أحيانًا لا بُدَّ من قرع بعض الرءوس لتُنصِتَ وتتلفَّت وتُدرك أن ثمة إنسانًا يختنق برأيه، وثمة حقيقة تزأر مطالبةً بحقها في الوجود وفي الخروج.

لنقلب الصفحة إذن وقد قلبها الزمن، أو لنتأمل الصفحة مليًّا؛ فالزمن لا يقلب صفحاته، ونحن في الحقيقة لا نعيش بعدد ما يمرُّ علينا من سنين، إنما نحن نعيش بمقدار استيعابنا الأعمق والأدق والأكثر قُربًا من الحقيقة لصفحة حياتنا التي هي في الواقع صفحة واحدة، نكبر ونَنضُج وتتوالى علينا الأحقاب بمقدار ما نغوصُ فيها عمقًا، نحن نغرق في الزمن سنتي بسنتي، ونُسَمِّي كل سنتي عامًا مضى، في حين أنه ليس عامًا وليس أبدًا زمنًا ولكنه «مسافة»، مسافة تفصل بيننا وبين القانون الأزلي للأشياء، ونحن نقطعها اقترابًا من هذا القانون …

… ولنسمِّه زمنًا، ولنسمِّها مسافة، وليكن الأمر مجرَّد تغيير؛ إذ الحقيقة أننا إذا تأملنا صفحة حياتنا الواحدة من قُرب وبعمق، لوجدنا أن عالَمنا اليوم ليس هو أبدًا العالم الذي قامت فيه مثلًا الحرب العالمية الثانية أو حتى العالم الذي دخل أعماق الذرة واندفع ينهب ملايين المسافات إلى قلب الكون عبر الصواريخ ومركبات الفضاء.

إني أشفق كثيرًا على هؤلاء الذين لا يزالون يتحدثون عن فلسفة ديكارت مثلًا، أو يستشهدون بمحاورات أفلاطون، أو يُحلِّلون السائل، وكأن الصراع الطبقي لا يزال كما

اكتشفه ماركس. إنه عالم مختلف مختلف، مختلف نوعًا وكمًّا وطبيعةً كليةً حتى نختلف وسيختلف، وسوف تَتسارع علامات الاختلاف فيه بشكل تَذهل له تمامًا وفي القريب. قرأت من أيام حقيقة تقول إن «كم» المعلومات الذي حصلت عليه البشرية منذ أن وعى الإنسان إلى عام ١٩٥٢ (زمن لا يقلُّ عن عشرة آلاف عام) يُساوي «كم» المعلومات التي حصل عليها الإنسان من عام ١٩٠٠ إلى عام ١٩٥٠، وأن كم المعلومات الذي حصل عليه الإنسان عن نفسه وعن الكون من عام ١٩٥٠ إلى عام ١٩٧٥ يُساوي كم المعلومات الذي حصل عليه الإنسان من فجر التاريخ حتى عام ١٩٥٠، وإني مُقدِّر أن المعلومات التي سيَحصل عليها الإنسان من عام ١٩٨٠ إلى عام ١٩٩٠ تُساوي عشرة أضعاف الكم الذي حصل عليه من فجر التاريخ إلى عام ١٩٩٠.

والمعلومات يَحصل عليها الإنسان لتُغيِّر من نظرة الإنسان وأيضًا لتُغيِّر من حياته ومن مكوِّناته ومن إرادته وقدراته؛ ولهذا، فإذا كان العالم قد اقتَضاه الأمر أن يمرَّ عليه مئات الأعوام لينتقل من عصر القوة العضلية إلى عصر البخار إلى عصر الكهرباء، وعشرات لينتقل إلى عصر الذرة. وإذا كانت الثورة الفرنسية قد جاءت بعد آلاف الأعوام من ثورة سبارتاكوس، والثورة الاشتراكية قد أخذت زمنًا أقل بكثير ... باختصار أريد أن أقول إن الكون من حولنا يتَسارع في كافة خصاله، والبشرية أيضًا يَتسارع ما يحدث فيها من تغيير، ولهذا فعام ١٩٨٠ يجيء ليؤكد للمُتمعِّن في دراسة الظواهر أننا نخوض ثورة بشرية غريبة، لم نَستَطِع بعد أن نَستَوعِبها أو ندركها أو نُعطيَها اسمًا، ثورة ليست موجهة ضد إمبراطورية أو طبقة أو استعمار، ليست موجهة ضد أحد بعينه، وإنما يُعبِّر بها إنسان ١٩٨٠ عن نفسه ويَنفجِر بها ليفرض على الوجود والأوضاع ذاته، ولكي نُدرك هذا ما علينا إلا أن نُلقي نظرة خاطفة على ما يَحدث في قلب آسيا وفي بلدَين متجاورَين، إيران وأفغانستان، هذا البركان الرهيب الذي يتفجَّر في إيران وكأنما ليعود بالإيرانيين إلى شريعة الغاب، لا يُشبهه إلا هذا الانقضاض الوحشي من الاتحاد السوفيتي على شعب أفغانستان، أيضًا وكأنما عادت شريعة الغاب لتحكم.

ولماذا نذهب بعيدًا إلى آسيا أو قريبًا إلى لبنان، تلفت إلى ما حولك ومَن حولك، تلفَّت إلى نفسك أنت وقيمك وتفكيرك وعلاقاتك، انظر إلى أقرب الناس إليك، ألا يُمصمِص الجميع شفاههم ويقولون أعوذ بالله ... الناس تغيَّرت، الناس فعلًا جُنُّوا أو جُنِّنوا، أو أصابهم مسٌّ شيطاني قلَبَ الحياة والقيم والمعايير رأسًا على عقب.

والناس لم يُجنُّوا أو يُجنَّنوا، والمعايير لم تنقلب، كل ما في الأمر أن قوانين التغيير البشري قد تسارَعَت وتواتَرَت فجعلت التغيُّر البطيء الذي كان يستغرق عشرات الأعوام

ليَلمسه الناس ويُحسوه، ضغطَتْه القوانين المتسارعة حتى أصبح التغيُّر واضحًا وملموسًا. زمان كان التغير يحدث للآباء، ولا يدركه إلا الأبناء، وربما لا يستطيع لمسه وإدراكه سوى الأحفاد، الآن التغيير يَحدث لك أو لجارك وتُدركه في التوِّ وتضطر للتَّسليم به والتعامل معه بلا إبطاء.

وهكذا، حائرًا مذهولًا، تَرفع بصرك للسماء وتتساءل بذعر: ماذا حدث للناس؟ وهل أصابهم مس؟

إن مئات آلاف الطلبة المتمرِّدين يُطلقون العواء المخيف في إيران هم أنفسهم، فإذا الكرملين رغم عربات الفولجا السوداء مُسدلة الستار والاجتماعات «العاقلة جِدًّا» للمكاتب السياسية أو السكرتيريات المركزية، وإطلاق الرصاص الوحشي في لبنان، هو بذاته تَكتيف لابن في الحمام والاستعانة بالعَشيق لقتل أعزِّ الضنى، الجريمة التي طالعتنا وتُطالعنا بها الصحف، والتساهل الذي أُبديه وتبديه حين نسمع أن وزيرًا أو مسئولا اختلس أو سرق، هو نفسه التساؤل تواجه به تصرف حكومة، بالضبط إحدى الحكومتين المسئولتين عن سلام العالم وأمنه حين تنقضُّ بجيوشها التي من المفروض أن تُحافظ على التعايُش السِّلمي وتَحرُسه وتُدافع عنه ليُصبِح حاميها حراميها وحُرَّاس العدالة هم مختالوها.

من عشر سنوات فقط كان الأمر جريمة بشعة كبرى، وحين انقضَّت الدول الثلاث على مصر في فخ السويس، وحين زحفت الدبابات الروسية على شعب المجر، وقفت الدنيا كلها تُزمجر وترفض وتدين، ليس فقط ببيانات، وإنما بالحرب نفسها، تزمجر وتظلُّ تزمجر حتى ترغم إسرائيل وإنجلترا وفرنسا على الانسحاب، وأمريكا تُرغم أقرب الحلفاء إليها، ومئات وآلاف من مُعتنِقي الشيوعية يُطلقونها ويُدينون بغضب لافح ما قامت به الدولة الشيوعية الأم، أيامها اهتزَّ العالم استهجانًا واستنكارًا، وظلَّ يفعل حتى أوقف العدوان والمهزلة. اليوم يتكرَّر العدوان، ولكن ما أبعد الفرق بين انفعال الدنيا لأحداث السويس والمجر وانفعال دنيا الثمانين بما يحدث في أفغانستان وإيران؛ وذلك أن الحابل قد اختلط بالنابل، والشرطي تحوَّل إلى لص، واللص أمسك بصفارة يحرس بها اللصوص الأكبر من اللصوص الأصغر، والمظلوم كاد ينقلب ظالمًا، والظالم يَستعطِف مظلومًا تمامًا أو كالمظلوم …

ثورة …

فلم تَعُد قوانين الوجود تتلاءَم مع الموجودين.

ومثلما تضيق الدنيا بالموجودين وتَنتحِر البشرية تناسُلًا، تضيق أنت بحياتك ومعتقداتك ورضوخاتك وتسليماتك وتنقلب على نفسك وتهدم في أحيان ذاتك.

وكأنما الجميع يقولون علينا وعلى أعدائنا، وبما أن العدو في النهاية أنا أو كلانا، فالنتيجة عليَّ وعليَّ مرةً أخرى، فليتهدم المعبد.

البشرية تتقدم، الطلب على الطاقة يزداد، سعر البترول يرتفع، ومع ارتفاعه ترتفع أسعار بقية الخدمات والسلع، ولكي تَمضي البشرية في تقدمها — إذ لا محيص لها عن هذا الخطو المستمر إلى الأمام — يزداد الطلب على الطاقة، ويَرتفِع سعر أي شيء وكل شيء، وآخر الأسعار ارتفاعًا هو سعر الإنسان، هو الوحيد الذي كلَّما غلا الذهب في سوق الذهب تهبط قيمة الدولار الإنساني، وكلما هبطت قيمة الإنسان الدولار ارتفع الدولار الذهب ليعود الإنسان منخفضًا، وردًّا على هذا كله إليكم ثورة لا تُبقي ولا تذر، ولكي تكون الثورة أكثر عدلًا وتحقيقًا للمساواة، فلا بُدَّ من ثورة على الثورة، ثُمَّ ثورة على ثورة الثورة، وليُصلب الإنسان مرةً أخرى، ليُصلَب ممزقًا بين أسعار وجوده التي في جنون ترتفع وحقيقة هذا الوجود التي في هوس تنخفض، ليُصلَب كفرد، ليتمرد كفرد، إلى أن يتكامل العدد ويصبح التمرد تمرد ملايين، تنشأ الثورة ليعود ينصلب، صَلبًا اجتماعيًّا هذه المرة.

وهكذا، بالمقاييس القديمة، أقصد مقاييس ٧٧ و٧٨ و٧٩ الأمر باعث على التشاؤم المروع؛ إذ المسألة تبدو وكأن لا أمل البتة، وأن محيطًا من فرط عمقه أسود الظلمات، ومن فرط غضبه باسق الموجات، نحن ننزلق إليه ونغرق.

فهل معقول أن يكون الأمر هكذا؟

وهل هي النهاية تحدث بأيدينا وأمام أعيننا ولا نملك منها فكاكًا؟

بالتأكيد لا …

الحياة ها هي ذي تمضي أمامنا، وستمضي بنا، ها نحن أولاء أحيانًا وبالتأكيد سنظل أحياء ما بقينا أحياء، من أين إذن نستقي هذا الشعور المؤكَّد … إنها أبدًا ليست النهاية حتى لو كانت الصورة الظاهرية للأشياء والتحليل النظري لما يدور، تقضي علينا بالفناء، لماذا نُدرِك إدراكًا سليقيًّا يقينيًّا بصريًّا أن الأمر لا يُمكِن أن يكون كذلك أبدًا، وأننا رغم تسارع الأحداث وتكاثُف المُتراكِمات والانفجارات، فالمُحتَّم المؤكَّد وإن كانت كل العلامات تدلُّ على اقتراب الساعة، فيقينًا أنها تُمثِّل ما تَقترب أمام أعيننا نظريًّا؛ فإنها في صميمنا وأعماقنا تتباعد وتتباعَد حتى لتبدو تمامًا غير مُمكِنة الحدوث؛ ذلك أننا بقُرون استشعارنا العميقة الدفينة، لاستشعار لأبعد مدًى بكثير من السمع والبصر وإمكانيات الحساب، نُحسُّ أننا خالدون أو كالخالِدين المُخلَّدين.

أيكون السبب أن الصورة تُظلِم إذا قسنا أحداث الثمانين بمقاييس السبعين، وتزهو وتنفرج إذا قِسنا أحداث الثمانين بمقاييس الثمانين؟ أجل، من المهم تمامًا أن يدرك الناس ما يحدث اليوم بموازين اليوم، والكارثة تحدث حين ندرك ما يحدث اليوم بقوانين وقواعد الأمس.

ومقاييس الثمانين تؤكِّد لي ولك ولغالب الناس أن ما نراه ليس النهاية أو ما قبل النهاية، حقيقة هو نهاية، ولكنه نهاية تفاعل أو مرحلة أو تجربة من تجارب الوجود.

لقد حاولت البشرية أن توجد، منذ أن وُجدت بأشكال مختلفة وأشكال، حاولت الوجود بقانون الغاب أو البقاء للأصلح وفعلًا كانت رحلة لازمة وأساسية، وأثبت الإنسان أنه الأصلح للبقاء من الديناصور، واستمرَّ الإنسان موجودًا وهلك الديناصور.

ثُمَّ أصبح قانون البقاء للأصلح معوِّقًا للبقاء؛ فقد كان يقتضي شريعة الغاب، وشريعة الغاب تحتِّم أن يَعيش الآدمي متوجس الخيفة، دائم الحذر، سريع الانقضاض، خنوع الطبع، وهذه صفات كانت لازَمَت لإثبات الوجود، أمَّا لاستمرار الوجود فلا بُدَّ أن تنشأ أشكال للبقاء أكثر إنسانيةً ورُقيًّا، يتحوَّل الصراع المدمِّر إلى تنافُس شريف، وقانون القوة الغاشمة إلى القوة البانية، والهلع الحذر الذي لا يُتيح وقتًا للتفكير المستمر الهادئ المسالم الذي يُمكن للإنسان أن يبتكر لنفسه طرقًا ووسائل واختراعات تكفل له حياة أرقى وأخصب، ومنذ الحضارات الأولى وهو يبحث عن هذه الأشكال الأرقى للوجود، فكرة الوجود لجماعة وخلق قوانين تُنظِّم حياتها، فكرة العبادة نفسها والتطلع إلى مصدر يُشيع الأمن والسلام في ذات الجماعة والفرد، الأديان مرحلة ثارت وألغت مرحلة سبقَتها، مرحلة التمرُّد المدمِّر على الواقع إلى تمرد وادع خلاق، ولكن كان لا يزال عماد هذا الوجود أيضًا يرتكز على دعامة أن البقاء للقلة الأقوى … قلَّة تحتكر كل وسائل القوة وكثرة لا تملك إلا دمها ولحمها وسيلة للوجود.

ونشأت الثورات …

ولا نزال نَحيا مرحلتها.

كل ما في الأمر أنها رحلة طالت وامتدت لأنها لم تكن تُحقِّق إلا بعض ما كانت من أجله، وربما تُحقق بعض الأشياء لتحرمها من أشياء أخرى.

وهكذا وصلنا إلى نقطة تريد البشرية فيها أن تَنتهي تمامًا من فكرة الوجود المُقلق المتصارع الدموي في معظم الأحيان.

حتى لو كانت ستَسلك لتحقيق هذا وسائل حافلة بالحرب والضرب والدماء.

والأمل في هذا الصراع راجع إلى أن مُحتكِري القوى بدءوا يدركون فعلًا أنهم كذلك، وأنهم فعلًا الأكثر ذكاءً، وفي الصراع سيفقدون كل شيء لأنهم فعلًا الذين يمتلكون كل شيء.

وموقف أمريكا من ثورة إيران قد يكون بشائر الأمل؛ فهي للآن لم تضرب، بالقطع ليس مراعاةً للمبادئ الإنسانية فقط، وإنما الأرجح خوفًا من التورط الأحمق، ولكن المهم أنها لم تضرب والاحتمال الأكبر ألا تضرب.

ويقينًا أن الاتحاد السوفيتي هو الآخر، ربما بدأ قادته يدركون لأول مرة أنهم يقومون بعمل مخجل، وأن العالم ذلك الذي رفعتْهم بعض قطاعاته إلى مصافِّ القادة المقدَّسين الذين لا يُخطئون، هذا العالم يشمئز الآن مما يقترفون، وهم الآن يرون رأي العين أن العالم يستنكر ويشمئز ويمسك بأيديهم ويقول: هذه أيدٍ قذرة. والقوة الغاشمة لم تَعُد تصلح لإخضاع الأمم والشعوب في القرن العشرين.

الكبار المالكون لكل شيء بدءوا يدركون أنهم يقومون بدور الشرير في الرواية، وبداية التراجع والتغيير هو لإدراك مجرَّد الإدراك.

ولهذا فالثمانون ستأتي ليُصفَّى الموقف لصالح غير الكبار، وليس ليتأجَّج الموقف، ولا بُدَّ أن يتغير الكبار من تلقاء أنفسهم؛ إذ البديل أن يُرغموا على التغير، وفي أي الأحوال هم الخاسرون؛ فالملايين الثائرة لن تخسر سوى القيود، وما أكثرها كما يقولون.

بمقياس السبعين كان التفجُّر سيزيد ويزيد كي تحلَّ النهاية المدمرة بمنطق وإحساس، ومقاييس الثمانين لا بُدَّ أن يسود العقل والحكمة؛ إذ لا توجد نهاية أخرى.

واطمئنوا يا سكان العالم؛ فالقيامة لن تقوم إلا حين يريد لها سبحانه أن تقوم، والإرادة الإلهية لا تُناقَش.

ولكن بمنطق الإرادة الإنسانية، فمن الصعب تمامًا أن يتصوَّر الإنسان أن تَنتحِر البشرية انتحارًا جماعيًّا.

وإذا كان الخيار بين أن يَنتحِر الإنسان موتًا في حروب مدمرة، أو ينتحرون حياةً في عالم تَصعُب الحياة فيه إلى درجة الموت.

فأعتقد أن المجنون نفسه سيختار الانتحار حياة؛ إذ الحمد لله وشكرًا له أن الإنسان جُبنه أكثر من شجاعته بكثير.

وهكذا، فكالعادة، سنفُضِّل — كما ظلَلنا آلاف السنين نُفضِّل — الحياة على الموت، ولو كان كلاهما انتحارًا.

فأقبِلْ إذن يا عام الثمانين، ولا تخافون، فأحياءً سنحيا، وما دُمنا سنحيا فسترغمنا الحياة أن نحطِّم القيود، ولا ننتظر المهدي لنهتدي، وليس ضروريًّا أبدًا أن نحلَّ بالدم أو نسعد بالتفجر، فلسنا بديناصورات بغير عقل، ولا الكائن الحي قنبلة ذات شظايا من الصلب ... نحن بشر ... نحن أرقى وأرهف ما وصلَت إليه تفاعلات الكون ... الإنسان حتى بجسده وضمائره شاعر الوجود، صوته أعذب نغمات الدنيا، وحدقات عينيه أجمل من أزهى ألوان الفراشات.

وأنت يا أخي الذي هو أنا، آن لك أن تعيش، آن لك أن تقول رأيك حياةً وحركةً وفعلًا وحرفًا، آن لك أن تُلملم جراحاتك وتكبت آهاتك وتُطلق فقط معزوفاتك ...

فالدنيا، والله، رغم كل شيء، أجمل من الحزن.

والحياة أروع من مجرد البقاء.

يدك في يدي أيها الإنسان وأيها الزمن ...

نحب.

الفصل السابع والعشرون

عام جديد حل وعام قديم انقضى

وما بين العامين، بالضبط ليلة رأس السنة، أُصاب بحالة من الاكتئاب لا أستطيع لها تفسيرًا.

ليست حالة اكتئاب بسيطة عارضة، ولكنها حالة اكتئاب عميقة، تنبع حتى من أطراف أصابع أقدامي، وتَشملني كلي، وأقضي ليلة رأس السنة وكأني أعاني من قمة مأساة ولا مأساة ماكبث أو عطيل.

في هذا العام قرَّرت أن أفعل شيئًا.

في مصر مدينة غير مكتشفة اسمها أسوان، قطعًا إخواننا السياح العرب لم يَسمعوا عنها أو إن كانوا قد سمعوا لم يزوروها.

وفي رأيي أنها أعظم مدينة في إفريقيا قاطبةً وليس في مصر وحدها.

هناك تجد الطبيعة صخرية متوحشة، هذا صحيح، ولكن نهر النيل تولى عبر ملايين الملايين من السنين استئناس هذا الصخر المتوحِّش ونحتَه، وتنعيمه، بل وعمل الثقوب فيه قبل أن يخترعها المثَّال المعاصر هنري مور بمئات الآلاف من السنين.

مدينة مثالية، طبيعتها متوحشة مستأنسة، وأناسها طيبون، هؤلاء النوبيون والأسوانيون الذين يعيشون في واحة كامنة بين مصر والسودان هم أطيب المصريِّين والسودانيين على حد سواء، طيبون لأنهم يعيشون على نهر طيب اسمه النيل، زادوه استئناسًا بخزان أسوان وسد أسوان العالي، فأصبح من فرط أدبه يذوب رقة، ومن فرط ليونته يخدع الغرير؛ ففيه دوامات باطنية قال عنها الملاح النوبي أنها إذا لم يأخذ النوبي حذرَه تستطيع أن تبتلع باخرة بأكملها حتى لا يبين لها أثر. وكانت أسوان منطقة المحاجر في مصر القديمة، وفي زيارتي لقرية «سحالي» النوبية، فوجئت بأن دليلنا لزيارة القرية، حين عرَف أني فلان، رحَّب بي بشدة، وقال إنه يقرأ لي ولفلان وعلان من الكُتَّاب

المصريين والعرب، والحقيقة أني فُوجئت في هذه القرية الراقدة في حضن الجبل بعيدًا عن أي حضارة أو اتصال، إحدى القرى القليلة التي بقيَت نوبية سليمة؛ إذ لم تصلها مياه السد العالي، ولكني حين دخلت بيتَ الرجل، وهو بيت نوبي بسيط يتكوَّن من صالة واسعة رُصَّت فيها الأرائك على نظام «الدوار»، والبيت نفسه مكون من حجرة واحدة ومطبخ، والحجرة لدهشتي تحتوي على ثلاجة إيديال وتلفزيون، والأغرب من هذا أنها مكيَّفة الهواء تلقائيًّا. وسألت المهندس العظيم ميلاد حنا الذي كان يُرافقنا في هذه الزيارة عن السر في تكييف الهواء التلقائي الذي وجدتُه بالغرفة، فقال لي: إنه السقف المبني على شكل قبة فيه فتحتان، فتحة قِبلية وفتحة بحرية، وأن هذه الفتحات مع القُبة تصنع للهواء دورة بحيث يتصاعد الهواء الساخن إلى أعلى ويُغذَّى الجزء الأسفل دائمًا بهواء باردة يُخفِّف من قيظ الجبل ومن انعكاس الشمس المروِّع على صخوره.

ولكن أعظم ما صادفتُه في أسوان كان عمدة أسوان، أو بالأصح فندق آمون الكائن فوق جزيرة مستقلة اسمها جزيرة آمون، وهو فندق بسيط ولا يحتوي إلا على ٣٦ غرفة، ولكني أنصح من يريد راحة البال في هذا العالم، من يريد أن يَسترخي بحيث تتسلل من رأسه كل الأهوال والمخاوف، بحيث يتسرب إلى رأسه كل السلام والمحبة الكائنَين في العالم، وبحيث بالمرة لا يستطيع أن يمتع نظره بطبيعة أسوان الخارقة للعادة، وإنما إذا أحب أن يَزوغ نظره إلى السواح الأجانب يفدون إليها من بلاد أقصى الشمال، من ألمانيا وأسكندنافيا وفنلندا، ليستمتعوا وتستمتع أجسامهم بأشعة أسوان الخالدة التي دعَت أغاخان أن يَختار قبره على قمة جبلها ليُصيبه الخلود الأعظم، يا لهؤلاء الناس، من أقصى الأرض اكتشفوا أعظم المواقع في بلادنا، يستمتعون بطبيعتها، ونحن عنها غافلون، ونحن عنها عميان لا نراها، وربما بالمرة لا نرى أنفسنا.

ولكني لا زلت بصدد أعظم اكتشاف اكتشفته في أسوان، وهو عمدة أسوان أو مدير فندق آمون، حيث كُنَّا ننزل، إنه ليس مديرًا خريج مدارس السياحة أو حاصلًا على شهادة في الفندقة من سويسرا، إنه عمدة مصري ابن عمدة، ومن مُواطني الدقهلية، وقد جهَّز لنا أعظم إقامة على طريقة الكرم العربي الشهيرة، صوته واضح وجهير، ومعاملته للعاملين في الفندق معاملة رئيس القبيلة أو كبير العائلة، ولا يَنقُصه إلا خفير يمشي ببندقية حتى يُمنَح لقب العمدة بلا منازع.

جلست مسترخيًا أدردش مع الأستاذ فخري البطوطي مدير الفندق وأناقش معه مشروعًا كي نجعل من جزيرة آمون «جمهورية آمون» ونُعيِّنه فيها رئيسًا للجمهورية،

وجعلنا نفكر في شكل علم الجمهورية وفي نشيدها القومي وفي الحرس الجمهوري الذي سيتكون من العسكري الوحيد المخصَّص للضبط والربط في الجمهورية …

أيام مُمتعة جميلة … أجملها بلا شكٍّ ليلة رأس السنة، حين أعدَّ لنا العمدة مفاجأة العمر، وبموسيقى نوبية وعلى طبل ومزمار أسواني قلب الفندق إلى حفلة صاخبة لا نِمَر فيها ولا راقصات، وإنما الراقصون والراقصات هم الأجانب المقيمون ونحن — المصريِّين الوحيدين المقيمين في الفندق — والطباخون وموظفو الاستقبال وكل من يعمل في الجزيرة الغريبة، وهو قد ارتدى فوق بدلته الأنيقة — إذ هو أعزب ونُزَهي في ملابسه — ارتدى عباءة سوداء رائعة الأناقة، ورقَص ورقصنا جميعًا معه، نحتفل بعام جديد قادم، ونودِّع عامًا جديدًا مضى، على وقع دقات أفريقيا القوة، عربية القوام والنغمة، نوبية اللون والأصالة.

ولأول مرة في حياتي لا أُصاب بالاكتئاب ليلة رأس السنة، إذن الاكتئاب لم يكن مصدره تغير الزمان وانقلاب صفحة ومجيء صفحة.

الاكتئاب كان سببه تحجُّر الزمن وتحجُّر المكان وتحجُّر الناس.

وكل سنة وأنتم طيبون …

الفصل الثامن والعشرون

بلد تُغطيه بعقلة أصبعك!

أكثر من مرة «عبرت» هولندا، مرة قدح قهوة في مطارها كمُسافر ترانزيت، مرة مضطرًّا أن أقضي ليلة لآخذ الطائرة التي تُقلُّني إلى بلد آخر في الصباح، مرةً عابرًا إياها بالسيارة في طريقي من ألمانيا إلى إنجلترا.

وكنتُ في كل مرة أجد معالم ما يُسَمَّى بالتقدُّم وما تعوَّدنا على قياسه بالتقدُّم المادي مُضطردة ومستمرَّة، وآخر مرة كنتُ ذاهبًا إلى لندن وقطعتُ المسافة بين أمستردام ولاهاي (التي اتضح أن اسمها لاهاج، وأن حكاية لاهاي ومعاهَدات لاهاي هي من صنعنا نحن) قطعت المسافة، وهي طويلة إلى حدٍّ ما في أقل من نصف ساعة، ذلك أن الأوتوستراد المُقام بين البلدَين بل وبين أمستردام وبقية المدن الكبرى في هولندا طرق عملاقة حقًّا؛ فهي ليست مزدوجة، أي طريق للذهاب وطريق للإياب فقط، ولكن كل طريق منها مكوَّن من أربع حارات للذهاب وأربع حارات للإياب، وبينهما فاصل حدائقي مليء بالزهور والأشجار القصيرة المخضرَّة المنمَّقة، وكأنما يمر عليها «كوافير» حدائق كل ٢٤ ساعة، ليس هذا فقط، بل إن معظم هذه الطرق الكبرى كان مُضاءً من الجانبين بمصابيح الصوديوم ذات الضوء الأصفر الوهاج، حتى لتُحس كأنك تطير بسيارتك عبر مهرجان من النظام والأضواء والحدائق واللافتات التي تَحمل أسماء المدن المقتربة والقرى المقتربة والإشارات الدالة على طريق الخروج إلى هذه وتلك والانفصال عن هذا المسار المسطح الراقد الناعم (الأسفلت) إلى حد يُثير الدهشة! (يا رب طرقنا أيضًا مصنوعة من نفس الأسفلت ونفس الزلط ونفس الحجر الجيري الكثير في بلادنا القليل في بلادهم، فلماذا طرقهم مستقيمة منبسطة كلوح الزجاج لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، وإنما هي على طول الطريق كحدِّ السيف، ولماذا طرقنا وبعد أقل من شهر من إقامتها يبدأ أسفلتُها يَنشرخ ويتآكل وتظهر فيه الالتهابات والارتفاعات والانخفاضات، ولا تجد أبدًا سطح الزجاج أو

حد السيف هنا، أيكون الفارق ليس فارقًا في الخامات أو طريقة العمل، أو هناك نفس المُعدات ونفس الرجال ونفس المكن، وإنما هو الفارق بين استقامة ذِمَم المقاولين ومن يتسلَّمون الطرق منهم من رجال مصالح الطرق والكباري وبين ذمم زملائهم عندنا، أيكون هذا هو الفارق؟)

أجل، في كل مرة عبَرت هولندا كنتُ أجد مستوى الحياة فيها يَرتفع، ودائمًا في حالة ارتفاع، ومع مستوى الحياة يَرتفع مُستوى الجمال ومستوى الأزياء ومستوى الأذواق، بل حتى وأخيرًا مستوى الرياضة وعلى رأسها كرة القدم.

لقد أذهلَني كما أذهل الملايين غيري في كل أنحاء العالم هذا الأداء المُتقَن لفريق هولندا، سواء في بطولتي كرة القدم قبل الماضية وبطولة الأرجنتين، ومع أني لا أعتبر نفسي من خبراء لعبة كرة القدم أو أيَّة لعبة، إلا أنني وأي إنسان لديه إحساس عام يستطيع أن يعرف الشيء المتقَن من الرديء، ولا زلت أعتقد أن أحسن فريق في مباريات الأرجنتين كان الفريق الهولندي، وكان هو الأجدر حقيقةً بكأس العالم سواء الأسبق أم السابق …

في كل مرة كنت أتساءل: تُرى ما هو سر ذلك البلد الصغير الذي يكاد يُغطيه تمامًا أصبعي الأصغر إذا وُضع فوق خريطة أوروبا أو العالم، ذلك البلد الصغير ذي الشعب الصغير، ما سرُّه؟ ما سرُّه في الماضي وما سرُّه في الحاضر؟ في الماضي ذهبَت سفنه إلى أقصى أمكِنَة العالم بُعدًا عن هولندا، وتصوَّروا وهم هناك على طرف شمال الدنيا يستطيعون أن يحتلوا بلدًا عملاقًا كإندونيسيا من الناحية المضادة تمامًا من العالم، كي يَحتكِروا تجارة الفلفل والبهارات الشرقية ويبيعوها لأوروبا والعالم بالثمن الذي يُحدِّدونه هم. كيف استطاعوا هذا، وكيف استطاعوا بعد استقلال إندونيسيا عنهم أن يَرتفِعوا بمعدلات اقتصادهم حتى لتُصبِحَ في مستوًى ربما أعلى من إنجلترا وفرنسا بكثير، كيف؟

كان السؤال يخطر ببالي ولا أجد له إجابة شافية.

إلى أن جاءني ذات يوم شابٌّ في أواخر العشرينات من عمره وقابَلَني في مكتبي بالأهرام، وقدَّم لي نفسه على أنه المُلحَق الثقافي الهولندي بالقاهرة، وقدَّم لي نفسه باللغة العربية وبلهجة أقرب ما تكون إلى سلامة النطق واللكنة المصرية.

وحسبتُ أنها زيارة مجامَلة، ولكنها لم تكن كذلك؛ فقد كانت زيارة عمل؛ ذلك أن «مارسيل» لم يأتِ للقاهرة أصلًا لكي يَعمل مُلحَقًا ثقافيًّا، ولكنه جاء إلى القاهرة ليأخذ

الدكتوراه في «الخط الاجتماعي» في أدب كاتب هذه السطور، جاء إلى القاهرة ليَزداد معرفةً بالكاتب الذي اختاره وبالموضوع الذي انتقاه من أعمال هذا الكاتب، وبالمرة ليعمل عملًا مفيدًا لبلده ويكون مُلحَقَها الثقافي في القاهرة ما دام عمله سيكون بطبيعة الحال بين المثقَّفين والكُتَّاب ومتابعة للإنتاج الأدبي والثقافي في ذلك البلد.

جاء مارسيل إليَّ ليَطلُب مني سلسلة من اللقاءات يَعقدها معي بعد ستة أشهر مقبلة ليستكمل فيها بحثه بعد أن يكون قد وضع الخطوط الرئيسية لموضوع رسالته. والحقيقة وأنا أودعه لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير في «مارسيل» أو موضوع الرسالة، ولكن في العقلية التي كانت وراء تعيين مارسيل ملحقًا ثقافيًّا في القاهرة لفترة العامَين اللذَين ستَستغرِقهما أبحاثه «الميدانية».

قارنت بين هذا وبين طريقنا نحن في تعيين مُلحَقينا الثقافيين.

فنحن نُسَمِّي الملحَق أو المستشار الثقافي ثقافيًّا ليس لأن له علاقة من قريب أو بعيد بحقل الثقافة، ولكن لأنه سيقوم بالإشراف على الطلبة أو المبعوثين القادِمين من بلده ليَدرُسوا في ذلك البلد.

أي أنه مشرف بعثات يحلُّ «أو يُعقِّد» حسب الأحوال مشاكل المبعوثين المادية والتعليمية، ويُرسل عنهم التقارير التي قد تُنهي بعثة فلان وقد تُمدُّ بعثة فلان إلى ما شاء الله، لا علاقة له بثقافة البلد الذي جاء منها ولا البلد المعيَّن فيها؛ فهو غالبًا يُختار من بين رجال وزارة التعليم العالي أو التربية والتعليم، تمامًا مثل المُلحقين أو المستشارين الصحفيِّين الذين يُختارون من بين رجال مصلحة أو مديرية الاستعلامات ولا علاقة لهم بالصحافة من قريب أو بعيد.

هم، من بلاد العالم المتقدِّم، لا يُرسلون شخصًا مُلمًّا بثقافة بلده فقط، ولكنهم في أغلب الأحوال يرسلون شخصًا مُلمًّا إلمامًا كبيرًا بثقافة البلد الذاهب إليه، بل وفي معظم الأحيان يعرف اللغة الأصلية لهذا البلد ويعرف من هم كُتَّابه ومكانتهم الحقيقية سواء على المُستوى المحلي أو المستوى العالَمي.

ولقد اختير «مارسيل» مثلًا لتمثيل بلاده ثقافيًّا في مصر، لأنه لا بُدَّ أن يكون ترتيبه قد جاء الأول على طلبة اللغة العربية بجامعة أمستردام، أو ربما على طلبة مركز دراسات الشرق الأوسط (وفي كل جامعة من جامعات العالم الآن أصبح للغة العربية أو لدراسات الشرق الأوسط قسم يتزايد الإقبال عليه عامًا بعد عام بتزايُد وضع البلاد العربية أهميةً في خريطة العالم السياسية والاستراتيجية والاقتصادية).

ولم يأتِ لكي يبحث عن السيارة المرسيدس ليَقتنيَها أو أرخص سكن مُمكن أن يلجأ إليه ليُوفِّر أقصى مبلغ من مرتَّبه ويُضيع وقته في التجارة في حصة من السجاد المُعفاة من الجمارك، وإنما جاء ليضيع وقتُه في شيء أهم بكثير.

لم أقابل مارسيل إلا ربما ثلاث أو أربع مرات بعد هذا.

ولكن ... يا إلهي.

كم روعني هذا الشاب، وهو في كل مرة يأتي للقائي أجد أن معلوماته عن الأدب العربي سواء في تاريخه القديم أو الحديث، وعن دقائق دقائق تفاصيله ما يُذهل، بنفس كم الإتقان الذي رأيت به الفريق الهولندي يَستعمِل ساقَيه وقدمَيه وجسده، ويُعطي نفسه كلية لترقب اللعبة ثُمَّ اللعبة ثُمَّ ما يَعقبها، كان مارسيل يفعل هذا وأكثر منه ...

وفوجئتُ في ثالث مقابلة بمارسيل يعطيني نسخة من كتاب (أجل شبه كتاب) والكتاب كتاب مذهل حقًّا.

فهو يحتوي قائمة بتاريخ كل ما كتبتُه منذ أن بدأت الكتابة هاويًا في عام ١٩٤٩ وأنا طالب بكلية الطب إلى يومنا هذا، وأيضًا يَحوي قائمةً بكل مقالة كُتبت عني، ليس من الجرائد والمجلات والكتب المصرية فقط، وإنما في جميع الصحف العربية منذ عام ١٩٥٤ وهو عام صدور أول كتاب لي إلى يومنا هذا.

بل بلغ من دقته أنه اكتشَفَ لي قصة كنت قد نسيت تمامًا أني كتبتُها ولم أضمِّنها أيًّا من مجموعاتي التي صدَرت، مع أنها كُتبت عام ١٩٧٣ قبل حرب أكتوبر بسبعة أشهر ونُشرت في عدد مجلة الآداب الخاص بالقصة العربية، ونسيتُ تمامًا كلَّ شيء عنها، ولأنه كان يعرف أني نسيتها فقد وجدتُه قد أحضر لي «فوتوكوبي» للقصة كهدية، وأيضًا نسخة من الببلوجرافيا المخيفة التي حاولَت جامعات كثيرة مثل الجامعة الأمريكية أن تقوم بها ولم تَستطع أن تجمع إلا ربما ثلث أو ربع ما جمَعَه مارسيل بمفرده.

تصوَّر نفسك تذهب إلى دار الكتب يَوميًّا لتراجع جميع الصحف والمجلات وكتب النقد التي صدرت في جميع أنحاء الوطن العربي منذ عام ٥٤، أي منذ خمسة وعشرين عامًا إلى الآن، تُراجعها ليس فقط صفحة صفحة، وإنما عامودًا عامودًا؛ إذ وجدتُ أنه قد ضمَّنها بعض أخبار نُشرت عني في مجلات مثل «الكواكب» أو «الموعد»!

إنه ليس شابًّا مُخيفًا فقط، ولكن المشكلة أنه لا بُدَّ إنتاج مجتمع مخيف.

ولهذا فرحتُ تمامًا حين تلقيت الدعوة لزيارة هولندا.

فلنزر هولندا معًا.

الفصل التاسع والعشرون

البخيلان

أحيانًا يتحوَّل مكتبي في الأهرام إلى مضيَفَة كمضايف العُمَد، لا ينقصها الشاي والقهوة، وإن كان ينقصها لتُصبح مضيفة شرقاوية حقيقية، الغداء والعشاء والبيات إن أمكن، وقد تعوَّدَ ضيوفي الأعزَّاء التراكم، بمعنى أن الضيف يكون قادمًا لإنهاء عمل أو تسجيل حديث، فيأتي آخر أو آخرون أو أخريات، فتحلو القَعدة، وتبدأ المناقشات وتعارُفات؛ إذ قد كففت من زمن أن أُعرِّف أحدًا بأحدٍ؛ ذلك أن ذاكرتي ضوئية ورقمية وغير سمعية بالمرة، بمعنى أني من الصعب عليَّ تمامًا أن أتذكَّر اسمًا، ربما لإنسان عشتُ معه سنين أو كان صديقي لعمر طويل. أمَّا الشكل، فأبدًا أنا لا أنسى شكلًا رأيته أو مشهد شارع ولو كان جانبيًّا مررت به، ولهذا فالعناوين عندي ضوئية أيضًا …

وكثيرًا ما تَحدُث متناقضات في هذه القعدات، طالب من جماعات الإسلام يَشتبِك في نقاش مع طالبة مؤمنة تمامًا بأن لا أحد له حقُّ التدخل — تحت أي اسم — فيما يجب عليها أن تفعله أو تؤمن به، مناقشة، تُناقشني. أمَّا النقاد كما أقول أنا إذ هم لم يعودوا يستعملون أشياء هبلاء كالتي علَّمونا طويلًا أن نستعملها مثل «خرط القتاد» و«ثالثة الأثافي» و«القشة التي قصمت ظهر البعير»، بعير «مازدا» والآن «داتسون» المعدَّل، و«فيات ١٣٢»، والفرق بينه وبين «أودي» حيث لا قشة تقسم عامود الكردان ولا في العجلة أي ندامة، وإنما هي «تيوب لس» تُلحَم من تلقاء نفسها إذا حتى دخلها مسمار.

وأنا أحب الناس والشباب والاندماج في نقاش مُستعص، أو إثارة قضية ليس فيها علامات تعصب أو بكاء على أحوالنا التي لا تَسُر. هذا كله أهم عندي من أي قراءة، أو انفراد، وأجد فيه أحيانًا متعة كمتعة الكتابة. أحب الناس إلى درجة أني أحزن حقيقةً حين يصلني خطاب من صديق قارئ يستحلفني فيه أن أردَّ ولو بكلمة، وبعضهم يتكرم ويضع ظرفًا مكتوبًا عليه عنوانه، وملصوقًا به طابع البريد، ومعه الجملة التي أصبحت

تقليدية «مع الشكر لساعي البريد». ورغم كل هذا التمزق ألمًا، ولا أملك أن أجيب، شيء ما بيني وبين كتابة الرسائل حتى لو كانت كلمة. لي شقيق في بلد عربي لم أكتب له منذ ثلاثة أعوام؛ أُفضِّل أن أخاطبه بالتليفون، أو بالبرقية، ولا أرسل خطابًا. بعض الناس لهم طبائع مجنونة خاصة، أنا جنوني هو إرسال رسائل، وقد كان من المُمكن للأهرام أن يحلَّ المشكلة ويُعين لي سكرتيرة، ولكن الأهرام لا يفعل، ليس تقصيرًا، وإنما احترامًا لتقاليد الأهرام في هذا المجال بالذات، والتقليد بالطبع ليس من تقاليد الأهرام، ولكنه من صنعِ وابتكار أستاذنا ووالدنا الحبيب توفيق الحكيم؛ فحين أرادوا أن يُعيِّنوا له سكرتيرة أو سكرتيرًا ... احتج بشدة ورفض هذا الأمر رفضًا باتًّا، فلما عمل زميلنا وصديقنا الكبير نجيب محفوظ كاتبًا للأهرام، أيضًا عرَضوا عليه حكاية السكرتارية، وعَرفَ برفض أستاذنا وأستاذه توفيق الحكيم ... أصرَّ هو الآخر، واحد من إصراراته المبدئية أن يعين له سكرتير، بينما الأستاذ الكبير بلا سكرتير. ولقد ظللتُ أنكش من ناحيتي حين عُنيت في مسألة المبدئية هذه فلم أجد في المسألة أي مبدأ ولا شيء آخر بالمرة. في النهاية وبعد تقصٍّ هائلٍ عرفت أن الموضوع له سبب وحيد خالد، ليس المرأة بطبيعة الحال، ولكنه بخلُ الأستاذ توفيق الحكيم الذي كثيرًا ما أخذتُه على محمل الهزل، ولكن اتَّضح أن المسألة حقيقة لا هزلَ فيها؛ فهو مثلًا لا يكتب إلا بقلم رصاص من النوع المضلَّع الباهت، الرصاص المُتعب جِدًّا في إمساكه والكتابة به، وباختصار أرخص قلم رصاص بيع أو يُباع في السوق، وحين سألتُه عن سرِّ تمسُّكه بالكتابة بالقلم الرصاص قال: حتى إذا ضاعَ لا أحزن عليه.

والأقلام عادةً لا تَضيع ... إنها «تُلطَش» في الغالب، أو في النادِر ما تُؤخَذ سهوًا، وهذا القلم الأصفر الذي له أحد عشر عامًا وأنا أرى الأستاذ توفيق الحكيم يَكتُب به، ليس فقط لا يَضيع لأنَّ أحدًا لا يُمكن أن يُفكِّر في لطشِه، بل إنه ليَبلُغ من قُبحِ المنظَر لدرجة لا يُمكن معها لإنسان ما أن يأخذه سهوًا، فقُبحه كفيل بإفاقته من عملية السهو والتخلُّص منه فور انتهاء الكتابة، كما لو كان شبهة أو جريمة، وهو قلم غريب، فتصوَّروا أن له عشرة أعوام على «برية واحدة»؛ إذ اتَّضح أن الرصاص الخفيف لا يتأثَّر باحتكاكه بالورق، ولهذا فسنُّه لا يَتناقص إلا كل حين وحين، وأيضًا هذا هو أحد الأسباب الكبرى وراء اختيار الحكيم له، بل حتى لونه الأصفر له حكمه: لماذا يا أستاذ توفيق؟ لأنه لون باهت مُنفِّر في الأقلام بالذات، الألوان الغامقة في الأقلام هي التي تُغري بالسهو، أو باللطش،

الأحمر، والأسود، والأزرق. أمَّا الأصفر فإنه أحد الألوان القليلة التي تجعل الإنسان يسهو عن أن يسهو، ويأخذ القلم سهوًا.

وإذا كان توفيق الحكيم هو الذي يَملك الحضور البُخلي المسرحي، فإن نجيب محفوظ هو البخيل الذي لا يَستطيع إنس أو جن أن يَكتشفه في لحظة بُخل؛ فهو لا يخلع أبدًا ملابس التنكُّر حتى وراء الستار، وحتى بينه وبين نفسه. قال لي الأستاذ توفيق الحكيم مرةً حين سألتُه: لماذا لا يشجع ويُشيع عن نفسه حكاية البُخل هذه؟ أذكر أنه أجابني بما يدل على ذكاء شديد؛ إذ قال لي إن البخيل الذي يحاول أن يكتم أمر بخله عبيط، لأنه سيدفع الناس جميعًا لانتقاده والنَّيل منه دائمًا لبُخله. أمَّا الذي يعرف الناس عنه جميعًا أنه بخيل، فإن أحدًا لا يَذكُرُه بسوء لبُخلِه، وتتحوَّل المسألة من رذيلة مُضطَر أن يدافع عنها إلى نكتة، بل إلى ما هو أكثر، إلى حقيقة لا يُناقِشها أحد، تُوفِّر عليك متاعب الحرج من كل إنسان تصادفه، وبهذا تَبخل دون إزعاج أو استنكار، وتُزاول مُتعتك تلك علنًا وعلى رءوس الأشهاد، ودون ذرة لَوم من أحد.

وهكذا فإن طريقة نجيب محفوظ في البُخل مُتعبة له وللآخرين، فبينما حول توفيق الحكيم بخله إلى نكتة يُنمِّيها ويشجعها، فإن نجيب محفوظ على عكسه يخاف تمامًا أن يُعرَف عنه أنه بخيل، يخاف خوفًا دراميًّا حقيقيًّا يأخذه كرواياته التراجيدية مأخذًا جادًّا لا هزل فيه؛ فهو مثلًا من جلاس المقاهي، ولا بُدَّ أن يطلب لك إذا كنتَ قادمًا وهو جالس قبلك طلبًا، لا يطلب طلبًا، وإنما يُحدِّد قاطعًا عليك طريقة الاختيار قائلًا: مَضبوط ولَّا سادة؟ وهكذا تجد نفسك وقد انحصَرَ اختيارك بين القهوة والقهوة، والقهوة سِعرها معروف، قُل خمسة في المقهى وقِرشين في الأهرام، لكي يُخفي نجيب هذا البخل القهري المركَّب فيه يطلب لكل قادم طلبًا، ولكنه طوال الجلسة يتعذَّب. وأنا لم أجلس معه كثيرًا على المقاهي أو في الأهرام، ولكني كنتُ أُلاحظ أنه لا يندمج تمامًا في أيَّة مناقشة خطيرة تنشأ، أو إذا اندمج فإنه يقول رأيه بسرعة، وبأسرع من البرق يكون قد عاد إلى حالته الأولى، حالة التفكير في شيء ما يُحيِّره. فعلًا تُحسُّ أن هناك شاغلًا مستمرًّا يشغله، ولقد ظللت أسأل نفسي عن هذا الذي يشغل أخانا الأكبر نجيب محفوظ طوال الوقت، إلى أن حدثت أمامي هَنَة بسيطة كشفَت كل شيء؛ فهو قبل أن يُغادر الجلسة يحاسب الجرسون طبعًا، ومرة ذكر الجرسون ثلاثة شاي وأربعة قهوة، فإذا بالأستاذ نجيب محفوظ يُسارع بتصحيح الخطأ ويقول: «لا … أربعة شاي وثلاثة قهوة.»

دُهشت لبعض الوقت، ولكن فجأة ومَضَت الفكرة أمامي. إنَّ أي إنسان عادي نادرًا ما يذكر بالضبط عدد ونوع الطلبات التي طُلبت، خاصةً إذا كانت الجلسة صغيرة، فبقدرِ

عدد الحاضرين تكون الطلبات، أمَّا أن يتذكر إنسان أنهم كانوا أربعة شاي وليسوا ثلاثة ... وثلاثة قهوة وليسوا أربعة ... فمعنى هذا أن المسألة كانت تشغل باله طول الوقت، أيكون هذا هو السر الذي يَحول بين الأستاذ نجيب محفوظ وبين الاستطراد في اندماجه في المناقشات؟ إذ لو تجافى الأمر دقائق، لما استطاعت ذاكرته أن تعود تَقفِش عدد فناجين القهوة وتُفنِّطها على جانب حتى لا تَختلِط بعدد أكواب الشاي.

ويا له من مشهد خالد ما أراه كل خميس، حيث الموعد الذي ضبطناه على ساعة نجيب محفوظ أن يَلتقي كُتَّاب الأهرام أسبوعيًّا، مشهد توفيق الحكيم وهو يُزاول متعة البخل بكل صهللة واستمتاع، بينما بُخل نجيب محفوظ سبَّب له كل هذا الجهد النفسي الخفي لمعرفة كم عدد الشايات التي طُلبت، وكم عدد القهوات، وكم عدد المشروبات الغازية؛ ذلك أنه لو وضع سره البخيلي في بير، يتولى هو — رغم أننا نجتمع في حجرة توفيق الحكيم — طلب الطلَبات للقادمين؛ وحيث إن الحضور أحيانًا قد يصلون إلى العشرين ... فتصوَّر محنة صديقنا الكبير أبو النجب، ونحن مُنطلِقون على سجيتنا نُقهقِه ونُحلِّل ونسخر، وتوفيق الحكيم في أوج مزاولته لبخله وتدليله والطبطبة عليه، وتزيينه للناظِرين، الجميع في متعته، والوحيد الذي يَختلِس المتعة اختلاسًا حين يَنتهِز بين كل حين وحين الفرصة ليُلقي برأي سريع مركز حكيم كالزلطة المُصوَّبة بعناية إلى قطار المناقَشات، ثُمَّ بسرعة اللَّهب يعود فيُمسِك بفناجين القهوة والشاي وأعدادها — بنت الذين — التي كادت تَنتهِز الفرصة لتَختلِط أو تُفلت؛ إذ الفارق بينها مهول، فنجان القهوة بثلاثة قروش، بينما فنجان الشاي بقرشَين، كارثة لو اختلط فنجان بفنجان، ومأساة لو تعبَت ذاكرة «بدوي» الساعي واختلط أكثر من زوجين ...

في لحظة خلوة جميلة وأنا أوصل الأستاذ توفيق الحكيم إلى بيتِه بعربتي سألته: لماذا رفض — حقيقةً — حكاية السكرتيرة واستنَّ هذا التقليد الذي نُعاني منه جميعًا؟

قال لي: بصراحة بصراحة.

قلت: بصراحة بصراحة.

قال: أنا اتعقدت من مسألة السكرتيرات هذه، حين كنتُ ذات عام أو بالضبط سنة ١٩٤٢ أزور التابعي الله يرحمه في مكتبه، وحين نادى السكرتيرة ليَعهد لها بشيء لاحظ أنها تتثاءب، فسألها فقالت: أصل إمبارح كان عيد ميلادي يا أستاذ، وسهرنا شوية.

قال المرحوم التابعي: عيد ميلادك؟

– أيوة.

– ولا تقوليليش.

– مسألة ماتستهلش يا بيه.

– إزاي ما تستهلش؟

و«ضرب» يده في جيبه فوجد أن ما معه ورقتان من ذات العشرة جنيهات، وقال: دول بدل هدية مُتواضعة جِدًّا، إنما حاعوضهالك السنة الجاية إن شاء الله.

صمتُّ طويلًا، وقلت وأنا أتأمل الموقف: طيب ... وماذا في ذلك عقَّدَك؟

قال: سكرتيرة التابعي قالتها ببراءة ... دلوقتي بقى بيحتفلوا بعيد ميلادهم مرتين وثلاثة في السنة، أَندَب أنا في هدية عيد ميلاد كل سنة علشان إيه؟

– مش ضروري ... تجاهل.

– بيطلعوا أخبث، تروح جايبالي يوم عيد ميلادي كرافتَّة رجالي بجنيه، ولازم غصْب عني أردها لها.

... وهكذا من أجل ألا يُكلِّف نفسه مشقة أن يستعين ويستجير بهذه السكرتيرة أو تلك لتكتب له خطابًا على الآلة الكاتبة للناشر، وعناء الذهاب إلى البوستة، والوقوف في طابور لشراء الطابع، ومشوار آخر للصندوق، يكلِّف نفسه عناء أنه حين يود التحدث في أمر أو إلى شخص خاص، يستعير مكتب إحسان عبد القدوس، أو مصطفى بهجت بدوي، ثلاثة أرباع وقته في الأهرام، وفي غيره، مضيع في مسائل كان من الممكن أن يحلها سكرتير أو سكرتيرة، ليتفرَّغ هو إلى ما هو أخطر.

كل هذا حتى لا يُكلِّف نفسه عناء هدية في عيد ميلاد أو عيدية لسكرتير.

يُكلِّف نفسه ويُكلِّفنا كلنا هذا العناء الذي وضع تقاليده!

أعرف مسبقًا أن ألفَ خطاب احتجاج ستَجيئني على إضاعة وقت القراء في هذه الدردشة التي لا معنى لها، ولكن قبل أن يُفكر أحدكم في امتشاق قلمه وهات يا كتابة أقول لكم: وما لها الدردشة أحيانًا؟ أليسَت خيرًا من جليس السوء أو قول السوء؟ ألم يكن الرسول عليه الصلاة والسلاح يَمزح ولا يقول إلا حقًّا؟

ليست الأهرام مسجدًا، إنه جريدة؛ ولستُ إمامًا، فأنا كاتب، ومن حقكم عليَّ أن أريحكم أحيانًا من الأجزاء الجادة في كلينا.

الفصل الثلاثون

ملف: «محاورات مع المرأة المصرية»

(١) المرأة المشكلة

جرت العادة أن يُدلِّل الكُتَّاب المرأة — إلا طالب الاستشهاد منهم ذلك الذي يُعاديها — ويُدلِّلونها نفس التدليل الفاسد الذي ندلل به أطفالنا؛ فالحق معها سواء كانت محقَّة أو محقوقة. وأنا مع تدليل المرأة، حتى ذلك النوع من التدليل؛ لأنها في رأيي زهرة، زهرة الحياة بكل بهيجِ ألوانِها، والزهرة تُدللها الطبيعة بنَدى الصباح، بالفراشات الِملاح تنقل رسائل الغرام بينها، بالإنسان حين يَصنع منها باقة ويُعامِلها بأرقِّ الرقة، أنا مع تدليل المرأة، ولكني أيضًا مع شيء آخر، هو ألا تُدلَّل فقط، ولكن أن تفعل مثلما تفعل الأم الطبيعة أو الأم الإنسانة في بلاد أخرى كثيرة، وتُكسِبها بجوار الدلال «شخصية» قوية تستطيع أن تصمد بها في الحياة. إنَّ المرأة عندنا لا تبدأ تُدرِك أنَّ الحياة وَعِرة ومُخيفة إلا في السن الثلاثين أو الأربعين — وهذه سن متأخِّرة جِدًّا — والإنسان حين يَصطدِم بالحياة يلجأ في حلِّ هذا الصدام أو النجاة منه إلى ثقافته المكتسَبة، وحين تدرك المرأة عندنا الورطة التي وجدت نفسها فيها تهرع إلى ثقافتها المكتسبة، فلا تجد عندها شيئًا يَكاد يُذكَر، وحينذاك تهرع إلى ثقافتها المختزنة أو تَجري مباشرةً إلى أمها التي لا تملك هي الأخرى إلا معارف الجدة والجيران والتقاليد.

وفي الأرياف ينجح هذا الأسلوب؛ لأن المشاكل هناك أبسط، والرجل هو الآخر غير متفوِّق كثيرًا على المرأة في درايته بالحياة، بل ربما العكس هو الصحيح.

وفي الطبقات الغنية جِدًّا لا توجد مشكلة؛ لأنَّ حل المشكلة: خلاص … «نسيب بعض» و«يسيبوا» بعض فعلًا، وانتهينا؛ فالوضع المادي المرتفع يُتيح لأيٍّ من الأبوين أن يَحتضن الأولاد وينفق عليهم.

المشكلة هي في الطبقات المتوسِّطة، العاملات في المصانع، المدرِّسات، الطبيبات، الحكيمات، النساء اللاتي لا يعملْن ومن يُسمُّونهن ربات البيوت، هؤلاء غير القادرات على الانفصال وغير القادرات على البقاء، وغير القادرات على المُضيِّ في الشوط إلى نهايته.

حينذاك ترضخ المرأة، وتَنكسِر إرادتها، ومعنى انكسار إرادتها أنها تحوَّلت إلى إنسان مربوط الجناح، «يؤدي» ما عليه أداء الواجب، وتَكتسِب المرأة هذه النظرة الشجية الحزينة الغريبة التي أُسميها «طابع نظرة المرأة في شرقنا الحزين».

وأنا أقول … إذا كان الرجل يعاني من الظلم في مجتمعنا.

فالمرأة تعاني من ظلمَين في وقت واحد، الظلم الذي يعاني منه الرجل ثُمَّ الظلم الذي ينالها من الرجل المظلوم.

فلماذا تستكين المرأة المصرية لهذَين الظلمَين؟

ذلك هو السؤال الذي يؤرِّق بالي.

لماذا لا تُحقِّق إرادتها وليَكُن ما يكون؟

أهناك شيء يَبقى بعد انتزاع حرية الإنسان في اتخاذ قرار، وتحقيق ذاته؟

أم إن الخوف الذي قد تُعاني منه بعضهنَّ من الدنيا في خارج عالَمها أكثر تأثيرًا في نفسها من المذلَّة التي تُعانيها كل يوم؟

حبَّذا لو جاءتني بعض الردود المدروسة لنَستطيع أن نُناقش هذه الفكرة التي تُشكِّل عقدة العقد بالنسبة للمرأة.

كنت أقطن ذات مرة — وأنا طالب في ثانوي — في منزل قريب من المدرسة، وكان يتكوَّن من الزوج والزوجة والحماة (أم الزوج) وكانت — والحقُّ يُقال — حماةً قاسية غاية ما تكون القسوة، وكان يبدو أن أهل الزوجة بعيدون أو لم يَعُد لها أقرباء أحياء، فكانت تتحمَّل هذه القسوة بتقبُّلٍ ذليل، قد تَطفح لها ذات يوم دمعة، ولكنها تحتمل والسلام.

وذات يوم عُدت من المدرسة فوجدت المنزل مقلوبًا رأسًا على عقب؛ ذلك أن «زينب» وكان هذا هو اسم الزوجة، قد رحلت … إلى أين؟ لا أحد يدري.

وانتشر أقرباء الزوج والحماة في كل شارع واتجاه يبحثون عن زينب.

وأخيرًا وجدوا زينب في قرية في مُنتصَف الطريق إلى طنطا.

وكانت عودة ولا عودة نابليون إلى عرشه.

ومن يومها عرَفَ كلٌّ حدوده.
ولم تُصبح زينب أبدًا بعد هذا ذلك الكمَّ المهمل.
فلماذا تستكين بعضُ النساء للظلم سواء الواقع عليهنَّ من رجالهن أو من المجتمع؟
لماذا؟

(٢) ناقصات العقل والدين!

أحقًّا كان هذا قصد الرسول الكريم حين قال: «النساء ناقصات عقل ودين»؟

أبدًا لا أعتقد أن مُحَمَّدًا العظيم ﷺ كان يقصد المعنى الذي استُغلَّ به هذا الحديث أبشع استغلال.

أقول هذا وعندي من الأحاديث الشريفة ما يُثبت أن الرسول صلوات الله عليه وسلامه كان يُكنُّ للمرأة احترامًا لا يقلُّ أبدًا عن احترامه للرجل. أليس هو القائل عن عائشة رضي الله عنها هذا الحديث: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء.»

والسيدة عائشة امرأة بالطبع، فإذا كان النبي الكريم نفسه يقول خذوا نصف دينكم عن عائشة، أليس في هذا إعلان واضح لا لبس فيه عن أعظم تقدير ممكن أن يكون لكائن بشري؟ ألا يكفي هذا دليلًا على أن الإسلام كعقيدةٍ يَعترف للمرأة بحقها في الوجود وبحقِّها في المساواة التامة بالرجل، بحقها في أن تعمل، وتتعلم، وتعلم؟!

إذن فأولئك الذين يزايدون باسم الإسلام ويحكمون على المرأة بما صوَّرت لهم عقولهم الغبية الضيقة الأفق في الخرافات، لا يتحدثون باسم الإسلام أبدًا، إنما هم يتحدثون عن رأيهم هم في قضية المرأة؛ إذ إن الإسلام كدين بريء تمامًا من أيَّة إساءة أو نَيل من شأن المرأة، وإذا كان التشريع الإسلامي قد جعل للمرأة نصفَ ما يَرِثه الرجل، فهذا لحكمة اقتصادية يعرفها الجميع، وإذا كانوا في إنجلترا لا يُفرِّقون بين البنات والأولاد فقط في الميراث، بل التشريع البريطاني يجعل الطفل الأول هو الذي يرث ثروة والده ولقبه ويُحرَّم على بقية إخوته وأخواته الميراث تمامًا، ألا يُعتبر التشريع القرآني أكثر عدالةً بكثيرٍ من التشريع الوضعي البريطاني الذي يُعتَبَر أكثر التشريعات الغربية تقدُّمًا وتطوُّرًا.

إذن الحكم على المرأة كجنس بهذه التفسيرات الخاطئة، واستعمال كلمة أو حديث شريف استعمالًا لم يأخذ في اعتباره الظروف التي قيل فيها والأسباب التي أدَّت لهذا القول، كل هذا الأشياء للأسف ما كانت لتَحدُث لولا أننا مجتمع شرقي رجالي محْض، لا

تلعب المرأة فيه أي دور أو يعهد إليها أحيانًا ببعض الأدوار الثانوية لتُصبح جزءًا من الديكور العام الخادع لمجتمع يريد أن يثبت للعالم أنه متحضِّر ومتقدِّم.

ولنقرأ معًا هذه الفقرة من الخطاب الهام الذي وصلني ضمن بريد هذا الأسبوع:

> اعتبرني من «الأغلبية الصامتة» التي تحدَّثتَ عنها في أحد أبوابك، ويُهمني أن أُوضِّح لسيادتك أن صمت المرأة في مجتمعنا يكون غالبًا عن يأس، يأس من قُدرتها على تغيير وضعها وواقعها، ولذلك فالمرأة غالبًا ما تقف في الظلِّ، في جانب الأغلبية الصامتة اليائسة من التغيير، التغيير الذي أَعنيه هو تغيير فكر الرجل في مجتمعها؛ فبالرغم من النموِّ الحضاري الهائل الذي يَشهده عالمنا والذي يؤثِّر في مجتمعنا بصورة عميقة ومباشرة، هذا التغيير الذي يستتبع بالضرورة تطوُّرًا في الأنماط الفكرية السائدة كي يَجعلَها مَرِنةً ومُتجاوِبة مع روح العصر.
>
> هذا التطور يُعطي للمرأة مكانتها التي هي جديرة بها؛ فالمرأة اليوم، وفي مجتمعنا المصري بالذات، تكافح كفاحًا عظيمًا، لا أبالغ إن قلت إنه حتى المرأة الأوروبية التي سبقتنا لا تقوم بمثل ما تقوم به المرأة العاملة عندنا؛ فهي تعمل وفي نفس الوقت تحمل فوق كتفيها مسئولية أسرة كاملة، بينما الزوج يحتفظ لنفسه بحق السيادة وليس عليه إلا أن يدرَّ دخلًا للأسرة ليجلس بعد هذا مُستريح الضمير، بينما زوجته عائدة من عملها في خارج المنزل لتُقابل لدى عودتها عملًا إضافيًّا لا يقلُّ خطورةً وأهميةً عن عملها بالخارج.

هذا جزء يسير من خطاب الآنسة «هالة توكل»، والذي كنتُ أودُّ لو كانت المساحة تسمَح بنشره كاملًا.

ولقد اخترت هذه الفقرة لأنها تفتح لنا ملفَّ المشكلة «رقم ثلاثة» التي تُعاني منها المرأة المصرية والعربية، والتي أحبُّ أن أبدأها بخطاب من المغرب الأقصى من السيدة (أو الآنسة) سعدية عمري بالحي المحمَّدي بمدينة الداويات بمراكش: «فأنا أريد المرأة قوية، معتزَّة بنفسها وشخصيتها، صادقة مع ذاتها، مدركة لمسئوليتها تجاه بيتها وأولادها ومجتمعها، مُسايرة في نفس الوقت روح العصر. إنَّ ما يغيظني هو أن كثيرًا مِنَّا نحن الجنس الآخر كما يقولون لا يؤمنَّ بأنفسهنَّ وبحقهنَّ الطبيعي المقدس في أن يكنَّ كما يُرِدن، وليس أبدًا كما يريد التفكير الرجالي الضحل الأفق.»

وبهذا نكون قد بدأنا في مناقَشة المشكلة الثالثة والخطيرة جِدًّا من حياة المرأة المصرية والعربية والشرقية بوجهٍ عام؛ ألا وهي مشكلة التقاليد والمرأة، مشكلة نظرة المجتمع المتخلفة إلى المرأة، مشكلة عدم توافُق حياتنا العصرية التي نَحياها بالتقاليد التي ورثناها والتي تقيد خطواتنا إلى الأمام بقَيد حديدي لا يرحم ... ولكن هذا حديث خطير آخر نتركه للعدد القادم.

(٣) مشكلة المرأة رقم واحد

> ألستَ معي أن الحياة قسمة مشتركة بين الرجل والمرأة، وأنه من الخير لهما معًا أن يلتقيا على تفاهُم وتصالُح، وذلك لا يكون إلا إذا عرَف كل منهما موضعه من الآخر، وإلا إذا اعترف كل منهما بمكانة الآخر وحق صاحبه، وأفسح له المكان الذي يُحقِّق به وجوده ويحفظ عليه ذاته، وبهذا يُمكنه أن يُعطي للآخر أكثر؟!
>
> مهندسة زراعية
> هناء عبد السميع عيد، سوهاج

أنا لستُ معكِ فقط، ولكن هذه هي «الجنَّة»، ومثلها مثل الجنة التي وعَد بها الله سبحانه وتعالى عباده الصالحين، لا سبيل إليها إلا بكفاح عظيم يَستغرق عمر الإنسان كله في عمل الخير واجتناب الشر وعبادة الرحمن، إنها إذن نهاية النهاية، أسعد وأعظم نهاية.

ولكن المشكلة أننا لكي نصل إليها علينا أن نقطع «مشوارًا» طويلًا جِدًّا. لقد نشرتُ خطابك يا سيدتي أو آنستي المهندسة كتعبيرٍ عن رأي «الأغلبية الصامتة» التي تحدَّثت عنها في الأسبوع الماضي، كلنا، رجالًا ونساءً، نُريد ما تريدين، ولكن المعضلة هي كيف نصل.

وانتهَينا في الأسبوع الماضي أيضًا إلى أن مشكلة المرأة رقم واحد في مصر والبلاد العربية، ولنقُل اختصارًا لأشياء كثيرة في «الشرق» هي الرجل.

هناك سوء فهم كامل أو على أقل تقدير شبه كامل لفكرة «الرجل»، سواء عند نسائنا أو عند رجالنا على حد سواء.

عند الحيوانات، معظم الحيوانات، الرجل هو «الملقِّح» للأنثى فقط، تستعمله الأنثى لكي تؤدِّي وظيفتها البيولوجية الأساسية الأولى، وهي أن تحمل و«توجد» النوع لكي يستمر بقاؤه، يُلقِّحها ويَمضي باحثًا عن فريسة يَلتهِمها وحده، ليغفو قليلًا ثُمَّ ينهض ليبحث عن أنثى أخرى، وهكذا، فهذه هي وظيفته الأولى والأخيرة.

ولكن، حتى في الحيوان، توجد بعض الأنواع التي تتدرج فيها وظائف «الذكر» من مجرد «طلوقه» إلى صاحب عاطفة، يَبدأ مع الأنثى في تكوين «بيت»، بل ويبدأ يرعى هو الصغار بينما الأم تبحث لهم عن الغذاء أو العكس، توجد حيوانات لا تستطيع أن تُزاول التلقيح إلا بعد «حب» وتبادُل عواطف، بل أحيانًا تخوض معارك دموية رهيبة للحصول على الأنثى.

وكلما تدرج الحيوان في رقيِّه نمَت لديه القدرة على «الإحساس» و«العواطف». ولقد شاهدت بعينَي رأسي في البحر الأحمر عروس البحر كما يُسمونها، وهي في رأيي أرقى الحيوانات البحرية على الإطلاق، تَحتضِن بزعانفها الأمامية التي تحورت وكادت تُصبح كيدَي الإنسان تمامًا، تَحتضِن جنينها، وتصعد به فوق الماء لتستكشف الخطر ثُمَّ لتَختَفي في غمضة عين.

هذا في الحيوان.

ولقد بدأ الإنسان كالحيوان،

أو بالضبط كالحيوان المكوِّن للأسرة.

ليس فقط ملقِّحًا لاستمرار النوع،

ولكنه المسئول بحكم تكوينه الجسماني العضلي عن جلب الطعام للأبناء وللأم.

صيَّادًا أبدًا.

يصيد ليعول الأسرة.

يصيد كفرد، ثُمَّ حين أدرك أنه كفرد معرض أكثر للخطر والزوال، بدأ في تكوين مجتمعات، وبدأ ذكور الإنسان يصيدون معًا، ومنهم ومن إناثهم وأولادهم تتكون تجمعات، ثُمَّ مجتمعات، ثُمَّ قبائل.

ومن هنا بدأ الإنسان سُلم الرقي والتحضر، والرقي والتحضر يَعنيان تعقُّد العلاقات بين الذكر والأنثى والأطفال، ثُمَّ بين هذه العائلات الصغيرة والقبيلة ثُمَّ المجتمع والأمة.

ولأن الحصول على الغذاء لم يعد هو الصيد وحده …

بل أصبح للذكاء والمهارة بل وأحيانًا للدقة والضعف الجسماني مع مهارة استعمال الأيدي فاعلية في جلب الغذاء لا تقلُّ — إن لم تزد — عن القُدرات الجسمانية؛ فقد بدأت المرأة الأم تشارك في جلب القوت، وأصبح الرجل يُشارك في المهام التي كانت مَقصورة على المرأة وحدها من تربية أطفال إلى إقامة البيت.

ولكن كان كل هذا على مُستوى العائلة الصغيرة فقط.

أمَّا على مستوى العائلة الأكبر، القبيلة أو الأمة، لم يتغير الوضع كثيرًا؛ إذ ظلت القوة البدنية تحكم تصرفات المجتمع ككل، ليس فقط من أجل الإنتاج وجلب الطعام، ولكن من أجل الحرب والغزو وكبح جماح المجتمع في الداخل والتغلُّب بالقوة على الباطشين وإقرار النظام.

بمعنى أن «الحكومة» بقيَت رجالية محضة.

والوجه الأول لمشكلة الرجل في شرقنا، بل وفي الغرب أيضًا وفي كل مكان، أنه ليس مجرد رجل.

إنه أوَّلًا وأساسًا حكومة رجال.

أمَّا هو كفرد، وعلاقته بهذه الحكومة وعلاقة هذه الحكومة وهذا الفرد بالنصف الآخر للمجتمع (المرأة)؛ فتلك مسألة أخرى.

(٤) مزيد من الحرية للمرأة

السؤال إذن: هل حرية الإنسان «سواء كان رجلًا أم امرأة» ضرورية إلى هذا الحد؟ وماذا يمكن أن يحدث لو حُرم الإنسان منها؟

أجل، الحرية ضرورية جِدًّا بالنسبة، ليس فقط للإنسان، ولكن لجميع الكائنات، بما فيها حتى النبات، وأنا أذكر أني خلال قراءاتي منذ بضع سنين كنتُ أقرأ كتابًا عن بافلوف (وهو العالم الشهير الذي قلَب علم وظائف الأعضاء رأسًا على عقب)، كنت أقرأ عن تجاربه، وإذا بي أكتشف أنه اكتشف وحده معنى الحرية بالدليل العملي القاطع؛ فقد كان يُجري تجاربه على الكلاب، وكان بعض هذه الكلاب مُطلَق السراح في الحديقة وبعضها كان موضوعًا في أقفاص، وقد لاحظ «بافلوف» أن الكلاب، رغم أنها من سنٍّ واحدة، وكانت ذات وزن متقارب جِدًّا حين أُدخلت إلى العمل، لاحظ بافلوف أن الكلاب الطليقة تنمو نموًّا طبيعيًّا، وأن المحبوسة ينقص وزنها وتنحف بطريقة ليس لها من سبب أو تعليل، وأعاد بافلوف إجراء تجاربه، بوعي هذه المرة، ووضع الكلاب الطليقة في

أقفاص، بينما أطلق سراح الموضوعة في أقفاص، وأيضًا لم يكن غريبًا أن يحدث العكس ويزداد وزن الكلاب الطليقة بينما تنقص أوزان وشهيات الكلاب المحبوسة.

ولقد أطلق بافلوف على هذا العامل الذي يجعل الكلاب تَفقد شهيتها وينقص وزنها، معامل الحرية Freedom Factor.

فإذا كان هذا هو حال الحيوان، فما بالك بالإنسان الذي هو — أو هي — ليس فقط أرقى الكائنات في الكون، ولكنه أكثرها حساسيةً وإدراكًا ووعيًا، وتغيُّرًا حسب كمية الحرية المتاحة له.

إذا كان ممكنًا قياس «معامل الحرية» بالجرام والأوقية، باعتباره اكتشافًا علميًّا حقيقيًّا، ترى ماذا يحدث في الإنسان إذا أمكن قياس «معامل حريته»؟ قطعًا سنجد أن الإنسان أو الإنسانة سيَذوي بأسرع مما تذوي به القطط أو الكلاب أو القِرَدة أو أي حيوان آخر.

وإذا كان إحساس الرجل مرهَفًا، وإذا كان إحساسه ليس «كل» حياته، فما بالك بالمرأة، وهي كتلة إحساس، وهي عاطفة مُصفاة تقود حتى «العقل» نفسه بكل قدراته؟

إنني أعتقد أن مقدار التحضُّر لأي مجتمع يُقاس بكمٍّ ونوع الحرية الممنوحة للمرأة فيه.

لا تقيسي أي حضارة بمقدار ما في عاصمتها من مبانٍ وشوارع واسعة وعربات فارهة، قيسي تحضر أي مجتمع أو بدائيته بمقدار ما يمنح للمرأة من حرية.

وكثيرٌ جِدًّا من الرجال تُخيفهم كلمة «الحرية» إذا ذُكرت مقرونة بكلمة «المرأة»، ربما لأنهم يعتقدون أن «حرية» المرأة تعني تحرُّرها الجنسي وانفلاتها.

وهم يَظلمون المرأة في هذا ويَظلمون الحقيقة، ويظلمون حتى أنفسهم — باعتبار أنهم، أي الرجال، أحرارٌ بما فيه الكفاية — هل أدى هذا إلى انفلاتهم جنسيًّا أو اجتماعيًّا؟ بالعكس، إنَّ كثيرًا جِدًّا مما حققه الرجال في مجال العمل والخَلْق والابتكار يعود — فقط — ليس إلى تكوينه العقلي والجسدي، وإنما إلى الكم الهائل من الحرية الممنوحة له.

بالعكس، إنَّ حرية المرأة تعني شرفها؛ ذلك أن المرأة الحرة لا يُمكن أن تُعطيَ نفسها بالمال أو الشُّهرة أو الأبهة. إنَّ المرأة الحرة تعني أن المرأة مُتمتِّعة أيضًا بحق الاختيار؛ فهي تختار حينئذٍ إرادتها الحرة المُطلَقة، الزوج الذي ستتزوَّجه، والحبيب الذي تُحبُّه، أمَّا المرأة المغلوبة على أمرها، الحبيسة في بيت أبيها أو زوجها، فهي التي تُعطي نفسها لأيِّ طارق ولأي سبب، هي المغلوبة حقيقةً وليسَت الحرة هي المغلوبة.

والسبب مُضحِك في أن الرجل في مجتمعنا حر، والمرأة فيه — في غالبيَّته — ليست حرة، السبب اقتصادي محض؛ فالرجل يَحكم ويتحرَّر بمقدار ما يتمتَّع به مِن دخْل، وكانت المرأة في العهد الغابر تموت جوعًا أو عريًا إذا طرَدَها الأب أو الزوج من بيتها.

وللتدليل على هذا علينا أن نلاحظ ما حدث بالنسبة للمرأة حين تعلَّمَت، وحين اشتغلت، وحين أصبح لها قدر ما من الاستقلال الاقتصادي. إنها في الحال أخذت تُزاول حريتها الاقتصادية تلك، وتطالب أحيانًا بالطلاق، وترفض أحيانًا هذا العريس أو ذاك، وتَجرُؤ أن تقول لا في أحيانٍ بملء فيها …

ولكن هل هذا يكفي؟

هل الانتظار، حتى تتعلَّم كلُّ نسائنا وبناتنا ويَعملن، كافٍ لأخذهنَّ زمام المبادرة ونيل حريتهن؟

لا أعتقد أبدًا أن هذا يكفي.

فثمَّة آلاف ومئات الآلاف وملايين النساء في مجتمعنا راضيات تمامًا بهذا الوضع، وكأنما استكنَّ إلى العبودية، وأصبحت فكرة الحرية، أي فكرة أن يكنَّ مَسئولات تمامًا عن سلوكهن وتصرفاتهن، مسألة غير واردة بالمرة.

ولا يُمكن أن تنتظر المرأة التي تعلَّمت واستغلَّت هذا الإذن من الأغلبية حتى يَنلن حريتهن.

ولكن هذا حديث في «علاج» مشاكل المرأة.

ونحن بعد لم نَخلُص من إثارة كل مشاكلها؛ فقد تحدَّثنا عن الرجل باعتباره المُشكلة رقم ١ في حياة المرأة، والمرأة باعتبارها المشكلة رقم ٢، ولا تَزال الأعداد قادِمة ومثيرة.

(٥) لماذا حرية المرأة؟

ونُتابع نقاش المشكلة رقم ٢ في حياة المرأة المصرية، وهيَ المرأة المصرية نفسها، ومن المُستحسَن أن نَبدأ المناقشة بهذه النُّبذة من خطاب جاءني:

> أكتب إليك متسائلةً: هل هذه «الهُوجة» في العالم وفي مصر حول حقوق المرأة، وحرية المرأة، وحقها في العمل أو الامتناع عنه، هل تتصوَّر يا سيِّدي أن هذه

الأشياء رغم خطورتها وأهميتها، تَشغل بال المرأة العادية التي لا تريد أن تكون زعيمة سياسية أو محط أنظار الناس.

ماجدة العطار

وألتقط أنا من كل ما قالته هذه القارئة الفاضلة عنصرًا واحدًا نتحدث عنه اليوم، عنصر «حرية المرأة»، هل فعلًا الحرية ضرورية لكي تحيا المرأة؟ وكيف استطاعت جداتنا وأمهاتنا أن يَعِشن وهنَّ فعلًا أمثلة صارخة لعهد الحريم؟ كيف استطاعت نساء محرومات من أية حرية هكذا بإخراجنا نحن للحياة ناحين وناجحات رغم «انعدام» الحرية؟

والحق أن السؤال وجيه.

والإجابة عنه تقتضي أن نضع تلك المشكلة تحت ميكروسكوب يُكَبِّرها عشرات المرات كي نستطيع أن نراها؛ ذلك أنها مشكلة دقيقة وفي حاجة لانتباهٍ تامٍّ لفَحصها وتأمُّلُها، ثُمَّ الخروج بنتائج هامة من فحصها.

وأول سؤال يخطر على بالنا هو السؤال البسيط: ما هي الحرية؟

إن التعريف الوحيد للحرية في هذا المجال هو: الحق في الاختيار، بدءًا من اختيار الطعام والشراب والملبس إلى اختيار الحبيب أو الزوج، إلى اختيار التعليم ونوعه ومداه.

ذلك لأن الإنسان إذا فقد «الحق المقدس» في الاختيار، لا أقول إنه حينذاك يفقد كيانه كله ويتحوَّل إلى حيوان، ولكن انعدام الحرية في الاختيار معناه العيش بالإجبار، معناه أن يتحول الكائن الحر إلى «عبد»، له كل أخلاق العبيد وتصرُّف الجبناء، كائن ذو حياتين، حياة في العلن أمام الناس وحياة في السر، كائن من المستحيل أن ينعتق حتى لو أُتيحت له الحرية لأنَّ أغلاله الداخلية تمنعه أن يتصرَّف كالأحرار.

وهذا هو بالضبط ما كان عليه موقف جداتنا وأمهاتنا الكبار.

إنهن — وأرجو عذري في التعبير — إماء أو عبيد.

عبيد زوج باطش رهيب، ومجتمع أكثر بطشًا، وتقاليدَ دائمًا على حساب المرأة وضدها.

وهكذا رُبينا من جدات وأمهات كالعبيد.

وقد يندفع أحدهم أو إحداهن ويقول: وما له … ما احنا كويسين أهه.

وأردُّ قائلًا: أبدًا، نحن أبدًا لسنا كويسين.

إنني ما قابلتُ شابًّا مصريًّا أو عربيًّا ووجدته نتيجة بيئة أو «أم» طبيعية مائة في المائة، وإنما تجدين فيها نقطة ضعف، تَجِدينه إذا قورن بزميله في الغرب أكثر خوفًا من الحياة وأقل احترامًا، يعيش بمنطق غير الواثق بنفسه وذاته، منطق ابن أو بنت المرأة المستعبَدة.

ذلك لأن الأم التي تُصبح زوجة وأمًّا بغير اختيارها لا يُمكن أن تستطيع أن تربي أولادها على حق الاختيار؛ إذ هي لا تعرفه، ولا تدرك معانيه العميقة والمستقبلة، ولهذا تجدنا نحن وأولادنا أيضًا من بَعدنا قد رُبينا على أن المجتمع سائر هكذا، وأن علينا أن نسير بنفس الطريقة وعلى نفس النمط، وإلا اعتبرنا شُذَّاذًا؛ نتيجة مجتمع لا يؤمن بالتفرد، ولا يُمكن أن يغفر لك الخروج على حدوده، فنحن سجناء التقاليد، عبيد.

إذن، نحن حين نطالب للمرأة بحريتها، أي حقها في الاختيار، لا نطلب لها هذا وحدها، بل لكي يتحرَّر المجتمع كله ويُصبح حق اختيار الحاكم أو المسئول أو القانون حقًّا مُقدَّسًا عنده لا يستطيع أحد مهما بلغت قوته أن يقربه أو يلمسه.

ذلك أيضًا لأن المجتمع في حقيقة الأمر إنما هو وليد الأم وتقاليد الأم ونفسية ومزاج وحدود الأم، والحرية للأم ليس معناها أننا «نحلُّ» العائلة أو نعتدي على مقدساتها، وإنما نحن بهذا نُريد عائلات من نوع آخر، عائلات مبنية على فتاة تَختار بمُطلَق إرادتها فتًى تحبه ويحبها ويتزوَّجان ليُنشئا أولادًا أحرارًا مثلهما، لهم كامل ومطلق حق الاختيار؛ فالحياة لا تقبل الإرغام أبدًا، ولا يُمكن أن تغفر لمن يلوي ذراعها ليُطبِّق شريعته هو وشروطه عليها، إنها حينئذٍ تتشوَّه وتعوج، بل أحيانًا تَنحرِف تمامًا وتصبح ضد الحياة.

ولهذا فالمشكلة الثالثة أمام المرأة المصرية هي الحرية، لا تزال المرأة المصرية أَمَة، حتى لو خُيِّلَ إليها أنها حرة. إنها حرة في إنتاج الأولاد والبنات وإفناء عمرها في تربيتهم، ولكن ليتَها تُفني عمرها في تربيتهم ليُصبِحوا شُبَّانًا وشابات أحرارًا، أقوى من أي واقع وقادرين على تغيير أي واقع. إنها تربيهم لكي يصبحوا مثلها ومثل أمها، مع أن أحقابًا من الزمن تمضي، والعالم يتغيَّر، ولكن بطئنا نحن في التغيُّر والتغيير سببه مئات القيود الداخلية العميقة التي غرسَتْها فينا أمٌّ ليست تمامًا حرة أو شبه حرة أو سعيدة بعبوديتها.

(٦) الخطاب الغريب!

تصوَّرت أول الأمر أنه تساؤل وجيه يَستحِق تمامًا الوقوف عنده والرد عليه، وهذا هو التساؤل:

أحسستُ، وأحمد الله على أنه مجرد إحساس بأنك تُحاول إرضاء المرأة بالوقوف إلى جانبها، وأتمنى أن تُثبت لي عكس ذلك. إنك تتملَّقها لتكسب العديد من المناصرات والقارئات، أليس كذلك؟

وإجابتي على مرسلة الخطاب سلوى السيد المندوه، كلية العلوم جامعة المنصورة (أولى بيولوجي)، إجابتي ليست نفيًا لزعم طالبة العلوم هذه؛ فأنا فعلًا أناصر المرأة، وأعتبرها الكائن المقدَّس على ظهر الأرض، لأنها الأصل، أصل الحياة، ولسنا نحن الرجال سوى «الوسيلة» لاستمرار الحياة على سطح الأرض، وأنت يا طالبة «العلوم»، قسم «البيولوجي»، لا بُدَّ تعرفين أن الذكر في جميع أنواع الكائنات في طول المملكة الحيوانية ينتهي دوره تمامًا ولا يُصبح له أي جدوى، بل إن الطبيعة أحيانًا تقسو على هذا الذكر فيموت بمجرد تلقيح الأنثى، مثلما يحدث في النحل حين تظلُّ الملكة طائرةً إلى أعلى وأعلى حتى يلحق بها أحد الذكور الأكثر قدرة على الطيران من بين الذكور المُنطلِقين وراءها، وبعد التلقيح تنتهي حياته فعلًا ويموت، بينما تعود الملكة إلى الخلية التي كانت فيها وهي حامل لعشرات ومئات أطفال النحل؛ حيث بمولدهم تنشأ مملكة نحل جديدة كاملة، وتحدُث المعركة الشهيرة بين الملكة القديمة وبين الملكة وجيوشها الجديدة، وتحدُث عملية «الطرد» للجديدة أو القديمة لتُكوِّن الملكة ورعاياها مملكة أخرى مستقلة.

إذن أنا لا أناصر المرأة متملِّقًا أو راغبًا في كسب عطف الجنس الناعم، إنما أنا أفعل هذا لإيماني الذي لا يتزعزع بالحياة، وحُبًّا فيها ولها، والكُتَّاب يكتبون بدوافع كثيرة، بعضهم يَكتُب ليُصبح مشهورًا أو غنيًّا، وبعض آخر يكتب ليفرض على الناس آراءه. وأنا شخصيًّا أعتقد أني أكتُب مُحاوِلًا أن أسهم بجزء يسير لإضفاء بعض الجمال على هذه الحياة ولمحارَبة كل ما هو ضدَّها، لأجعل للحياة وللأحياء أهدافًا أكثر نُبلًا، فإذن أنا أكتُب لأُناصِر المرأة باعتبارها أصل الحياة، فأنا إذن أكتب في صلب القضية التي أَعتنقُها كسبب للكتابة، ولا يُهمني أبدًا أن تَستحسِن أية قارئة ما أكتب أو تُشيد به، إنما المهم تمامًا عندي هو إيصال الرسالة للقارئة والقارئ، هو أن أقوم بالدَّور الذي وهبت له كل حياتي. وقد يكون في هذا بعض الحديث عن النفس، التي أكره أن أتحدَّث عنها، ولكني فعلًا وُوجِهت بالكثير من الأصدقاء والقراء وهم يسألونني بنوع من الاستنكار كيف أكتب لمجلَّة خاصة

بالمرأة، وكنت أغضب كثيرًا لهذا التساؤل؛ فبعضهم غارق إلى آذانه في التعصب لجنسِه وبعضهم لا يحفل قليلًا أو كثيرًا بحكاية المرأة عندنا؛ فهي لا تُشكِّل — في رأيهم — أي مشكلة، والكارثة أن هذا يَصدُر أحيانًا من بعض النساء؛ فبعد السطور الأولى من تساؤل الآنسة سلوى الذي ذكرته آنفًا، وجدتها فجأة تُدلي برأي مُذهِل، أول ما يُذهل أنه صادر من فتاة، واقرءوا أوَّلًا هذه السطور التي جاءَت برسالتها:

> ولأَقُل إنه مهما حاولت الدفاع عن المرأة فهي لن تَرضى؛ فهي دائمًا تريد المزيد، إنها أنانية، منافقة، وكائن غير بشري، بعيدة كل البُعد عن الآدمية بل والإنسانية. أجل، إن المرأة كجنس ليس فيها ذرة إنسانية، إن كل شيء في المرأة لا بُدَّ له من إصلاح، وهذا لن يكون إلا بالشدة، ليس من جانب الرجل طبعًا؛ فهو الجنس الأضعف وإن كان لا يعترف أو يرضى بذلك، لا تحاول يا سيدي إثبات عكس ذلك، فالشيطان يتملَّك ذلك المخلوق البغيض الذي أكرَهُه كرهي للحياة، ذلك المخلوق، ذلك الجنس المُشبَع بالألغاز غير جدير بصفة الإنسانية أو البشرية. لا تُؤاخذني في اندفاعي؛ فأنت الذي أثَرتني بنشر خطاب «إنجي سندباد» الذي أعجبني، ولكن ما يُغضبني فيه هو الحديث عن المرأة «الإنسانة»، والرجل «الإنسان»، فلا شيء في حياتنا اسمه إنسانية بالمرة.

وليتني أستطيع أن أنشر بقية الخطاب؛ فهو فعلًا أو بالأحرى صاحبته «حالة» لا أعتقد أن كثيرًا من النساء أو القارئات يُعانين منها، ولكنها ربما تُعبر عن «حالات» ليست بالقليلة عند الرجال كجنس.

أعترف أن كثيرًا من الرجال في مجتمعنا يَعتنقون هذا الرأي ويجدون له سندًا في بعض الأحاديث النبوية الشريفة؛ ومنها ذلك الحديث الذي يقول فيه النبي صلوات الله وسلامه عليه النساء ناقصات عقل ودين. والغريب أن كثيرًا من الرجال سارعوا باتخاذ هذا الحديث الشريف كشعار يمضون به عبر البلاد وعبر التاريخ، مُسلِّطين سيفه على رقاب النساء، يشلُّون به المرأة ويهبطون بمستواها فكريًّا وإيمانيًّا ووجوديًّا. وأعتقد أن الرسول عليه الصلاة والسلام آخر ما كان يعنيه في أن يُستغَل حديثه هذا الاستغلال غير السليم المنفصل عن مناسبته.

ولكن هذا الموضوع هام جِدًّا سنبحثه في العدد القادم إن شاء الله.

(٧) البركان في الأعماق، وعلى السطح السلام

لا أعرف لماذا حدَث ما حدث، ولكنه حدث؛ فأنا ما بدأت هذا الباب لأشعلها حربًا بين الرجال والنساء، أو لأتهم المرأة وأُبرِّئ الرجل، أو لأتهم الرجل وأبرئ المرأة، أو أتحدى (بالمعنى العضلي أو الظاهر للكلمة) ضراوة النساء. يبدو أن بيننا أو على الأقل بيننا وبين عدد غير بسيط من قراء حواء سوء فهم لا أجد له تفسيرًا إلا أن هؤلاء القارئات لم يَستَوعِبن تمامًا ما أردتُ قوله.

خذنَ مثلًا هذه النماذج من الخطابات:

أُرسل لك بسبب تعصُّبي لحواء، وأحب أن أسألك من الذي زعم أن المرأة تَستسلِم لموقع مهين في المجتمع؟ فقد كرَّمها الإسلام، ولكن التي لم تفعل ما أمرها به دينها هي التي تَستسلِم لهذا الموقع المهين. أهذه هي المرأة التي تفتح النقاش حولها؟ هذه هي رسالتي الثالثة، ولكني لم أجد الرد.

فتاة، حواء امرأة، في سن المراهقة

أرسل إليك لأعرفك أن المرأة عورة عورة عورة ... فأنا أعتقد من صميم أعماقي أنني عورة، ولا يُمكن أن تغير اعتقادي.

ح. أ. ف.

أنا إنسانة ولستُ إنسانًا، ومع ذلك فأنا لا أدخل ضدك المعركة، بل أقف بجانبك وضد المرأة في مجتمعنا، نعم! إني معك، فأنا أعاني من عقد المرأة المترسِّبة في أعماقها ... أعاني من أخذها الأمور بسطحية وتفاهة برغم العلم الذي وصلَتْ إليه. إني لن أذكر اسمي الحقيقي، وأعترف أني لا أجرؤ على ذلك؛ لأن زوجي رغم حصوله على مؤهل عالٍ من الدراسة الجامعية من النوع المتزمِّت الرجعي في طباعه وعقائده، ورغم المعارك الطويلة التي خُضتها منذ أن تزوجته لأُغيِّر من طباعه وعوائده، بل وأفكار المجتمع الذي ندور فيه، وما زلتُ أُحارب وأناضل مُحاوِلةً أن أحافظ على الخيوط البسيطة التي لا تَزال تربطني بزوجي وأبنائي؛ فهم يحتاجون إلى تلك الأسرة المترابطة ولو ظاهريًّا مهما كانت مفكَّكة من

الباطن، وأعتقد أن حرصي هذا ليس جُبنًا أو ضعفًا ... بل هو تضحية من أجل المصلحة العامة لعائلتي. إن مشكلتي أني إنسانة صادقة مع نفسها كل الصدق ... إذا كرهت تصرُّفًا قُلت رأيي فيه، وإذا أعجبتني صفة في إنسانة أو إنسان ذكرتها بلا خجل. أُحبُّ أن أمارس الرياضة، وأخلق المرح من حولي في نفوس «ستات» لا يلذُّ لهن إلا النميمة، وإلا علاقات ذلك العالم السري العريض الذي يتداولن أخباره، وله كل يوم فضائحه، ومثل الجرائد عناوينه الكبرى وعناوينه الصغيرة، لا تذكر فيها حسنة لمخلوقة أو لمخلوق، وإنما الكل سواء في السوء، والبحث جارٍ عمَّن هي أسوأ، عملية قتل رهيبة لكل نظيف وجميل وصادق في النفس، أنا قرفانة قرفانة من أني أنتمي ولو ظاهريًّا إلى هؤلاء «الستات»، وأنت تريد أن تخاطب فيهن «الإنسان» ... أمامك مليون سنة إن شاء الله ...

إنجي سندباد (اسم مستعار)

أنا مختلفة معك تمامًا؛ فالمرأة نزلت ميدان العمل كالرجل تمامًا، وحصلت على كل ما يحقُّ لها مع كونها إنسانة، وحتى على ما لا يحق لها. ثُمَّ إن الأديان والشرائع لم تقرَّ للمرأة بالحقوق التي يُنادي بها البعض من مساواة، فهل نادت الأديان بخروج المرأة؟ إنَّ المرأة نفسها عورة، ولا يجب أن تخرج وسط الرجال وتتعرَّض لنظراتهم، ثُمَّ إن المرأة لا تملك القدرات التي يملكها الرجل ... فقد أثبتت الدراسات أن الرجل يتفوَّق على المرأة من ناحية القُدرة الميكانيكية والقدرة العلمية. أمَّا المرأة فتتفوَّق على الرجل من ناحية القدرة اللغوية والقدرة الأدبية ...

عزة منصور محسن
الإسكندرية

هذه بعض عينات من الكومة الكبيرة من الخطابات أمامي، التقطتها كما يَفعلون في مُسابقات التليفزيون كيفما اتفق؛ ذلك لأني قضيتُ أكثر من خمسة وعشرين يومًا أقرأ في هذه الكومة، وما قدَّمتُه هنا هو عيِّنة لا تَفترق كثيرًا جِدًّا عن بقية الخطابات، لا أنكر أن بعض الخطابات ليسَت قطعًا أدبية فقط، ولكنها ربما أحسن بكثير مما يكتبه بعض كُتَّابنا وكاتباتنا المُحترفين والمُحترفات، ولكني لستُ بسبيلي إلى استعراض إمكانات التعبير

لدى المرأة، إنما أنا أنظر إلى هذه الكومة أمامي وأتأمَّلها بدهشة وقليل من الذُّعر، فما أراه أمامي ليس خطابات، ولكنه بركان، بركان تَفجَّر، أو ربما كان من حظي أو سوء حظي أني نجحتُ في تفجيره؛ ذلك أن الخطابات ليسَت من مُعتادات الكتابة للمَجلات، وأن داخل كل خطاب رأيه، بل ورأيًا ساخنًا يتدفَّق، لا يُهم أن يكون ردًّا موضوعيًّا على ما كتبته، ولا يُهمُّ أنه لا علاقة له إطلاقًا بما قُلت؛ فكثيرات يزعمن أني أتحيَّز للرجال، وأنا لم أتحيَّز لهم، وكثيرات يَزعمن أني تحمَّست للمرأة، وأنا لا أنكر حماسي للمرأة، ولكن كلمتي لم يكن سببها ذلك الحماس فقط ... هذه الحرب الرهيبة الدائرة بين الرجل والمرأة، هذا السلام الكائن فوق السطح فقط وفي الأعماق تغلي الصدور، هذه الكومة لا يمكن أن يمر بها الإنسان مرور العابر. لقد علَّمتْني أن أُصبح دقيقًا جِدًّا في تعبيراتي وواضحًا تمامًا، ولهذا أقول إن ليس معنى هذا الرد فعلًا أن كل نساء مصر ثائرات على رجالهن أو العكس، ولكن معناه أن نساءً كثيرات يَعِشن في أزمة ورجالًا كثيرين يَعيشون في أزمة، وأن هناك سببًا ما يُثير التعاسة في بيوت ونفوس كثيرة، ومن أجل هذا بدأت هذا الباب ...

فهناك أسباب خاصة لكل حالة، هذا صحيح.

ولكن لا بُدَّ أن هناك أسبابًا عامة من الممكن، ليس فقط مناقشتها، بل وحلها، ولهذا طالبت في نهاية كلمتي الأخيرة في هذا المكان منذ أسبوعين أن نفتح ملف المرأة المصرية.

ولكني من خلال هذه الكومة، ومن خلال تأمُّل أعمق للمشكلة، وجدتُ أن الملف ليس ملف المرأة فقط، ولكنه ملف ذلك الكائن المزدوَج ذي العلاقة المتشابكة المزدوجة ... ملف «المرأة-الرجل».

وإذا كنت هذه المرة أفتح الصفحة الأولى لهذا الملف.

فإنما أردتُ بالعيِّنات من الخطابات أن أرى أن ليس هناك في مجتمع النساء، واسمحوا لي أن أقول أيضًا ليس هناك في مجتمع الرجال، بل ليس في مجتمعنا كله أيُّ حدٍّ أدنى من الاتفاق حول مفهوم العلاقة بين المرأة والرجل.

إنها علاقات تنشأ كيفما اتَّفق، ويتَّفتق عنها أبناء وبنات كيفما اتفق، حتى بين المتعلمين والمتعلِّمات والمثقَّفين والمثقَّفات ... لا اتفاق حول مفهوم واحد ... مجرَّد مفهوم واحد.

هل المرأة ندٌّ؟

هل المرأة عورة؟

هل المرأة جارية؟
هل المرأة هي الأحقُّ بالسيادة؟
هل نُحاول أن نُغيِّر من أنفسنا ليُغيِّر الله سبحانه وتعالى مِنَّا؟
أم تبقى تلك الحرب الضروس دائرة في الخفاء، مسالمة تمامًا فوق السطح؟

(٨) الأغلبية الصامتة

أُبادر فأعتذر لقارئات وقراء «حواء» عن انقطاع كتابتي لهذا الباب طوال الفترة الماضية؛ ذلك أني كنت في أعظم وأكرم رحلة يقوم بها الإنسان، وأرجو أن يغفر لي الله سبحانه ذنوبي، وأن تغفر لي قارئاتي انقطاع الحوار الخطير الممتع — على الأقل بالنسبة لي شخصيًّا — ذلك الذي كان دائرًا بيننا.

وبعد …

كُنَّا قد وصلنا إلى مرحلة فتح «ملف» المرأة المصرية والعربية، وفتح الملف يعني أن نبدأ نُناقش إلى أعمق الأعماق، ودون حرج من أية تأثيرات أو قوى، ما هي بالضبط المشكلات الأساسية للمرأة عندنا، وبمناقشة المشكلات نستطيع أن ننفض عنها — أقصد المرأة — كل العوائق والأتربة التي تَحولُ دون وجود أو ظهور نفسها الحقيقية كإنسانة أعمق وأقوى إنسانيةً من الإنسان الرجل … هكذا أعتقد، قد يَثور عليَّ رجال كثيرون معتقدين أني أنافق المرأة أو أتملَّقها، ولكن لو علموا الحقيقة، لو علموا أني أتكلم بلغة العلم الصرف، أو بالأحرى بلغة الحقيقة الموضوعية المجرَّدة، لغيَّروا رأيهم. إني أؤمن أن الحياة امرأة، وأن دور الرجل منذ أن كان حيوانًا منويًّا هو «المساعد» على إبقاء جذوة خلق واستمرار ووجود الحياة المتمثِّلة في المرأة.

ومن هذه الحقيقة البدائية البسيطة ينبني كل ما يتراكم فوقها من مكوِّنات نفسية وأوضاع وصراعات وظلم وتعسف وهوان.

ولقد بدأت هذا الباب بهدف، لا أبالغ وأقول إنه الوصول إلى هذه الحقيقة وإقناع المرأة أوَّلًا ثُمَّ الرجل بها … ولكن على الأقل إلقاء أضواء قوية تُنير وتكشف عن أركان كثيرة مظلمة في تلك المعادلة البالغة التعقيد، معادلة «المرأة-الرجل».

إنه باب أُحاول أن أقوم فيه بدور الدليل الذكي — أو الذي أرجو أن يكون ذكيًّا — دليل المرأة إلى المرأة، ودليل الرجل إلى المرأة، ودليل المرأة إلى الرجل، ودليلهما معًا إلى حياة أكثر رحابةً وعدالةً وإنسانيةً وصدقًا.

وكان لا بُدَّ لي أن أقوم بدور هذا الدليل، لا بُدَّ لي من دليل أنا أوَّلًا، أمَّا دليلي إلى الرجل فأنا أعرفه تمامًا؛ ذلك أني رجل. أمَّا دليلي إلى المرأة فهو الذي حيَّرني وحيرني طويلًا وكثيرًا؛ ذلك أني من الكُتَّاب الذين وَهَبوا الجزء الأكبر من حياتهم بحثًا عن المرأة منذ أن كنتُ طفلًا صغيرًا قُضيَ عليه أن يعيش بعيدًا عن عائلته، وبالذات عن أمه، ومن رحمة الله بالبشر أن أودَعَ في الطفل غريزة الالتصاق بأمه، وأودَعَ في الأم غريزة احتضان الابن؛ فالأم هي دليل الطفل إلى الناس، من خلالها يعرف الآخرين، ومن خلالها بالذات يعرف المرأة، فإذا حُرم من هذا الدليل ضاع أو كاد، وقضى وقتًا طويلًا جِدًّا من عمره يتلمس طريقه إلى المجتمع وإلى الناس وبالذات إلى المرأة.

إذن المسألة من ناحيتي خطيرة للغاية، ليس فقط أن أتعلم من المرأة ولكن، وهذا هو الأهم، أن — أعلم أيضًا — المرأة طريقها إلى الطفل، وبالذات لو كان رجلًا، فأتعس الأطفال هم الأطفال الرجال، وخبرة الرجل الحقيقية تأتي من رجل لم ينشأ ليجد البساط سهلًا وناعمًا كالحرير ولا مشكلة عنده إطلاقًا في علاقة، أيَّة علاقة، يُقيمها مع المرأة، أية امرأة.

ولأني كذلك، فقد كانت الطريقة المثلى للوصول إلى المعرفة الحقيقية لأفكار وعواطف وأعماق المرأة المصرية والعربية هي إتاحة الفرصة لها أوَّلًا لتعبر عن نفسها وتقول رأيها، ثُمَّ نبدأ النقاش.

وبدأ النقاش، ونشرتُ هنا نماذج محدودة جِدًّا لآراء كثيرة غير مَحدودة.

ولكنَّ هناك خطابًا هامًّا جدًّا لم أنشره بعد.

ذلك لأنني لم أتلقَّه.

ولن أتلقاه.

فالخطاب من الأغلبية الصامتة، سواء من السيدات أو الرجال.

أولئك الذين يَسمعون ويقرءون وتتكوَّن لديهم آراء في كل شيء.

ولكنهم لا يُعبِّرون عن هذه الآراء، يؤثرون الصمت، إمَّا لعدم اكتراثهم حتى بإبداء الآراء، وإمَّا ليأسهم من أن يَستمع لهم أو يَحفل برأيهم أحد، وإمَّا لأسباب أخرى كثيرة؛ إذ إنهم كما قلتُ الأغلبية العظمى الصامتة التي لا تتكلَّم أو تكتب حتى لتفسِّر هذا الصمت المطبق.

ولكني مع هذه الأغلبية أَستعمِل سليقة الكاتب وموهبته.

إذ خاصية الكاتب الأولى أن «يُحس» الآخرين، حتى ولو لم يفهمهم أو استعصى عليه الفهم.

وإحساسي بهذه الأغلبية.
بل ما خرجت به من معظم من جَرُؤن وتحمَّسْن لقول أو كتابة رأيهن.
وأول صفحة في ملف المرأة المصرية والعربية.
مكتوبٌ عليها بالخط العريض الأحمر: الرجل.
أجل، أول مشكلة للمرأة عندنا هي: الرجل.

(٩) هناك هدف

أنا مُدرِّسة ... طول عمري مُدرِّسة، وقد بدأت مُدرِّسة حضانة، وها أنا ذي مدرِّسة ثانوي أولى في مادة «...»، ولقد أخذت كتابتك إلى المرأة ومحاوَلة استدراجها للحوار وللبوح عن كامن سرِّها مأخذًا — واعذرني في هذا — ليس بمثل الجدية التي كنتُ أتوقعها منك، ولكن بمضيِّ الوقت، ومُضي الموضوعات التي طرقتها، اتَّضح لي أنه باب من أخطر الأبواب، ليس الذي سيجيئك منه الريح، ولكن — فيما أعتقد — سيُغيِّر من تفكير المرأة جذريًّا عن نفسها ... وإليك أسبابي ...

وأنا مع احترامي الكامل للأسباب التي أوردَتْها السيدة المُدرِّسة لا أستطيع أن أوردها هنا؛ ففيها كثيرٌ مما يمسُّ شخصي من صفات في رأيي أنا لا أستحقها، ولكني أنتهز هذه الفرصة لأقول لماذا وقع اختياري على هذا الخطاب بالذات لأنشر هذا المقتطف منه؟ الواقع أن سبب هذا أن جزءًا ليس بالقليل من الخطاب خصَّصته السيدة الفاضلة للحديث عن الأولاد والبنات المصريين، خاصةً بعدما يتعدُّون مرحلة الابتدائية وتبدأ تتكون — أو تظهر — شخصياتهم الحقيقية؛ إذ هنا وجدت الهدوء يُغادر قلم السيدة الأستاذة وتنهال في أسلوب شديد الصدق من ناحية ولكنه شديد القسوة من ناحية أخرى، منتهيةً إلى أن العائلة المصرية بأبيها وأمها هي أسوأ منبع أو معمل لصناعة الأجيال الجديدة؛ فالعائلة المصرية تحيا بلا نظام، وتُعلِّم أولادها الفوضى، وتحيا بلا تخطيط، وتعلم أولادها التلقائية الشديدة التي تبلغ حد البلَه، ويكتشف الولد أو البنت أن الكذب عند أمه وأبيه هو أسهل الأشياء، وأن كُلًّا منهما يتعامل — حتى مع أولاده — تعامُلًا من وراء الآخر، بمعنى لا شيء هناك مقدَّس، لا كلمة الأم ولا كلمة الأب، خاصةً في السنين الأخيرة، وأن الأغلبية الغالبة من الآباء يَترُكون عاتق التربية على الأم، والأم بدورها باعتبارها قد تزوَّجت قبل

أن يعلمها أحد معنى أن تتعلَّم أو تُدرك دور الأم في ناحية عاجزة عن القيام بدور الأم، مفضِّلةً القيام بدور الزوجة أو المُدردِشة في التليفون أو المتحدثة عن آخر صيحات المودة، ونصائحها لأولادها من قبيل نصائح وزارة التربية والتعليم التي كانت تُطبع على آخر الكراريس التي كانت تُوزِّعها الوزارة وليست مبنية على دراسة عميقة لشخصية كل بنت وكل ولد.

وأنا لا اعتراض لي إطلاقًا على كل ما قالته السيدة الفاضلة، اعتراضي الوحيد أنها متحاملة أكثر مما يجب؛ فالآباء والأمهات معظمهم هكذا في العالم، وبالعكس، قد أكون معها في كثيرٍ جِدًّا من الأشياء التي قالتها.

بل — وهذا هو المُضحِك — لقد بدأت هذا الباب وليس في ظني الرجل أو المرأة أو خلق حوار بينهما؛ فالحوار الحقيقي بين الرجل والمرأة هم الأطفال نتيجة هذه العلاقة، وهذا هو الحوار الذي كنتُ أقصده، وهذا هو الحوار الذي كنت أرجو أن أخرج منه باستنتاجات وتصحيحات وقواعد معينة؛ بحيث لو انصلح الحوار في النهاية انصلح طرفا الحوار، فنحن هنا لا نريد أن يكون الباب باب «كلام»، ولكنه باب يؤدي إلى «فعل» وإلى «تغيير»، وإلا لأصبح كلامًا فارغًا.

وإذا لم يكن الفعل والتغيير هدفهما هو هؤلاء الأبرياء التُّعساء الذين نأتي بهم إلى الدنيا، ففيم يكون الفعل، وما هو هدف التغيير أي تغيير؟!

الفصل الحادي والثلاثون

ملف خاص عن محاولة اغتيال كاتب لأنه كتَب «البحث عن السادات»

أعتقد أن القراء لهم يَذكرون الحملة الضارية التي قامت ضدِّي حين كتبت المقالات السبع تحت عنوان «البحث عن السادات»، تلك الحملة التي بدأت بكذبة دنيئة من أنني قلت عن حرب أكتوبر في ذلك الكتاب أنها كانت تمثيلية متَّفقٌ عليها، والتي انتهت حين وقف السيد رئيس الجمهورية يُهاجمني في خطبة أول مايو ٨٣ المشهورة، وقد آثرتُ أن أُضمِّن هذا الكتاب بعض الوثائق الخاصة بهذا الموضوع، ليس دفاعًا عن النفس، وإنما مجرَّد إثبات لأحداث وقعت، ومؤامرة تمَّت ضدي، وبنجاح شديد.

وقد آثرتُ إكمالًا للتوثيق أن أُورد هنا مقالتين كتبهما الأستاذ الكبير فتحي رضوان عن هذا الموضوع، وأيضًا مقالة للكاتب الوطني الفذ الأستاذ جلال أحمد أمين، لا لشيء لأنهما كادا أن يكونا الصَّوتَين الوحيدين اللذَين ارتفعا في ذلك الموقف الخطير المُلتهِب الذي اشتغل ضدي.

وإذا كان لي من تعليق صغير أُضيفه هنا، فإني أؤكِّد أن ما حدث من وزير الثقافة وعدوانه الصارخ على شخصي ووظيفتي، وردود الأفعال الثقافية والشعبية الهائلة، كانت في حقيقة أمرها ردًّا لاعتباري قبل الهجوم الغادر الذي شُنَّ عليَّ قبلها بعام، والذي نجح في الإيقاع بيني وبين الرئاسة في مصر، بل وكاد أن ينجح في الإيقاع بيني وبين قواتنا المسلحة البطلة.

إنها حقائق ووقائع للتاريخ ليس إلا، ولا أملك معها إلا أن أقول: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ صدق الله العظيم.

(١) ما الذي حدث؟

يوسف إدريس في مقال مفتوح للنائب العام والمدعي الاشتراكي: أطلب التحقيق معي في «البحث عن السادات».

صادَرَت مباحث أمن الدولة خلال الأسبوعين الماضيين كتاب «البحث عن السادات» لعميد كُتَّاب القصة القصيرة العرب، د. يوسف إدريس.

وتنفرد «الأهالي» في هذا العدد بنشر المقدمة التي كتبها د. يوسف إدريس خصِّيصًا للكتاب، الذي كان في الأصل مقالات نُشرت في جريدة القبس الكويتية، وفيما استعرض الكاتب، ظروف كتابته لتلك المقالات، وتناول بالتحليل اتجاهات الحملة التي شُنَّت في الصحف الحكومية على الكتاب ومؤلِّفه، والتي بلغت ذروتها بالهجوم المباشر الذي شنَّه الرئيس مبارك على الكاتب والكتاب، فيما اعتبره د. يوسف محاوَلة لاغتياله، دفعته لجمْع المقالات في كتاب يكون نشَره مقدمة للمطالبة بمحاكمة كل الذين حرَّضوا على اغتيال سُمعتِه دفاعًا عن السادات. والأهالي وهي تَنشُر هذه المقدمة تضمُّ صوتها لكل الأصوات التي أزعجها قرار مصادرة كتاب يوسف إدريس، باعتباره انتهاكًا بشعًا لحقِّ كاتب من أبرز الكُتَّاب في تاريخ الأدب العرب كله في أن يقرأه الناس، بعد أن قرءوا الهجوم عليه والتنديد به، باعتباره انتهاكًا لحرية الرأي والفكر، وإهانةً لكاتب لا يُشكِّك أحد في تاريخه.

جمعتُ المقالات في كتاب لأُطالب بمحاسبة كل الذين تآمَروا لاغتيالي.

صحفيُّو وكُتَّاب السادات لا يزالون يحتلون الساحة الصحفية والسياسية.

البحث عن الحقيقة.

ما هذا الذي حدث؟

وكيف حدث؟

ولماذا حدث؟

أسئلة كان من الصَّعب تمامًا أن يُجيب عليها الإنسان وسط زوبعة الرمال والتراب وعواء القطط والكلاب وفرقعات مسدَّسات الأطفال وقنابل الصوت التي كانت تحفل بها الساحة، والذي تفجر فجأةً في أوائل أبريل الماضي إثر نشر إعلان، مجرد إعلان، عن مقالات سبع ستَنشرها لي جريدة القبس الكويتية وتنقلها عنها بعض جرائد الخليج والأردن، فحتى ذلك الوقت كانت الساحة السياسية هادئة أو شبه هادئة، وكان الشد والجذب يدور

حول حتمية «التغيير» وضرورته، ذلك الذي تُطالب به المعارضة، وعدم ضرورة التغيير الفوري وخطورته، ذلك الذي تراه السلطة وبالذات قيادة الحزب الوطني الحاكم.

موسكو تضغط على الزر

وكأنه كان غريبًا أن تظهر مقالاتي في نفس ذلك الوقت.

فأنا لستُ طرفًا في اللعبة السياسية الدائرة منذ حادث المنصة حول السادات، أو هكذا بدَوتُ، وأنا أطلع فجأة على القراء برأي خطير في أنور السادات، مسألة قيل في تأويلها كل ما يمكن أن يَخطر على بال إنسان موتور أو حتى حسن النية، غير أن أحدًا لم يتوقَّف للحظة ويتساءل عن الحقيقة، ولماذا بدا أني خرجتُ على الناس فجأة برأي في السادات وكأنني قد اتفقتُ مع الأستاذ هيكل ومع الصُّحف العربية التي نشرت كتابه ومقالاتي في «مؤامرة!» للنَّيل من الرئيس الراحل «معًا» وفي وقت واحد.

ولو كُنَّا في ظروف عادية، ولو لم يملأ الصغار والمُسترزِقون، الصحفيون من عهد السادات وإلى الآن، الجوَّ بالغبار والرمال وقذائف الطين، لأمكننا جميعًا أن نرى الحقيقة بنفس البساطة التي تمَّت بها، ولما احتاج أحد جهابذة كُتَّاب جريدة الأخبار لأن يقول: إنَّ موسكو ضغطت على زر ليكتب هيكل وإدريس وغيرهما ضد الساداتية في ذلك الوقت بالذات، الذي تستعد فيه مصر للاحتفال بعودة سيناء (٢٥ أبريل) وتدور مفاوضات «كامب ديفيدية» أخرى مع لبنان!

وفي الجانب الذي يخصُّني، سأُورد هنا، ولأول مرة، حقيقة أفكاري ومشاعري تلك التي انتهَت بنشر المقالات السبع.

نقطة التحول

والبداية الحقيقية كانت في أوائل يونيو عام ١٩٨٢، حين اجتاحَت جيوش إسرائيل لبنان تضرب وتذبح وتُنكِّل وتَحرِق وتَنسِف وتَقتُل المدنيين والعسكريين، الأطفال والنساء والشيوخ، ويتوَّج الأمر بمذابح صبرا وشاتيلا في النهاية.

كان غزو لبنان نقطة تحول كبرى في تفكيري.

ذلك أني كنت أعتقد أن الضرر الذي حدث من كامب ديفيد، كان مقصورًا إلى ذلك الحين على عزل مصر عن شقيقاتها العربيات، وربط مصر ربطًا مُحكَمًا بالاستراتيجية الأمريكية الإسرائيلية للسيطرة على المنطقة.

ولكن غزو لبنان أكَّد لي الشعور بأن كامب ديفيد لم تكن إلا البداية الحقيقية لفترة طويلة قادمة هي فترة السيادة الإسرائيلية المدعومة والمسنودة تمامًا من الولايات المتحدة الأمريكية.

وتصادَفَ أني كنت قد انتهيت من قراءة الجزء الأول من مذكرات كيسنجر، وأيضًا مذكرات الرئيس الأمريكي السابق كارتر، وبدأت تُنشر في خريف عام ٨٢ أيضًا مذكرات محمد إبراهيم كامل وزير الخارجية إبان مفاوضات كامب ديفيد.

ويقول يوسف إدريس إنه تابع قراءة تلك المذكرات التي نشرَتْها جريدة «الشرق الأوسط» السعودية، ثُمَّ يواصل:

وحين انتهى نشر المذكِّرات، وجدتُ أني قد بدأ يتكون لي رأي خطير فيما فعله السادات في كامب ديفيد، وفيما فعلته كامب ديفيد في السياسة المصرية والعربية. وكما ذكرت بدأت أكتب هذا الرأي لنفسي، ثُمَّ بدأت أجد أن رأيي هذا يَستلزم الرجوع إلى شخصية السادات ودوره في الثورة المصرية وشخصيته، والخطة التي بناها كيسنجر ومرتكزها الأساسي تلك الشخصية الساداتية الفريدة.

كتبتُ الآراء على هيئة خمس مقالات، كان موقفي فيها هو امتداد لما كتبتُه عشية الغزو الإسرائيلي للبنان، باعتبار أنه جزء من الخطة الكبرى المرسومة للمنطقة والتي أدخل السادات نفسه فيها عن إرادة ووعي، لا ليستغلَّها هو لمصلحة مصر، وإنما لكي تستغله هي — أي الخطة — لمصلحة أمريكا وإسرائيل.

وحين تسرَّب خبر كتابتي للمقالات في حوالي فبراير ١٩٨٣، إلى الجرائد الكويتية، تلقَّيتُ عرضًا من جريدة القبس عن طريق مدير مكتبها في القاهرة لنشر المقالات في الجريدة المذكورة والحصول على حقِّ نَشرها في كل المشرق العربي.

النشر في الخارج ... لماذا؟

ووافقت ...

فمسألة نشرها في مصر كانت غير واردة بالمرَّة؛ لأسباب كثيرة لا يخفى على القارئ معظمها، ولكن أهمها في رأيي أن الرأي العام في مصر يكاد يكون مُحاصَرًا؛ بحيث إن كثيرًا جِدًّا مما يُهِمُّ الرأي العام المصري الوقوف عليه لا يُنشَر في مصر؛ بحيث أصبح الرأي العام المصري يكاد يكون محليًّا مُنكفئًا على نفسه، ومحظور أن يُنشَر في جرائده الكبرى

الحكومية ما يمكن أن يُعتبَر رأيًا علميًّا عميقًا يُناقش الفترة الساداتية أو حتى الفترة الناصرية.

وللآن لا يزال الاقتراب الجاد الخطير، والتقييم العلمي، وبالضبط كنه ثورة ٢٣ يوليو ومسائل كبرى كالعُدوان الثلاثي أو التدخل في اليمن أو هزيمة ٧٦ أو ثغرة الدفرسوار، أو حقيقة الدوران للخلف الذي حدث عام ١٩٧١.

كل تلك المواضيع الكبرى في حياتنا لا تزال لم تُناقَش بعد، وأبدًا ليس من مُنطلَق ترك واقعنا الحالي أو تطلعنا إلى المستقبل، والعودة إلى الماضي نتفحص «ونغلي» فيه كاليهودي الذي أفلس، لا، وإنما لكي نحدِّد حركتنا إلى المستقبل تحديدًا واضحًا وصحيحًا، فلا بُدَّ أن نعرف أين نضع أقدامنا الآن، ولكي نَعرف موقع أقدامنا الحاضرة فلا بُدَّ أن نعرف تاريخ ذلك الموقع وكيف كان وجاء.

ثُمَّ يواصل قائلًا:

وما كتبتُ مقالاتي عقب الغزو الإسرائيلي للبنان إلا مُحذِّرًا من «الخطة العظمى» وراء هذا الغزو، ومن مُؤامرة تقسيم لبنان إلى دويلات عرقية ودينية، دويلات تُبرِّر وجود إسرائيل كدولة عرقية دينية، وفي نفس الوقت تكون من الضعف بحيث تُتيح لإسرائيل السيطرة الكاملة على تلك الدويلات.

وحين قرأتُ مذكِّرات محمد إبراهيم كامل، وجدت أن مصر قد أُضيرت ضررًا هائلًا بمبادرة السلام وباتفاقيات كامب ديفيد، وأن كُنْهَ هذا الضرر وأبعاده شيء لا يُمكن معرفته إلا بالرجوع إلى مذكِّرات الرجل الذي شهد تلك المفاوضات من داخل المعسكر الساداتي نفسه.

بين نارين

وقد وجدتُ نفسي، قبل أن أكتب تعليقي على مذكرات إبراهيم كامل وبعد أن كتبته بين أحد أمرَين:

- إمَّا أن أُبقي هذا الرأي لنفسي حتى لا أجرَّ على نفسي مشاكل، خاصة وصحفيو وكتاب السادات لا يزالون، بربطة المعلم، يحتلون الساحة الصحفية والسياسية، لم يتغيَّر منهم أحد، بل هم أقوى مما كانوا في عصر السادات؛ الآن هم توحَّدوا، يُدافعون عن وجودهم هم وعن مصالحهم، وعن رقابهم؛ بحيث أصبحوا أكثر

عدوانيةً وشراسةً، وبحيث أصبح نقد السادات، أيُّ نقد، ربما أصعب من نقده وهو حي.

إمَّا هذا ...

- وإمَّا أن أنشر رأيي على الناس، وأُبشِّر به، فإذا ردَّ عليَّ أحد فإني على استعداد للرد عليه ومناقشته؛ فالكاتب حين يكتب، أقصد الكاتب الصادق الشريف مع ذاته ورأيه، لا يتصور أن كتابته كتابٌ أُنزل، وإنما هو يَتصوَّرها آخر اجتهاداته في هذا الشأن أو ذاك، فإذا صمدت للرأي أو للجدل كان بها، وإذا انتصر عليها رأي أو اجتهاد آخر فأهلًا به.

وأخذت بالرأي الثاني في الحال، وبلا أي تفكير؛ فأن يرى الكاتب رأيًا ويُخفيه عن الآخرين طلبًا للسلامة هو قمة خيانة النفس في رأيي، مهما جلب عليه الرأي من مَتاعب، فآخر ما يَحسبه الكاتب هو المتاعب التي سيجرُّها عليه رأيه. حين قُبض عليَّ عقب معارضتي لمعاهدة ١٩٥٤ التي أبرمها جمال عبد الناصر مع البريطانيين، وسُمِّيَت معاهدة الجلاء، كنتُ وأنا في زنزانتي «الانفرادية» في «القلعة» أسعد إنسان بهذا السجن؛ إذ كنت أُحسُّ أني بسجني إنما أدفع ثمن قول رأيٍ في بلد يُعاقِب بالسجن صاحب الرأي، ومعنى هذا أن وجودي في السجن نتيجة طبيعية تمامًا؛ فالحكومات في العالم الثالث لا تُنعِم بالنياشين على أصحاب الرأي، خاصةً إذا كان رأيًا معارضًا آخر، إنها تُعاقبه على رأيه، وتضربه، وأحيانًا تقتله.

ويقول المؤلف إنه قرَّر نشر المقالات وأعطاها لمدير «القبس» في القاهرة ... ثُمَّ يضيف:

وطلبتُ من الزميل مدير القبس، ومن رئيس تحرير القبس، سرعة نشر المقالات، ووعدني بالنشر، ولكن النشر تأخَّر، حتى بدأت أفكر في فسخ التعاقُد على النشر؛ فالموضوع كان لا يحتمل التأجيل في رأيي، ولم أكن أعرف سببًا معقولًا للتأجيل، وفيما بعد عرفت السبب.

فجريدة الوطن الكويتية كانت تعاقَدت على نشر فصول كتاب «خريف الغضب» ابتداءً من أبريل.

والقبس ادَّخرت مقالاتي لتُنشَر — لأسباب منافَسة صحفية (لا تخفى على القارئ) — في نفس الوقت.

ولو كنتُ أعرف هذا لرفضت المبدأ.

ولكني لم أكن أعرف، بل لم أكن أعرف أن كتاب هيكل سيَصدُر بالعربية في ذلك التاريخ، وأيضًا لو كنتُ قد عرفتُ لرفضتُ أن تُنافِس مقالاتي خريف الغضب، فتلك مسائل صغيرة، والقضية أكبر وأخطر بكثير.

إنما، هذا هو ما حدث.

فأنا أبدًا غير آسف.

فالرأي الصحيح لا يُهمُّ موعد صدوره، أو ظروف صدوره، إني فقط أذكر هذه الحقائق لأوضِّح لبعضِ مَن التبس عليهم الأمر وظنُّوا أن «القبس» كلَّفتني، «بسرعة» لكتابة مقالاتي حتى تنافس بها فصول «خريف الغضب» فيما سمَّاه لي رئيس تحرير قومي أعتزُّ به «موسم الهجوم على السادات».

ولكني أعذره.

بل وأعذر الكثيرين الذين خفيَتْ عنهم كل هذه الحقائق، ورأوا «من الخارج» أنها لم تكن صدفة، وأنها عمل مدبَّر و«مؤامرة»!

ومؤامرة النشر، كما ذكرت، مؤامرة تَنافُس صحفي، مهما كان فهو مشروع.

قارئ متنكر ...!

أمَّا المؤامرة الحقيقية فهي ما حدث بعد النشر.

إذ كنتُ قد سافرت إلى أثينا في الأسبوع الثاني من شهر أبريل الماضي لحضور مؤتمر لمناصرة القضية الفلسطينية.

وعُدتُ بعد أسبوع لأُفاجأ في اليوم التالي مباشرةً بمربع ضخم في جريدة الأهرام تحت عنوان «من بريد القراء»، مربع يحتلُّ نصف الصفحة، وبطريقة تحريضية مباشرةً يحتوي على إعلانين، أحدهما عن سلسلة مقالاتي «البحث عن السادات»، والآخر عن كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل «خريف الغضب»، والإعلانان كانا قد نُشِرا في جريدة «الخليج»، فوجئتُ بعدة أشياء:

فأَوَّلًا: كان إعلان جريدة «الخليج» عن المقالات إعلانًا من النوع الذي تحفل به صحف الإثارة عندنا وفي الخارج، وقد أخذ الإعلان كلمات من جملة مقالاتي السبع، كلمات مبعثرة على طول صفحات المقالات المنشورة، ووُضعت بجوار بعضها البعض على طريقة اجتزاء الجمل والفقرات؛ مثل لا تقربوا الصلاة، والحق أن الإعلان أغضبني تمامًا.

وثانيًا: ولكنَّ الذي أغضبني أكثر في الحقيقة هو الطريقة التآمُرية التي نُشر بها الإعلان؛ فأنا أعمل في الأهرام، والأهرام أكثر الجرائد احترامًا في مصر والعالم العربي، وقد كان جديرًا بالمسئولين عن التحرير فيه أن يَعرضوا عليَّ الإعلان ويُعطوني أنا فرصة التعليق عليه أنا نفسي واستنكاره، أو إن لم أفعل يكونون قد قاموا بما يمليه عليهم شرف مهنة الصحافة، وحينذاك يُصبحون أحرارًا في نشر الإعلان والتعليق عليه.

وثالثًا: كان التعليق واضح الادِّعاء والتزوير؛ فقد زعم المحرر (وقد ثبت أنه لم يكن المحرر الأصلي لباب بريد القراء في الأهرام، ولكنه مدير تحرير الأهرام الذي كان مسئولا بعد سفر رئيس التحرير في الخارج)، زعم المحرِّر أنه تلقَّى مئات الخطابات تَستنكِر المقالات (التي لم تكن قد نُشرت في القبس أو الخليج)، وأن مرسلي بعض الخطابات قد قطعوا الإعلان المذكور من جريدة الخليج وأرسلوه إلى الأهرام.

وذكر «قارئ» كان واضحًا أنه ليس سوى مدير تحرير الأهرام متنكِّرًا خلف قارئ مجهول، ذكر أنني وصفتُ حرب أكتوبر بأنها تمثيلية متَّفق عليها بين السادات وإسرائيل وأمريكا، وهو ادِّعاء كاذب؛ فليس في المقالات كلها كلمة تمثيلية، وليس فيها أي طعن في أداء الجيش المصري البطولي في أكتوبر، وكل ما فيها خاصًّا بحرب أكتوبر لم يكن سوى فقرة واحدة من المقال الثاني على هيئة تساؤلات حول طعنة الثَّغرة التي وُجِّهَت إلى ظهر الجيش المصري وهو في قمَّة انتصاره تُتيح لإسرائيل وضعًا عسكريًّا تَعبُر فيه قواتها إلى غرب القناة وتُحاصر الجيش الثالث وتقطع الإمدادات عن مدينة السويس وتَنتشِر داخل الأرض المصرية. وهو أمر كان ممكنًا تمامًا ألا يحدث لو كانت القيادة السياسية للحرب المتمثِّلة في شخص رئيس الجمهورية آنذاك والقائد الأعلى للقوات المسلحة أنور السادات، لو كان قد وافَقَ على ضرب رأس الجسر الذي أقامه الإسرائيليون والذي كان الجيش المصري قد تدرَّب على ضربه وخصص له اللواء ٢٥ المدرع الذي لم يَسمح السادات بإعادته من شرق القناة إلى غربها حين اكتُشفَت الثغرة ليتولى القضاء عليها تمامًا. ولو كان هذا قد حدث لما اضطرت مصر إلى دخول مفاوَضات فضِّ الاشتباك، ولحصلت على الجلاء الإسرائيلي الكامل عن سيناء دون التورُّط في اتفاقية كامب ديفيد الأولى، مما يجد القارئ له تفصيلًا في المقالة التي كتبها السيد حافظ إسماعيل، مستشار الأمن القومي المصري آنذاك، ونشَرَها بمجلة المصور في العدد ٣٠٧٥ (١٣ مايو ١٩٨٣).

ورابعًا: اتضح في الأيام التالية أن هذا الإعلان المزوَّر المحرِّض في الأهرام ليس سوى الخطوة الأولى والتمهيد المبدئي لعملية مخطَّطة تمامًا وموزَّعة الأدوار؛ فقد فوجئت في اليوم التالي بانعقاد المجلس الأعلى للصحافة، وما دار فيه من مناقَشات كلُّها اتهامات صارخة بأني قلت أن حرب أكتوبر «تمثيلية»، وأن هذا إجرام في حقٍّ بطولة الجيش المصري واستهتار ما بعده استهتار بدماء الشهداء الأبطال، وكأنهم أتوا وهم «يُمثِّلون» الاستشهاد.

إعلان تَنشره جريدة خليجية بطريقة مثيرة عن سلسلة مقالات لي، ويُضيف له مدير تحرير الأهرام من عنده على لسان قارئ أنني قلتُ إن حرب أكتوبر تمثيلية، يجتمع المجلس الأعلى للصحافة، يأخذ هذا القول المزوَّر على أنه حقيقة ويَبني عليها اتهامًا، ودون أن يسمع المجلس وجهة نظري، أو يحفل بأن يرى المقالات أو يقرأها ويَرى إذا كنتُ حقًّا قد قُلت هذا الكلام أم لم أقله، ويخرج بإدانة صارخة لما كتبتُه وإدانة لي ككاتب.

وهذا الذي لم يحدث في بلاد الماو ماو، يَحدث لي في القاهرة عام ١٩٨٣، وفي ظل ظروف انفراجة ديمقراطية، وفي ظل حرية صحافة.

الحكم قبل المداولة

ومع هذا ...

فقد حاولتُ أن أنشر تكذيبًا لما ذكره الأهرام، فرفَضَ مدير التحرير المذكور نشره.

وحاولت نشر التكذيب في كل الصحف «القومية» الأخرى، فرفضَت جميعها.

وحاولتُ الدفاع عن نفسي وإدانة قرار المجلس الأعلى للصحافة، باعتباره قرارًا باطلًا، بُنيَ على كلام باطل، ودون أن يُسمع لي رأي أو يَقرأ أحد ما كتبته.

وأيضًا، رفضت كلُّ الصحف المصرية الحكومية أن تَنشُر لي حرفًا.

وبناءً على تزوير مدير الأهرام وإدانة مجلس الصحافة، بدأَتْ حملة ضارية من المقالات والاتهامات، تتَّهمني بنبش قبور الموتى، وأني نافقت السادات حيًّا وهاجمته ميِّتًا. وأضاف رئيس تحرير مايو اتهامًا آخر من عنده، بأني كتبت هذه المقالات بأمر من القذافي، ونشرتها في جريدة القبس الكويتية. بل ووصلت الحملة الإرهابية إلى حدٍّ أن كاتبًا من كُتَّاب الأعمدة في جريدة الأخبار زعم أن مقالاتي وكتاب هيكل لم يُنشَرا صدفة، وإنما

هما جزءٌ من خطة دولية بتوجيه من موسكو لإفشال المفاوَضات اللبنانية الإسرائيلية وإشاعة جو الفوضى في المنطقة.

وكل هذا يحدث دون أن يقرأ أحد ما نُشر في المقالات، إنما كله مبنيٌّ فقط على حكاية «التمثيلية» التي زوَّرها مدير الأهرام على لسان قارئ.

وحين يَحدُث لك هذا أعتقد أنك ما دمتَ مطمئنًّا إلى الحقيقة، وأن شيئًا كهذا لم يحدث، ستقول إنها مسألة حقد مهني، وأن الحق لا يلبث أن يظهر، وأن كل شيء سيتَّضح، وأنك ستأخذ حقك كاملًا من هؤلاء الذين حاوَلوا تشويه سُمعتك وشخصك.

ولكن ...

حين تُحاول أن تُكذِّب وتصحح فتجد أنك ممنوع من القول ومن الكتابة.

وإن نشر الكذبة لم يكن إلا مقدمة بسيطة لخطة خبيثة مدبَّرة لإقناع جماهير القراء أنك قلت وفعلت وارتكبت كل ما يُلصقونه بك.

حينذاك تبدأ تغضب.

وتبدأ تُحسُّ أنك مخنوق، وأنك وأنت الكاتب، تجرِّب أسوأ تجربة ممكن أن يمر بها إنسان؛ حرمانه من قول رأيه أو الدفاع عن نفسه، وهذا بالضبط ما كنت أُحسُّه حين بدأت أستمع إلى خطاب الرئيس محمد حسني مبارك في عيد العمال.

رسالة إلى مبارك ...

فقد كنتُ مؤمنًا أن رئيس الدولة بكل ما لديه من وسائل لمعرفة الحقيقة، سوف يطَّلع على ما كتبتُه، وأنه سيعيد هؤلاء الناس إلى رُشدهم وسيَضَع النقط فوق الحروف ويوضِّح تمامًا أن مسألة لقائي بالقذافي التي تمَّت في أواخر العام الماضي ١٩٨٢ والتي كتبت بشأنها تقريرًا على هيئة خطاب أودعته مكتب الرئيس بعد عجزي عن لقائه.

ولكن هذا للأسف لم يحدث.

وبدلًا منه وجدتُ كلمات أخرى، ولندع هذا العامود الذي نُشر في جريدة حزب العمل (الشعب) تعليقًا على خطاب أول مايو يقول:

> اتَّهم الرئيس حسني مبارك في خطابه يوم عيد العمال كاتبًا معروفًا، هو الأستاذ يوسف إدريس، اتِّهامًا خطيرًا يُعتبر — حسب تعبير الكاتب — طعنة في صميم وطنيته وذمته وكبريائه ... ومجمل هذا الاتهام أنه تقاضى خمسة آلاف دولار

من الرئيس الليبي معمر القذافي ليكتب مقالاته التي نشَرَها في جريدة القبس الكويتية، والتي أُثير حولها الصخب والضجيج دون أن يطَّلع أحدٌ عليها ودون أن يُسمح لكاتبها ببيان وجهة نظره.

وقد أنكر الكاتب الموجه له هذا الاتهام الخطير على لسان رئيس الدولة ما طُعن به، ونشر مقالًا بهذا المعنى في صحيفة الأحرار، وهي الصحيفة التي قال إنها قَبِلَت أن تنشر له دفاعه عن نفسه بعد أن أغلقَتِ الصحف المُسمَّاة بالقومية في وجهه، حتى جريدة الأهرام التي يعمل بها ...

وصاغ الكاتب هذا المقال في صورة خطاب مفتوح إلى الرئيس مبارك بعنوان «إنني أتظلم منك وإليك» وأعلن فيه: إن طعني في شرفي وعلى الملأ هكذا، مسألة أهوَنُ منها عندي حكم الإعدام؛ إذ إن طعن الكاتب في شرفه من رئيس الدولة إعدام، إنه حكم بالإعدام وإعدام غير مُشرِّف. وذكر أنه يجب الفصل بين مقابلته للقذافي التي أخطر بها الرئيس مبارك بعد عودته بما تم فيها، في خطاب سلمه لسكرتاريته الخاصة بعد أن عجز عن تحديد موعد لمقابلته، وبين ما كتبته في إحدى الصحف العربية نتيجة عدم إتاحة الفرصة له بالكتابة بحرية في جريدة الأهرام التي يعمل بها. وقرَّر أنه ضحية مؤامرة كبرى من بعض الجرائد القومية وصحيفة مايو وعشرات الأقلام الخبيثة لتؤلِّب عليه الرأي العام والقوات المسلحة ورئيس الجمهورية، وأنه كان كفيلًا بهم جميعًا، لو أُتيح له أن يردَّ عليهم حيث يكتبون، أمَّا حين يستغيثون بالرئيس المصري ويَنصرهم ويخذله، فليس عليه إلا أن يتظلَّم منه ... إليه.

وقال بصراحة: إذا كان بعض الناس، وبعض الأجهزة، قد وضعت أمام سيادتكم معلومات هي التي دفعتكم لهذا القول، فإني لا أطالب فقط برد اعتباري، وإنما أطلب وألح أن يحاسب هؤلاء الأشخاص وتُحاسَب تلك الأجهزة.

وهذا ما نُطالب به، ويتلخَّص في إجراء تحقيق قضائي حول هذا الاتهام الخطير؛ إذ إنها سابقة خطيرة أن تقدِّم اتهامات لشخصيات عامة أو خصوم سياسيين أو أصحاب الفكر وحملة الأقلام ضمن تقارير مشكوك فيها، ودون أن تستند إلى أدلة قاطعة لا بُدَّ أن تُعرض على القضاء للتحقُّق منها قبل أن تلطِّخ سمعة أحد من هؤلاء لما ينطوي عليه ذلك من إرهاب فكري شنيع.

وإذا كان وزير الداخلية نبوي إسماعيل قد لجأ إلى هذا الأسلوب لاتِّهام النائب السابق أحمد طه وآخرين معه بالتخابُر مع دولة أجنبية هي بلغاريا للتأثير على موقفه الانتخابي. وبالنسبة لاتهام المرحوم الدكتور المهندس محمود القاضي ونائب رئيس مجلس الوزراء السابق عبد السلام الزيات وعدد من الشخصيات السياسية ممن كانوا تحت التحفُّظ في سبتمبر المشئوم بالتخابُر مع دولة أجنبية أخرى وهي الاتحاد السوفيتي، ثُمَّ ثبت من التحقيق في الاتهامين عدم صحَّتهما أن من الواجب وضع حدٍّ لهذه الأساليب البَشِعة والمُفارَقات التي كُنَّا نعتقد أنها انتهت بانتهاء عهد نبوي إسماعيل الذي يجب محاكمتُه عنها …

وإلى هنا تنتهي كلمة جريدة الشعب.

مؤامرة مزدوجة

والحقيقة أنني وأنا أجلس الآن وشريط الأحداث يمرُّ أمام عيني، وأعود مرةً أخرى أعيش أحداث العاصِفة الهوجاء الكاذبة المليئة بالرمل والتراب والقذى، الآن، وبعد أن اتَّضحَت حقائق كثيرة، واتَّضح للمجتمع أنني لم أذكر أبدًا كلمة تمثيلية، وأن لقائي للقذافي أو للرئيس مبارك لا علاقة له من قريب أو بعيد بما أكتبه، وأن الموضوع كله كان مؤامرة حقيرة لاغتيالي ككاتب، والإيقاع في وقت واحد بيني وبين رئيس الجمهورية وبيني وبين قواتنا المسلحة البطلة وبيني وبين قرائي والشعب المصري بأجمعه، وأن هذه المؤامرة الدنسة إذا كانت قد فشلت تمامًا وارتدَّت إلى نحور أصحابها، فإني إذ أنشر نص مقالات «البحث عن السادات» لا أفعل هذا فقط لأنشر الحقيقة على الناس، وإنما لأطالب بعدها بمُحاسَبة كل مقامر أو مجرم اشترك في هذه المؤامرة.

وهكذا أقول مرة أخرى: لقد بدا واضحًا الآن أن الرئيس السادات وإن كان قد مات، ومات على هذه الصورة البشعة، وكأنها صورة تنفيذ حكم إعدام في خائن، إن كان قد مات، فإنَّ العصابة التي عيَّنها في حياته، واختارها بعناية لتُنافِق كلَّ خطوة يخطوها، وكل تفريط في حقوق الشعب المصري يُفرِّط به.

واضح تمامًا أن هذه العصابة لا تُريد أن تحمي السادات وسياساته، ومنها على سبيل المثال إدارته السياسية لحرب أكتوبر على تلك الطريقة المُغرقة في تهافتها؛ بحيث ضيع علينا انتصار جيشنا العظيم في حرب أكتوبر، واضح تمامًا أنهم يريدون إغلاق

الأفواه وعصب الأعين عن أن نرى ما فعله السادات بنا، مثلما كانت تغلق الأفواه وتعمى الأعين عما يفعله أخوه عصمت وعائلته من نهبٍ لم يَحدُث له مثيل في كل تاريخ مصر.

فإني في هذه المقالات، لم أكن أبحث عن سرقة هنا أو اختلاس لثروات هناك، فما هدفتُ إليه كان محاولة لرسم الدور الخطير الذي لعبه أنور السادات بالاتفاق مع الأمريكان وإسرائيل، وحوَّل به مصر من دولة مستقلة ذات سيادة إلى دولة تابعة خاضِعة للنفوذ الأمريكي والإسرائيلي تمامًا، معزولة عن كلِّ العرب والأفارقة، يكرهها العالم كله إلا أمريكا الشريك الكامل، وإسرائيل المنبوذة هي الأخرى؛ بحيث تشكل هي وجنوب إفريقيا ومصر السادات ثلاثيًّا مرفوضًا على مستوى العالم كله.

والملف لا يزال مفتوحًا.

وإذا كان من فضلٍ لتلك المقالات في البحث عن السادات وعصابة السادات، إلا أنها مع غيرها قد فتحت الملف السياسي الساداتي، ليعرف المصريون والناس جميعًا كيف غرر بهم في حربهم المجيدة مع إسرائيل وإخضاعهم رغم أنفهم للسياسة الاستعمارية الأمريكية؛ بحيث يُسلِّم الاستقلال العظيم الذي حصلت عليه مصر بثورة ٢٣ يوليو وكفاحها الوطني المجيد عبر مائتي عام وتزيد مرورًا بالثورة العرابية وثورة ١٩ وثورة ٤٦، يسلِّم هذا الاستقلال بمؤامرة لم يحدث لها مثيل، وبلا أي مقابل، ليُصبح الحلُّ عبثَ وتصرُّفَ إسرائيل والاستعمار الأميريكي.

أكذوبة السلام

وإذا كانت الخطة العظمى قد برَّرت غزو لبنان وتشريد الفلسطينيين، وإشغال العراق بالحرب مع إيران، والجزائر والمغرب بالبوليزاريو، والسودان بليبيا، وليبيا بتشاد، واليمن باليمن، والسعودية بالأوبك، وسوريا بالعراق والأردن، وإسرائيل والأردن بالفلسطينيين؛ فإن الخطة بالنسبة للشعب المصري هي إيهامه أن مصلحته العليا هي في نفضِ يده تمامًا من العرب ومشاكلهم، وكأن خمسة ملايين مصري لا يَعملون في الدول العربية، وكأن معظم الدخل المصري الخارجي لا يأتي على هيئة تحويلات من المصريِّين العاملين هناك، وكان من الممكن تصور وجود مصري «مستقل» عن العرب، أو وجود عرب مستقلين عن مصر، تلك هي الكذبة الكبرى التي جعلنا السادات بوسائل إعلامه نؤمن بها ونُصدِّقها، والتي آن الأوان للكشف عن محتواها الخبيث؛ فإن حصار الوجود المصري داخل حدود مصر الجغرافية هو إضعاف لمصر وخيانة لها، ولوجودِها الحقيقي.

لقد عِشنا في تلك الأكذوبة بدعوى «العيش في سلام ورخاء»، فأين هو السلام وثمة ١٧ فرقة إسرائيلية مستعدَّة ورابضة في صحراء النقب وكأنها المسدَّس المرفوع كي لا نُحرِّك قدمًا أو يدًا؟ وأين هو الرخاء والأسعار قد أصبحت نارًا موقَدة ونحن في قمة «السلام!» بينما كانت أقل بكثير ونحن في قمة «الحرب» والاستعداد للحرب؟ فجزءٌ من المؤامرة الكبرى لكي لا يُفكِّر الشعب المصري في واقعِه وفي ما دار من وراء ظهره هو إشغال الناس تمامًا بأمور حياتهم اليومية ومتاعبها، حتى لا يَبقى لديهم وقت لإعمال أي فكر أو تأمُّل، وفي البقاء في حالة «التولة» التي كتبت عنها مرةً في فكرتي بالأهرام.

ونحن لا يمكن أن نعالج «التولة» بمزيد من التولة، إنما نُعالجها بأن نفيق، بأن نصحو، بأن يستيقظ فينا الوعي والعقل، بأن نعرف من يضحكون علينا ويُخدِّروننا ويخدعوننا بأن نكشفهم، بأن نكشف لماذا يقفون تلك المواقف ولماذا يدافعون باستماتة عن عصرٍ أدى بنا لما نحن فيه الآن …

وإذا لم تكن تلك المقالات قد فعلَت شيئًا، إلا أنها كانت شمعة ضئيلة أُوقدَت في الظلام الدامس، وأنها مع غيرها من الشموع والحقائق ستهزُّ جيوش الظلام وحتمًا، وعلى الضوء المنهمر المتكاثر سنرى، وعلى النِّقاش مهما علا، سنَصحو.

إذا لم تكن قد فعلت سوى هذا.

فأشكر الله أن هداني كتابتها ونشرها.

وحمدًا لله أني فعلت وأرضيتُ ضميري.

وأهلًا بكل نتائج إرضاء الله والضمير.

بقيت كلمة أخيرة …

كان المنطق البسيط يُحتِّم أن تُنشَر هذه المقالات أوَّلًا، وبعد هذا تتمُّ مناقشتها أو إدانتها، وليس غريبًا أن يحدث في عصرنا هذا العكس تمامًا، فتنشبَ معركة صاخبة حول كلمة مزورة عن حرب أكتوبر، لا علاقة لها بالخط الأساسي للمقالات، ثُمَّ يكون آخر شيء أن يُنشَر نص المقالات كلها، بعد أن ينتهي الصخب المفتعل وتُمطِر السماء شتائم واتهامات …

إليكم المقالات إذن، ولا أطمع في مناقشتها؛ فيس لدى كُتَّاب السادات عقول تُناقِش، وأي إنسان يحترم نفسه ويرى ما لا أراه يتحرَّج قطعًا أن ينضمَّ إلى القطيع الساداتي المأجور ويرى ما لا أراه في السادات، ولكنَّها شهادة أضعها أمام التاريخ وأطلب من المواطنين جميعًا، حتى لو كان بعضهم قد خدَعَتْه الدعاية الأمريكية الساداتية، أن يجلس على مهله ويقرأها، ويتأمل، ويصدر لنفسه حكمًا.

وفي نفس الوقت أتقدم بهذه المقالات إلى النائب العام والمدعي الاشتراكي، مطالبًا بالتحقيق معي في كلِّ كلمة كتبتُها، وشاكيًا في نفس الوقت كل أجهزة الدولة الرسمية والصحفية والإعلامية للإهانة العلَنية التي وُجِّهَت لي دون تحقُّق أو مُستنَد، طالبًا بمحاسبة هذه الجهات كلها عما اقترفته في حقي من ذنب مهول.

وأنا راضٍ بحكم القضاء المصري العادل، وراضٍ تمامًا بحكم الرأي العام؛ فبعد رضاء الله والقضاء ليس أجمل من رضاء الشعب المصري.

(٢) حوار مع الأحرار

أموال العرب تُنهَب ولا تَذهب للشعب المصري.

اجتمع المجلس الأعلى للصحافة يوم الأربعاء الماضي لمناقَشة كتاب «خريف الغضب» الذي كتبه محمد حسنين هيكل، ومقالات «البحث عن السادات» التي كتبها الدكتور يوسف إدريس في جريدة القبس الكويتية ... قرَّر المجلس إدانة الكاتِبَين لمساس ما كتباه بالرئيس الراحل أنور السادات مساسًا اعتبره المجلس الأعلى للصحافة «مجافيًا للحقائق التاريخية الناصِعة، واعتداءً على حرمة الموتى، وتعرُّضًا لحياتهم الخاصة، ومخالفةً لتقاليدهم المجتمع الدينية والأخلاقية والمِهَنية، فوق أنه محاوَلة لطمس أمجاد الجيش المصري وبطولات الشعب المصري.»

وكانت الصحف القومية قد شنَّت حملات ضد ما نشره الكاتبان ووصفته بأنه «تهجُّم على الزعيم الراحل».

ويوم الاثنين الماضي نشَرت «الأحرار» دفاع محمد حسنين هيكل عما وجَّهتْه له الصحف القومية، واليوم أجرت الأحرار حوارًا مع الدكتور يوسف إدريس ردَّ فيه على الاتهامات الموجَّهة إليه من الصحف القومية ومن المجلس الأعلى للصحافة.

وكان الدكتور يوسف إدريس قد قدم لجريدته القومية «الأهرام»، التي يعمل كاتبًا متفرِّغًا بها، ردًّا على الاتهامات الموجَّهة إليه، ولكن الأهرام رفض نشر أي ردٍّ أو تعليق ليوسف إدريس، وكرَّر يوسف إدريس محاوَلتَه مع بقية الصحف القومية، ولكن المسئولين بها اعتذروا. وانطلاقًا من حرية «المواطن» في أن تُسمَع وجهة نظره عند مساءلته عن أمرٍ صدَر منه، وهو ما تَقتضيه العدالة وتَحرِص على النصِّ عليه الدساتيرُ كأحد المبادئ الأساسية لحقوق الإنسان، فتحت «الأحرار» صفحاتها للدكتور يوسف إدريس كما فتحت في الأسبوع الماضي صفحاتها لمحمد حسنين هيكل.

أكَّد الدكتور يوسف إدريس أن هدفه من بحث ذات السادات في المقالات التي نشرها بجريدة القبس الكويتية تحت عنوان «البحث عن السادات» هو التطلُّع إلى مستقبل مشرق وعدم تكرار أخطاء الماضي، ولم يكن هدفه التهجم على السادات أو طمس أمجاد الجيش وبطولات الشعب كما يدعي البعض.

ما الذي تضمَّنتْه هذه المقالات؟ وهل توصَّل يوسف إدريس إلى حقيقة واضحة حول الثغرة وحول كامب ديفيد، وحول العلاقات المصرية العربية، أم أنه يطرح تساؤلات يريد إجابة عليها؟

وما هي العلاقة بين ذهابه إلى ليبيا منذ أسابيع ولقائه بالقذافي وبين نشر مقالاته عن السادات؟

إجابة هذه التساؤلات، كشف عنها الدكتور يوسف إدريس في هذا اللقاء الطويل مع «الأحرار» الذي استغرق ساعتين ونصف الساعة، والذي طلب فيه أن يُنشَر على لسانه بأنه على أتم استعداد لنشر مقالاته السبع في الأحرار حتى يَعرف الرأي العام الحقيقة كاملة.

• الأحرار: نُشر في بريد جريدة الأهرام يوم الثلاثاء الماضي إعلان لمقالاتك نشرته جريدة القبس الكويتية كدعاية لهذه المقالات.

الإعلان:

«احتمالات أربعة مرعبة»:

(١) خائن غبي.
(٢) أم خائن يعرف حقيقة دوره.
(٣) أم كاره للعرب.
(٤) أم مسلوب الإرادة مدرك قذارة ما يقوم به.

ومضى الإعلان يقول:

«أي هذه الاحتمالات يَنطبق على السادات؟ الإجابة يُقدمها الدكتور يوسف إدريس في مقالاته «البحث عن السادات» ...»

فما هو قولك؟

قال د. يوسف إدريس: قبل الإجابة على هذا السؤال أُريد أن أوضح أنه ولأول مرة في تاريخ الصحافة في مصر أو في العالم أن جريدة يعمل فيها كاتب تقف ضده تمامًا

وتَطعنه من الخلف عن عمد وسبق إصرار وترصد، ولو كنتُ من المَجلس الأعلى للصحافة لاجتمعتُ لمناقشة هذه الاعتداء الخطير على العاملين في الصحافة المصرية، بأن تَقف جريدة ضد أحد كاتبيها ويستغل مدير التحرير فيها إمكانياته في إخراج هذه الجريدة الكبرى في نشر ما يُريد لصالحه الشخصي، ولأسباب غير مِهَنية محضة؛ إذ سيادته يَعتبر نفسه كاتبًا كبيرًا ضد ورغم أنف كاتب يعمل في هذ الجريدة، هذا ليس اعتداءً صارخًا على شخص الكاتب، ولكنه اعتداء على الشعب المصري؛ فهذه ليست صحافة المسئولين عنها، إنها:

أوَّلًا وأساسًا: تَصدُر للشعب وللقُرَّاء. إنَّ المسئولين عن الأهرام يستغلون الأهرام لصالحهم الخاص، وهذه جريمة في حق الشعب أوَّلًا، ولهذا فقد كان منظر الأهرام وهي تفسح باب بريد القراء للهجوم على يوسف إدريس، والوقيعة بينه وبين الشعب وبينه وبين القوات المسلحة باعتبار أن حرب أكتوبر تمثِّل البطولة والمجد للشعب المصري، فأنا في رأيي أن هذه الجريمة سوف ألجأ للقضاء فيها.

ثانيًا: سمح مدير التحرير لنفسه أن يُفبرِك خطابًا من قارئ لا أعتقد أن له وجودًا كتبرير لهذه الحملة ... لإثارة السلطات بما فيها سلطة الجيش المصري المجيدة، وهذه جريمة أخرى.

ثالثًا: حينما اجتمع المجلس الأعلى للصحافة، ليَرعى القِيَم وليُناشد الناس أن يُراعوا القيَم والمثُل العليا، لم يلحظ أن جريدة الأهرام قد خرَقت كل القيَم الصحفية أوَّلًا والمهنية والشعبية والقومية، بل وحتى أبسط القيم الإنسانية في سماحها لنفسها أن تَستعمل ثقل جريدة في الهجوم على كاتب يعمل دون أن تَمنحه فرصة الرد على ما نشرَتْه.

رابعًا: عقب نشر هذا في الأهرام، اتصلتُ بالمسئول عن تحرير الأهرام «صلاح منتصر» لنشر بيان لتوضيح موقفي أمام الناس، ولكنه رفض واعتذر عن نشر البيان، وسمح لنفسه أن يقول بأنني ارتكبتُ جرائم وسوف أُحاكَم عليها، بمعنى أنه أقام من نفسه قاضيًا ومنفِّذًا وأصدر حكمه ضدي.

والمجلس الأعلى للصحافة الذي كان وسيلة استئنافية في هذا الحكم، أيَّد هذا الحكم تأييدًا مُطلَقًا دون أن يسألني.

هذه جرائم كبرى، وحين نُطالب بحرية الصحافة، فلا يجب أن نترك هذه الحرية لبضعة أشخاص يَلعبون بها ... وبالشعب.

ليست الأهرام صحيفة صلاح منتصر أو غيره، إنها صحيفة لهذا الشعب كله، ويجب أن يعرف الشعب الحقيقة.

• الأحرار: تقول بأن الأهرام والجرائد القومية تُدار لمصلحة خاصة، كيف؟

أمسك أي صحيفة قومية، تجد رئيس تحريرها ينشر مقالاته في الصفحة الأولى وبالبنط الذي يشاء وبالكم الذي يشاء دون رقيب أو حسيب، هذا عكس أصحاب الصحُف، كانوا ينشرون آراءهم في صفحات داخلية، أنطون جميل باشا صاحب الأهرام لم يَنشُر مقالاته في الصفحة الأولى أبدًا.

• الأحرار: تعود إلى ما نُشر في بريد الأهرام ...

الإعلان الذي نُشر في جريدة القبس الكويتية كان مُستفزًّا، والجريدة افتعَلَت كثيرًا من الفلفل ووضعته في الإعلان لجذب القراء، ولكن هذا لا يَعني أن تستعمل الأهرام ما نشرته القبس لكي تُضخِّمه مليون مرة وتخدع الشعب به.

كامب ديفيد ومبادرة القدس

• الأحرار: ولماذا نشرتَ هذه المقالات في الخارج؟

هذه المقالات لها قصة، عندما قرأت مذكرات محمد إبراهيم كامل (وزير الخارجية المصري السابق) ومذكرات كيسنجر وكارتر، بدأتُ أُكوِّن وجهة نظر في كامب ديفيد وفي الرئيس السابق السادات، وبدأت أكتب تعليقات على هذه المذكِّرات، علمًا بأن هذه المذكرات لم تُنشر في مصر، إنما نُشرت في جريدة الشرق الأوسط السعودية التي تَصدُر في لندن، وكان الحل الوحيد هو نشر مقالاتي في جريدة الشرق الأوسط، ولكني كنتُ متأكِّدًا أن سياسة الجريدة هي سياسة سعودية تمامًا، وشعرتُ بأنني سوف أكون مُقيَّدًا ولن أكون حُرًّا في نشر ما أريد، ثُمَّ عرَضَت عليَّ جريدة القبس الكويتية نشر هذه المقالات، وعدم نَشري لهذه المقالات في مصر هو أنها تعليق على مذكِّرات محمد إبراهيم كامل التي لم تُنشَر في مصر ... فكيف أُعلِّق على شيء لم يُنشَر في مصر؟ ثُمَّ كيف أترك العالم العربي دون تحليل من جانبي لهذه المذكرات؟

• الأحرار: وما الذي كوَّنته من وجهات نظر حول كامب ديفيد؟

بعد نَشر مذكِّرات محمد إبراهيم كامل شعرتُ أن وزير الخارجية الذي اختاره السادات بعد مبادرة القدس، وأفهمه أننا في طريقنا لعقد معاهدة مع إسرائيل، وقبل الرجل، فجأةً استقال أثناء مفاوَضات كامب ديفيد، إذن هناك شيء خطير حدَث أو اعتراض خطير جانَبَه على طريقة إدارة هذه المفاوَضات أو على الشروط التي جاءت في المُعاهَدة. وفعلًا عندما نقرأ مذكِّرات محمد إبراهيم كامل نجد أن مُعاهدة كامب ديفيد

بها شروط صارِخة الظلم، لمصر وللعرب، وأن قبولنا لهذه الشروط تمَّ بتهديد من أمريكا؛ إمَّا أن نقبل بهذه الشروط وإلا فلن نُعطيكم المعونة والسلاح، وسوف نقف مع إسرائيل ضدكم، وكان موقف القبول موقفًا غير وطني؛ لأن المعاهدة تبيَّن منها بعد ذلك أنها أُعدَّت للهجوم على لبنان وعلى الفلسطينيين وعلى بقيَّة الدول العربية.

- الأحرار: هل السادات كان يعلم ذلك؟

لا أعرف، ولكن عندما يُوافق على معاهدة تشلُّ دور مصر، وتنزع السلاح عن سيناء وتجعلها هينة في أيدي اليهود، وأن تكون حرب أكتوبر هي آخر الحروب، معنى ذلك أنني أُلقي السلاح.

والذي حدث أنني أخذتُ هذه النقاط وقلت: ما الذي أرغم السادات على قبول الشروط الظالمة؟ وبدأت أكتبُ هذه المقالات لنفسي أوَّلًا، واكتشفت أن شخصية السادات والطريقة التي يحكم بها وأسلوب تفكيره ونشأته وطريقة تكوينه لعبَت دورًا خطيرًا في هذا.

- كيف؟

أنور السادات لم يكن أصلح خليفة بعد جمال عبد الناصر، لذلك تجد التناقُض صارخًا بين سياسة عبد الناصر وسياسة السادات، بعد أن كان المجتمع شبه اشتراكي أو شبه متوازن جاء السادات وأعلن الانفتاح وأصبحنا مثل الفئران المذعورة تبحث عن أكل العيش وعن الغذاء.

هذا في المجال الداخلي.

في مجال الحرب ضغَطنا على السادات كثيرًا، لكسر حالة اللاسلم واللاحرب، وأصدرنا بيانًا من نقابة الصحفيِّين ومن الكُتَّاب والمثقفين، والذي فُصلت مع ٧٥ آخرين من أجلها، ثُمَّ وصل عدد المفصولين إلى ٢٠٠ صحفي في سنة ١٩٧٢، وكُنَّا في هذا العام ندفع السادات دفعًا إلى الحرب، والسادات لم يَدخل الحرب إلا مُضطرًّا ... وأنا آسف جِدًّا لهؤلاء الذين يقولون بأنه كان يُدبِّر طول الوقت؛ لأنه وجد أن الشعب سوف يتمرَّد عليه وكان المخرَج الوحيد هو الحرب.

السادات لم يكن يُريد الحرب، ولكنه كان يُريد حلَّ المشكلة المصرية وعودة سيناء والأرض المحتلة، والسادات تصوَّر أنه بعرض شروط سخية للسلام يَستطيع الحصول على الأرض، ولكن اليهود لا يفهمون إلا لغة واحدة، هي لغة القوة، وبالعكس، كلما أحس اليهود أننا نريد السلام ... يَضربوننا، والحرب هي التي تجعل اليهود يرتعدون خوفًا.

لذلك عندما رفعنا شعار أننا لن نُحارب بعد عام ٧٣ حارب اليهود غيرنا ... لأن اليهود لا يفهمون غير لغة القوة ولا يَفهمون معنى السلام.

• الأحرار: نعود إلى مقالات في «القبس» الكويتية، والتي نشَرَت منها خمس مقالات حتى الآن.

أنا وجدت السادات في كامب ديفيد متلهفًا جِدًّا على السلام، ومتلهفًا أكثر مما يجب. وأنا أسألك: هل يمكن أن يَدفعك الجوع لأن تأكل طعامًا مسمومًا؟ ومعاهدة كامب ديفيد ... معاهدة مسمومة ... بعد أن شلَّت فاعلية مصر تمامًا وأخضعَتْها للسيطرة الإسرائيلية، وهذا وضع مرفوض تمامًا ...

وبدأتُ أسأل: لماذا السادات قَبِل بهذه الشروط؟ ووجدت بأنه يريد أن يظهر كداعية للسلام؛ لأنه دخل كامب ديفيد وليس في يده ورقة واحدة يلعب بها؛ كان السادات قد سلَّم كل أوراقه قبل دخول كامب ديفيد. وبدأت أتتبَّع القصة عائدًا إلى الخلف، حتى كانت الورقة الأخيرة هي قبول الصلح مع إسرائيل. والسادات كان قد قبل الصلح في زيارة القدس، وبدأتُ أَسترجِع تاريخ السادات ابتداءً من ظهوره في الحركة الوطنية.

ما الذي اكتشفته في شخصية السادات؟

• الأحرار: وما الذي اكتشفته في شخصية السادات وسجَّلته في مقالاتك؟

أنا لا أستطيع أن ألخِّص «سبع» مقالات في فقرة واحدة، لا بُدَّ أن تُنشَر مقالاتي كاملة، وأنا أطلب ... بل وأرجو نشرها في «الأحرار» كاملةً لكي أواجه الرأي العام بها.

والخلاصة أنني شعرتُ بعد متابعة مذكِّرات محمد إبراهيم كامل ... وكيسنجر ... وكارتر، بأننا أمام مؤامرة دولية غربية ... وأننا أمام خطة عظمى للمنطقة حتَّمت أن يركز الغرب على السادات ليَعزل مصر تمامًا ويشلَّ فاعليتها.

وتساءلت: هل السادات كان مُفرِّطًا؟ هل كان خائنًا؟ هل كان عميلًا؟ ... أم أنه كان مجتهدًا؟! وتحت هذه التساؤلات بدأت أتتبع ما كان يفعله السادات طوال تاريخه دون أن أتعرض لأي ناحية شخصية.

مثلًا:

موقف السادات من كيسنجر — وهذا أيَّده هيكل — في محاضر الجلسات السرية مع الإسرائيليين، قال كيسنجر بأنه شعر بأن السادات يتصرف وكأنه لم يكسب الحرب ولم يَعبُر القناة.

عندما يقول كيسنجر هذا ألا يدعوك إلى التساؤل، وأن تقف وتُناقِش ما حدث؟ عندما تجد مطالب رئيس مصر أقلَّ مما يتوقعها أعداؤه، ماذا تقول عن هذا؟ تقول عنه: إمَّا

رجل مُفرِّط، أو رجلٌ جاهل بالمطالب الوطنية، أو أنه متفق مع كيسنجر على هذا الحل ... ومقالاتي التي نُشرت في جريدة «القبس الكويتية» والتي أثارت ضدِّي هذه الزوبعة لم تُحدِّد أي الاحتمالات صحيحة وأيها خاطئ، وهي ليست أحكامًا نهائية، المقالات تتساءل عن موقف السادات من القضية المصرية وعن استعادة سيناء وعن ... وعن ...

وقلتُ إننا عندما نستعرض كل مواقف السادات من عام ٧١ وحتى عام ٨١ نستغرب ... كيف كان يتصرف؟ عندما نستعرض مواقفه من أيام الحرس الحديدي أيام الملك ... ولماذا اختاره عبد الناصر من بين الضباط الأحرار، هل اختاره من أجل إذاعة بيان الثورة الأول، هل اختاره لكي يُخدِّر به الملك، هناك تساؤلات كثيرة ... تبحث عن إجابات لها.

- الأحرار: لماذا ضمَّه عبد الناصر لتنظيم الضباط الأحرار ... وهو يعلم أنه من الحرس الحديدي؟

ضمه ... لكي يَضمنه.

- كان يمكن لعبد الناصر أن يستبعده ...!

في تنظيمات كثيرة ... كثيرًا ما يَضعون بعض العناصر ... اتقاءً لشرهم ... أو لاستغلالهم في مهام أخرى.

- وماذا كان يمكن أن يستفيدوا من السادات؟

يأخذون منه أخبارًا عن الحرس الحديدي ... الذي كان مُكلَّفًا بمراقبة تنظيم الضباط الأحرار.

والسادات نفسُه أثبت بأنه كان في السينما ليلة قيام الثورة، حتى يَثبُت في حالة فشل الثورة أنه لم يكن ضمن المجموعة التي شاركت في الثورة، وهناك مواقف أخرى كثيرة مشابهة.

عندما يتولى السادات زمام مصر في عام ١٩٧٠ ويشنُّ حربًا عام ٧٣، ثُمَّ يفرط في نتائج هذه الحرب ... المسألة خطيرة جِدًّا، هذا ليس نبشًا للقبور، أنا أستغرب لهذه الطريقة في التفكير. الرئيس عبد الناصر أو السادات ... إنهما ليسا مجرد موتى، هؤلاء قاموا بأعمال أَثَّرت في تاريخ الشعب، وعندما نُناقِش أعمالهم وسياساتهم فإن ذلك لا يمكن أن يكون نبشًا للقبور؛ هذا تاريخ مصر، وكل ما فعلاه يتعلَّق بالشعب، ولا بُدَّ أن يعرف الشعب ماذا كان يحدث في السنوات العشر الماضية من حكم السادات.

وسر كتاباتي لهذه المقالات أني كنت أريد أن أَعرف إلى أين نتجه في المستقبل، وشعرت بأننا لم نعرف الطريق الذي نَمشي عليه الآن، قد نكون على أرض العدو ولا

نعرف، نريد أن نعرف هل أمريكا عدو أم حليف، إسرائيل عدو أم حليف، وإلى أيٍّ مدى يكون التعامل مع أي منهما، هذا كان الهدف من المقالات، ولكي نَعرف المستقبل ولا نقع في نفس أخطائه ... لا بُدَّ وأن ننظر إلى الماضي ولكن يجب ألا نغرق فيه.

لقد كتبتُ هذه المقالات بهدف تحديد رؤية للمستقبل؛ لأنني أرى أن الأوضاع لا تزال كما كانت في كامب ديفيد، وأن الخيارات التي أمامنا هي نفس خيارات كامب ديفيد، وأنا لا أريد أن نُكرِّر أخطاء السادات في كامب ديفيد، لذلك أنا أدعو وألحُّ إلى معرفة ماذا فعل السادات، ولماذا فعل ذلك؟!

وهنا لا تُهمني حياة السادات الخاصة، كما لا تهمني مثلًا حياة فردريك الأكبر الخاصة، ولكن الذي يهمني أن فردريك الأكبر قام بتوحيد ألمانيا.

ومقالاتي لم تتعرَّض لحياة السادات الشخصية إلا في لمسات صغيرة جِدًّا.

- ما هي؟

أضرب مثلًا كنت على العشاء معه في إحدى ليالي عام ٥٩، وفي اليوم التالي فُصلت من أربع وظائف كنتُ أعمل بها؛ الأول سكرتير مساعد في المؤتمر الإسلامي والاتحاد القومي، والثانية من وزارة الثقافة، والثالثة من وزارة الصحة، والرابعة من عملي في جريدة الأهرام؛ والسبب أنني نشرتُ حديثًا معه في الأهرام، وفي اليوم التالي أنكَرَ أنه قابَلَني، وقام عبد الناصر بفصلي من كل وظائفي. وتكرَّر هذا مع كل الذين اقتربوا من السادات ... لذلك تجد السادات قد تخلَّص من جميع الذين وقَفوا إلى جانبه في مايو ١٩٧١.

وعندما رجعت بالرؤية إلى حرب أكتوبر، وجدت أن توقُّعات الأعداء كانت أقلَّ مما يتصوَّرون؛ لأن أداء الجيش المصري الرائع في ٦ أكتوبر أذهل السادات نفسه، لدرجة أن الجيش عندما عبر القناة أمر السادات الجيش بالتوقُّف؛ لأنه خاف من حجم الانتصار، وقال للجيش: قف مكانك، وكان هذا خطأً عسكريًّا؛ فعندما يقع عدوِّي يجب أن أواصل هجومي وأستولي على المضايق، وأنا أناقش هنا المنطق البسيط للأشياء.

- الأحرار: هل لو أخذنا المضايق لم نكن قد سمعنا عن شيء اسمه الثغرة؟!

بالضبط؛ لأنه لو سيطرنا على المضايق نكون قد سيطرنا على الجزء الحصين من سيناء، وهنا تقع مسئولية السادات بانفراده باتخاذ القرار؛ وبالتالي أصبح هناك خنجر في ظهر الجيش الثاني والثالث، وأنا أطرح عدة تساؤلات منها مثلًا لماذا تكوَّنت الثغرة أصلًا.

• الأحرار: ما هي مصادرك التي اعتمدت عليها في هذا التحليل؟

هذه مجرد تساؤلات، حرب أكتوبر مضى عليها عشر سنوات دون أن نناقشها، وأنا لست بدارس عسكري، ولكني ذهبتُ إلى الدفرسوار، وإلى مكان الثغرة، وتكونت لديَّ بعض التساؤلات طرحتُها في مقالاتي ووجدت أن حجم العمل في الثغرة لم يكن يتمُّ في ٢٤ ساعة ... فكيف قام اليهود بهذا العمل في هذه المدة؟ وطالبت أن تتكون لجنة من الجيش المصري لدراسة واقعة الثغرة، لماذا حدثت؟ وكيف حدثت؟ وهل كان من الممكن تلافيها أم لا؟

وهذا التفكير ليس مستغربًا؛ أمريكا وفرنسا وإنجلترا ما زالوا إلى اليوم يَدرُسون نتائج الحرب العالمية الثانية، فلماذا لا نُناقش موضوعًا هامًّا كالثغرة؟ والذي يعترض على ذلك قد يكون مخطئًا. هذه الحرب صنَعها الشعب ممثَّلًا في قواته المسلحة، فلماذا لا نضع تساؤلات، نريد عليها إجابات واضحة؟ وأنا طلبت موعدًا عاجلًا مع المشير أبو غزالة وزير الدفاع لكي أوضِّح له ذلك، أنا أتساءل ولست أشكك.

• الأحرار: وماذا شكَّلت هذه التساؤلات عندك؟

شكَّلت أن صورة حرب ٧٣ كانت في ذهن السادات صورة خاطئة تمامًا.

السادات كان يريد شن حرب محدودة، وكان يريد أن يشن الحرب لمجرَّد التسخين فقط، ثُمَّ يحل المشكلة بعد تسخينها، لذلك عندما عبر الجيش المصري إلى البر الشرقي ثُمَّ أمره بالتوقف استطاع اليهود ضرب سوريا، ثُمَّ ركزوا الهجوم على مصر وعملوا الثغرة، ولكن لو كان استمر الجيش المصري في الحرب كانت النتائج مختلفة تمامًا، ولم تكن هناك ثغرة.

• الأحرار: تَردَّد بأن مقالاتك في القبس الكويتية تضمنت أن حرب أكتوبر كانت مسرحية، اشترك في إخراجها أنور السادات بالاتفاق مع أمريكا وإسرائيل.

هذا كذب، أنا أقول إن حرب أكتوبر لم تكن مسرحية، وأنها كانت أعظم حرب خاضها الجيش المصري، وإنما الممثِّل الوحيد فيها كان هو السادات وكيسنجر، ومفاوضات الكيلو ١٠١.

• إذن «المسرحية» بدأت بعد انتهاء الحرب؟

نعم بعد ذلك؛ لأن كيسنجر نفسه قال بعد حرب أكتوبر بأنهم كانوا يتوقعون بأن يأخذ السادات من نتائج هذه الحرب أكثر من ذلك بكثير. أنا لم أطعن في حرب أكتوبر، ولكن الذي طعن فيها هو الذي لم يجنِ ثمارها، نتائج الحرب تم إهداؤها إلى إسرائيل وإلى أمريكا.

• الأحرار: مقالاتك في القبس تعرَّضَت أيضًا للقضية العربية.

بحكم خبرتي، وبحكم جولاتي في البلدان العربية، كنت أثناء مظاهرات ١٧ و١٨ يناير ١٩٧٧ في زيارة الكويت، وذهبتُ منها في جولة إلى دول الخليج، وناقشت مع المسئولين هناك أوضاع العلاقات بينَنا وقلت لهم: بأن البترول ليس ثمنًا للبترول، وإنما ثمنٌ لقوة العرب وقوى العرب من قوى مصر، وإذا فقدت مصر قوتها، فلن يكون لبترول العرب سعر مع مرور الأيام، وهذا ما يحدث هذه الأيام.

وقيل لي: بأنهم يُرسلون مساعدات إلى مصر، لكنها تحوَّل إلى حسابات خاصة وإلى بعض الأشخاص، المساعدات تُنهَب قبل أن تذهب إلى الشعب المصري.

• الأحرار: من الذي قال لك ذلك؟

قالها لي: عبد الرحمن العتيقي وزير مالية الكويت. والخطير أن رحلات السادات إلى البلاد العربية قبل عام ٧٧ لم تكن تجري بالطريقة التي تَليق بمكانة مصر، وساعد هذا على الإقلال من استعداد لإعطاء مساعدات عينية. ولعلمك مليونيرات هذه الأيام تكوَّنت نتيجة المسروقات التي حدثت، وفي ١٧ و١٨ يناير ٧٧ طلب السادات فلوسًا من العرب، لكنهم رفضوا، هنا فكر السادات في المبادَرة، وفي الذهاب إلى إسرائيل، ثُمَّ توسَّعت الخلافات بين مصر وبين الدولة العربية، والاحتمالات التي أمامي هي أنه كان «مُفرِّطًا» أو أنه لم يكن يُهمُّه من القضية المصرية إلا نفسه أو أنه كان متفقًا مع كيسنجر. وفي رأيي أنه لم يكن يحدث خلاف مع الدول العربية إذا كان هناك شخص آخر غير السادات؛ بدليل علاقاتنا الآن بالدول العربية تحسنت حتى فترة قليلة نسبيًّا بعد تولي حسني مبارك الحكم.

• الأحرار: ما هي الموضوعات التي تعرضتُ لها في مقالاتك؟

هل نرث النظام الساداتي كاملًا، وتكون النتيجة تعصُّبًا دينيًّا وطائفيًّا وحادث منصة، هنا لا بُدَّ وأن نبحث عن الخطوات التي أدَّت إلى الكارثة التي حدثت في أكتوبر ١٩٨١ وباعتباري كاتبًا ومُفكِّرًا أرفض أن تنتهي المسألة ١٩٨١ وأرفض أن تَنتهي المسألة بانقلاب أو بقتل أو بثورة، نحن دولة متحضِّرة، وبها برلمان من ١٠٠ سنة ويجب ألا نَرجِع إلى الوراء يجب أن نسبق الزمن لكي نعوِّض ما فاتنا.

• الأحرار: هل كل شيء فعله أنور السادات كان خاطئًا؟ وهل لم يفعل شيئًا واحدًا مفيدًا لهذا البلد من وجهة نظرك؟

لستُ في محلِّ تقييم عهد السادات، الكاتب ليس مؤرِّخًا، أنا مفكر لهذا الشعب، والمفكِّر يطمع أن ينور للشعب طريقه إلى المستقبل، فليس الهدف البحث عن حسنات أو

سلبيات نظام السادات. أنا أضع يدي على السلبيات لكي لا تتكرر، وأحاول أن أستخلص من الماضي القريب عبرة ... أعبر بها إلى المستقبَل، ومن الضروري تعويض سنوات التخلُّف من عام ٦٧ ونحن واقفون محلك سر.

• الأحرار: نُشر بالصحف الحزبية وجهات نظر محمد حسنين هيكل ثُمَّ وجهات نظرك، أليست هذه إحدى حسنات أنور السادات؟

هذه حسنة من حسنات مبارك؛ لأنَّ السادات ضرب المعارضة، وما تنعَم به من ديمقراطية اليوم هي حسنة من حسنات مبارك؛ لأن السادات شطب المعارضة، ووضع رجالها في السجون وأغلق صحفها، وأنا أول مرة أذهب فيها إلى صناديق الانتخاب وأقول فيها «نعم» كانت عند تولي حسني مبارك الحكم، وكلنا نعلم بأن الاستفتاءات السابقة كانت مزوَّرة ولم تكن تُعبِّر عن الشعب.

الذهاب إلى ليبيا ومقابلة القذافي

• الأحرار: تردَّدَ في اجتماع المجلس الأعلى للصحافة أن هناك علاقة بين موعد صدور هذه المقالات في جريدة القبس الكويتية وبين توقيت ذهابك إلى ليبيا ومقابلة العقيد القذافي؟

هذا غير صحيح بالمرة؛ لأن هذه المقالات كُتبت في يناير الماضي، في حين أن زيارتي إلى ليبيا كانت في مارس الماضي؛ أي بعد كتابة هذه المقالات بحوالي شهرين.

دائمًا كنت آخذ زمام المبادرة للعمل على تحسين وضع مصر في العالم، وهذا ليس له علاقة بأي صفة رسمية، نحن بلد غنية وبها مُفكِّرون، ونستطيع أن نفعل أشياء كثيرة لمصر بعيدًا عن المسئولين الرسميين. قابلت أنديرا غاندي في العام الماضي، وقبلها قابلت بومدين في الجزائر وصدام حسين وبورقيبة وحافظ الأسد وكثيرين.

وعندما كنت في زيارة لقبرص في مارس الماضي، قابلت رئيس تحرير إحدى الصحف الليبية، وظل يهاجم الوضع في مصر، وقلت له بأن الوضع في مصر قد تغير بعد حادث المنصة في ٦ أكتوبر ١٩٨١، وقال لي بأنهم في ليبيا ما زالوا على موقفهم القديم من نظام السادات، وأن جواز السفر الليبي مكتوب عليه ممنوع دخول إسرائيل ومصر وجنوب أفريقيا.

وعلمتُ بأن ابن عم القذافي قام بزيارة إلى مصر، وحاول خلالها الاتصال بالمعارضة المصرية، وقلت له أن هذا أسلوب غير سليم، وأن نظام مبارك وطني ويَختلِف عن النظام

السابق، ويجب أن يتمَّ الاتصال بالسلطة الشرعية هنا في مصر، ليس عن طريق المعارضة.

وقال لي رئيس التحرير الليبي بأنك في مهمة قومية؛ لأن معمر القذافي لا يجرؤ أحد على مناقشته، وطلب مني أن أُواجِه معمر القذافي بهذا الوضع الجديد في مصر، وكان المفروض في هذه اللحظة أن ألجأ إلى السلطات في مصر لإخطارها، ولكن كان معنى ذلك أنني في مهمَّة رسمية، ولم أكن أريد ذلك.

والحقيقة تردَّدتُ كثيرًا.

• لماذا؟

أنا لا أعرف ماذا يعملون معي هناك، أو كيف يتصرَّفون مع الناس، واخترتُ قراري بالذهاب إلى ليبيا، كنتُ رسولًا غير موفد من أحد، وقابلتُ القذافي وناقشت معه قضايا كثيرة.

• ماذا دار في هذا اللقاء؟

أنا لستُ في حِلٍّ من ذكر الذي دار في هذا اللقاء، وبمجرَّد وصولي إلى مصر كتبتُ من تلقاء نفسي تقريرًا رفعته إلى الرئيس مبارك دون أن يطلب أحدٌ مني ذلك. لذلك أقول لرئيس جريدة مايو بأن ذهابي إلى ليبيا ليس له علاقة بنشر مقالاتي في القبس الكويتية، ولأنني لستُ في حاجة إلى فلوس ليبيا كما ادَّعى صبري أبو المجد، أنا في حاجة إلى الشعب الليبي فقط، كما أن معمر القذافي رئيس عربي ومسلم، وليبيا بها نصف مليون مصري، ولم أذهب إلى إسرائيل يا رئيس تحرير مايو، ولم أقابل بيجين.

• الأحرار: هل طلب الرئيس الليبي عودة العلاقات مع مصر؟

الرئيس الليبي طالب بعودة العلاقات على شرط أن تخرج مصر من كامب ديفيد، ولكني قلت له بأن معنى ذلك هو مواجهة عسكرية فورية مع إسرائيل، وقال لي: هذا شُغلكم وأنتم أحرار.

ولكن من رأيي إذا كانت الدول العربية جادة في عودة علاقاتها بمصر، فيجب أن تُسقط من حساباتها نقطة إلغاء كامب ديفيد؛ لأنها نقطة خطأ، وأيُّ قرار يجب أن يُتَّخذ في هذا الشأن لا بُدَّ أن يكون قرار مصر.

أمَّا بخصوص ما دار في لقاء الرئيس الليبي معمر القذافي، فسأَنشُره عن قريب وفي الأحرار لو أمكن حواري معه.

• الأحرار: قيل إن مقالاتك تضمنت أمثلة شعبية ليبية وبعض العبارات جاءت على لسان القذافي نفسه.

كل الذي قلتُه عبارة «إسطبل كامب ديفيد»، وذلك على رأي العقيد القذافي، قلتها في مجال السخرية على كامب ديفيد، وأتحدى أن توجد كلمة أو عبارة أخرى للقذافي أو لغيره.

• الأحرار: لماذا استوحيت عنوان «السادات يبحث عن ذاته» لمقالاتك؟

لأنها فعلًا بحث حول السادات، والسادات هنا ليس المقصود به شخص السادات؛ لأنه إذا كان الرئيس السادات قد مات فإن سياسات السادات باقية، ولأن سياسة السادات مرتبطة بشخص السادات، كان لا بُدَّ من مناقشته شخصيًّا.

المقالات بحث عن الساداتية، وعلاقاتها بالواقع الذي نعيش فيه، نحن اليوم نعيش في ظل جهاز إعلامي ساداتي يمنح المناصب الكبرى فيه أشخاصًا أيَّدوه في خطوة قام بها، يذهب إلى القدس ... تصفيق ... يوقع اتفاق كامب ديفيد ... تصفيق ... يَضرب المعارضة ... تصفيق.

الجهاز الإعلامي اختيار ساداتي، ربما أنت غيرنا في سياساتنا الداخلية والخارجية؛ فقد أصبح الجهاز الإعلامي بالتالي غير مناسب للوضع الجديد، ولا بُدَّ من تغييره.

• هل تعتقد فعلًا بأن السياسة الداخلية قد تغيرت؟

نعم؛ بدليل أننا نقول هذا الكلام الآن.

والبعض سألني: لماذا لم تَقُل هذا الكلام وقت أن كان السادات في الحكم، وأنا كنتُ على استعداد أن أقوله، وقلتُ بالفعل نماذج منه والسادات في الحكم، منها مقال «تعالوا نُنظف مصر»، ومقال آخر «تعالوا ننظف مصر مرة أخرى».

والمشكلة أن هؤلاء الرؤساء لا يَجعلوننا نناقشهم وهم أحياء، إذن نناقشهم بعد موتهم، وهذه كارثة انعدام الديمقراطية في العالم الثالث. إنك لا تستطيع أن تناقش وضعًا إلا بعد أن ينتهي وليس أثناء وقوعه، ولو سَمح السادات بنشر مقالاتي ومقالات غيري في حياته لما قُتل السادات.

• الأحرار: إلى أي شيء انتهى بحثك في ذات السادات؟!

انتهى إلى أن هذا الرجل كان يبحث عن ذاته هو.

• الأحرار: في سبتمبر ٨١ لم تُنقَل من عملك الصحفي ولم تعتقل ...

لم يَدعني يوسف إدريس أن أنتهي من سؤالي وقال:

أنا لم أعتقَل في سبتمبر ٨١، ولكني اعتقلت فعلًا في شخص كل واحد اعتُقِل، وليس من الضروري أن أدخل السجن لكي أكون مسجونًا، كل شخص في المعارضة دخل السجن، كنتُ أشعر بأنني الذي في السجن بدلًا منه.

• الأحرار: نصل إلى بيان المجلس الأعلى للصحافة بإدانتك أنت ومحمد حسنين هيكل.

أنا لم أفهم لماذا يوسف إدريس وهيكل، رغم أن هناك كثيرًا من الصحفيين كتبوا ونشروا عن السادات في الخارج وفي الداخل أيضًا.

وهذا البيان لو كان صادرًا من هيئة صحفية منتخَبة كنتُ قد اعتبرته صفعة شديدة لي، إنما هو بيان صادر من أناس عيَّن معظمهم السادات ليكونوا رجاله، لذلك أعتبر البيان أحسن تقدير حصلتُ عليه في حياتي.

وهذا البيان ليس إدانة لي، ولكنه شرف كبير لي؛ فإن ٩٩٪ من أعضاء المجلس هم من أعدائي وأعداء الشعب. وبالمناسبة، كل الذين يُدافعون عن السادات اليوم قد استفادوا من عهد السادات بطريقة أو بأخرى، وأَحضِر لي شخصًا واحدًا يُدافع عن السادات اليوم ولم يستفد منه حينذاك أحترمه. كلهم يدافعون عن السادات لأنهم كانوا مستفيدين من حكم السادات.

• الأحرار: هل أيُّ نقد يوجه إلى السادات هو نقد إلى مصر؟

السادات ليس هو مصر، مصر أكبر من السادات ومن عبد الناصر ومن سعد زغلول، مصر أكبر من هؤلاء، مصر هي الشعب المصري.

وأنا لم أفهم ما الذي يريده المجلس الأعلى للصحافة من إدانة مقالاتي، كنتُ أريد أن يناقش هل ما كتبتُه خطأ أم لا؟ كيف يحكمون على كاتب بالإدانة دون أن يقرءوا ما كُتب؟

ثُمَّ ما هو المقصود من الإدانة؟ هل المقصود هو المنع من الكتابة؟

أنا مستعدٌّ أن أُحاكَم أمام أي محكمة، وسوف ألجأ إلى القضاء ليُنصفني من الصحافة. وأقولها صريحة بأنني على استعداد أن أُحاكَم اليوم أمام أي محكمة، وحتى أمام المدَّعي الاشتراكي، إني ألجأ إلى القضاء طالبًا منه أن يُنصِفني من مجلس لا أعتقد أنه له شرعية.

• الأحرار: بيان المجلس استنكر ما كتبته لأنه اعتداء على حُرمة الموتى ... و...

عندما أتعرَّض لسعد زغلول، هل هذا تعرُّض لحرمة سعد زغلول؟ عندما أُناقِش زعيم مصر فيما فعله، هل هذا تعرُّض لحرمة الموتى؟ إذا كان هذا الرجل قد مات فإن الحقيقة لا تموت، والشعب المصري باق، ولا توجد تقاليد تمنع مناقشة الموتى إذا كانت حياتهم قد أثرت تأثيرًا خطيرًا في حياة الشعب الحي.

وعندما أكتب مقالًا عن رمسيس الثاني وأقول إنه تزوَّج ابنته، هل هذا نبش للموتى؟

لذلك عندما قام السادات بإخفاء موميات ملوك الفراعنة باعتبار أنَّ هذه حرمة للموتى، فإن هذا لم يكن نوعًا من التقدم الفكري.

• الأحرار: أحد أعضاء مجلس الصحافة الأعلى قال بأنه لم يقرأ في كتب التاريخ نزولًا إلى هذا المستوى من الكتابة، وكان يَقصِد مقالاتك.

أنا آسف أن أقول بأن التاريخ مليء بعشرات الموضوعات التي تناوَلت سير وحياة الزعماء، ولأنني اليوم أقرأ مذكرات هتلر، وفي ألمانيا يستفيدون اليوم من هذه المذكرات، لتكوين رؤية أخرى عن الحرب العالمية الثانية رغم مرور أكثر من أربعين عامًا عليها.

وما يَنقصنا هو نظرة حقيقية وموضوعية إلى الأشياء دون إرهاب فكري، فإذا كانت مشكلة توفيق الحكيم قد نُوقِشَت، ومشكلة السادات قد نُوقِشت، ومشكلة التكفير قد نوقشت، ومشكلة الثغرة قد نوقشت، لم يَعُد هناك ما يُسَمَّى بالتابوهات التي لا تُناقَش، كل شيء في مصر اليوم قابل للنقاش، وهؤلاء الذين يريدون إلغاء عقولنا حتى لا تُناقش أو تفكر هم الذين بهم عيب خوف أن تتكشَّف عيوبهم، يريدون أن يُغمضوا عيوننا عن عوراتهم.

وأريد أن أقول لصانعي الزفة والمطبِّلين والمزمِّرين الذين يريدون أن يشنقوني، أقول لهم: أنتم تلعبون بالنار، فكفى لعبًا. لقد ظللتم تزفُّون السادات وكانت النتيجة معروفة، ولن نسمح لكم أبدًا أن تستمرُّوا في هذا، «كفاية بقى ... الشعب استوى منكم!»

(٣) بيان من يوسف إدريس

قبل أن أبدأ هذا الحديث أحبُّ أن أُعلن هذا البيان للشعب: إنَّ قلة من صغار الصحفيين حاوَلَت أن تُوقع بيني وبين القوات المسلَّحة بادعائهم أني قلت عن حرب أكتوبر أنها

مسرحية، وأتحدى هؤلاء الناس أن ينشروا ما قلته، فما قلته كان مجرد تساؤلات حول الثغرة التي التفَّت حول بطولة الجيش المصري العظيمة وأدائه الرائع المجيد. كان من الممكن أن تُستثمَر نتائج حرب أكتوبر لإعادة سيناء كاملة دون قيد أو شرط ودون تقييد مصر العظيمة بقيود كامب ديفيد الحديدية.

إني إذن أعلنها لمن في آذانهم صمم، لن تستطيعوا الإيقاع بيني وبين شعبنا وجيشنا؛ فأنا من قلب شعبنا وجيشنا، وجيشنا وشعبنا من قلبي، فكفوا عن هذه المحاولة. لقد كتبتُ عن حرب ٧٣ والعبور أصفُها بأنها أعظم حرب خاضها الجيش المصري الحديث، وهذه الكتابة موجودة في الأهرام نفسها التي اتهمَني مدير تحريرها بتلك التُّهمة لأسباب تنافسية مهنية محضة، وإني لأستغرب أن يدفع الغيظ من الكاتب شخصًا ما للإيقاع بيني وبين جيشنا الحبيب العظيم.

(٤) سيادة الرئيس ... إني أتظلم منك ... إليك!

السيد الرئيس محمد حسني مبارك

كنتُ قد قررتُ بعد أن استمعتُ لخطابكم التاريخي في عيد العمال، وأدركتُ أنني الكاتب الذي قصدتُموه، فقد أحلتَ سيادتكم الجماهير على المنشور في جريدة الأخبار يومها لكي تتعرَّف على الكاتب، ولأنَّ الموضوع الرئيسي للأخبار يومَها كان عن شخصي وبالبُنط العريض، وكان أيضًا تحريضًا للقراء عليَّ ومحاولةً للإيقاع بيني وبين قُواتنا المسلحة.

حين أدركتُ أنني الكاتب المقصود أُصبتُ بنَوع غريب من الذهول، ذهول سببه الأكبر لم يكن ما ورَد في خطابكم الكريم عنِّي، وإنما سببه الأكبر ذهولي من كيف انقلب الموضوع من تراشُق صحفي محفوظ الكلمات والتعابير إلى خبر خطير وعلى لسان رئيس الدولة الذي نكنُّ له جميعًا، وأُكنُّ له بشكل خاص، أسمى آيات التقدير والإعجاب، وأضيفُ أنا والحبَّ الشديد أيضًا.

وكان أول ردِّ فعل لي أن قرَّرتُ أن أسكت تمامًا ولا أنطق بحرف، فما داموا قد أوصلوا سيادتكم إلى هذا المدى من السخط عليَّ، وما دامت هذه الأفواه بالتقارير الكثيرة، ومن عدة أشخاص، لا بُدَّ بل ومن خطب في المجلس الأعلى للصحافة قد جعلتْك أنت الحليم

الذي لا يَسمح لنفسِه أن يَنطِق عن غضب أو حتى يغضب. ما داموا قد أغضبوك مني إلى هذه الدرجة التي يَلتفِت فيها ابني الطالب في الهندسة إليَّ ويسألني: هل أعطاك القذافي خمسة آلاف دولار يا أبي؟!

بربك، يا سيادة الرئيس، وأنت الوالد لشابَّين في مثل عمر أولادي، ألو سمعتَ أحدهما يسألك — لا قدَّر الله — سؤالًا كهذا، بعد استماعِه لخطاب رئيس الجمهورية، أيُّ كمٍّ من الحزن الغاضب يجتاحُك وأنت العارف تمامًا أنك بريء وأن المعلومات كلها عند الرئيس، والرئيس نفسه هو الذي يُدينك أمام أبنائك وعائلتك وقرائك وشعبك؟!

كان الجرح حادًّا وغائرًا، بل وقاتلًا، فلو كُنَّا في مجال التجارة أو القومسيون، أو من العاملين بها، لو كان الأمر أمر إنسان يَسترزق من الكتابة أو الصحافة، لكانت تُهمة قابل للنفي أو الدفاع، أمَّا أن يكون الاتهام لكاتب مبدأ وعقيدة، أمَّا أن يكون الاتهام لمصري قضى في الحركة الوطنية ثلاثين عامًا يكتب ويُناضل ويبشر، ثُمَّ يتوج هذا العمر بطعنة في صميم وطنيته وذمته وكبريائه!

الحقيقة ترنَّحت، نصف القلب الذي أمتلكُه بعدما اقتطعوا نصفه الذي مات أثر أزمة قلبية يدقُّ بطريقة تأكَّدتُ معها أنه سيتوقَّف؛ فالإنسان الحرُّ قد تقتلُه كلمة مهينة، فما بالك بتهمة مَهولة كهذه.

وكان أول ردِّ فعل عاقل لي أنه ما دامت المسائل قد وصلت إلى هذا الحد، فلا فائدة من أي كلام، بل حتى لو أردتُ الكلام لما استطعتُ، بل ولما قلتُ عن نفسي أي دفاع أو أي دفْع للتهمة؛ فالإنسان الشريف يَخرس لسانُه إذا طُعن في شرفه؛ إذ هو غير مجهَّز أو مُعتاد على الدفاع عن شرفه. أمَّا أولئك البُلغاء للدفاع عن أنفسهم، فهم أولئك المُعتادون على الدفاع عنها؛ لأنهم قد اعتادوا التهمة وتعرفوا على الحُجج.

ثُمَّ إن هناك اعتبارًا آخر؛ أنا إنسان متحضِّر، أعتبر رئيس الجمهورية الذي اخترته وانتخبتُه، هو الصدق الكامل، حتى لو اختار الرئيس أن يَصمُت عن الحقيقة، فلا بُدَّ أن له أسبابه ومُبرِّراته، ولا بُدَّ أن الضغوط شديدة، وأن المسألة مؤلِمة تمامًا له، وهو يُضطرُّ أن يَقف من مواطن أعزل هذا الموقف المسلَّح بكل ثقل الدولة وأجهزتها وجرائدها ووسائل إعلامها وكيانها وهيلَمانها.

قررتُ إذن أن أَصمت حتى لو مت، حتى لو توقَّف قلبي عن الدق؛ فالطَّعنة في الكبرياء والشرف مُروِّعة، وأقسى منها أن تكون صادرة عمن لا تستطيع مناقشتَه.

يا إلهي، لا تَجعل أحدًا من عبادك يَقِف أبدًا هذا الموقف.

ولكن حين مرَّ يوم ويومان، ووجدتُ فرقة الطبل والزَّمْر والطَّعن قد توقفَت فجأة عن العزف، وخُيِّلَ إليها أنها أدَّت المهمة تمامًا وأنها دبحت «الزبون» وبإتقان، لم يكن يخطر لها على بال وراحَت تتبادَل بينها وبين أنفسها الأنخاب، حزَّ الأمر في نفسي تمامًا، فمعنى هذا أن الظُّلم والزور قد انتصَرا.

وهذه مسألة لا يُمكِن السكوت عليها

فأنا مُستعدٌّ أن أُقتَل كذبًا وتلفيقًا، ولكن قبل أن أموت تمامًا من واجبي ككاتب ومواطن أن أكشف لمواطني ولرئيسي عن الداء الوبيل الذي خُيِّل إليه أنه انتصَر.

مِن واجبي أن أقولَ الحقيقة للناس؛ فالساكت عن الحق شيطانٌ أخرَس، وأنا بسكوتي سأكون بمَثابة فرد مُتآمِر في عصابتهم وسأُساعِدُهم على التنكُّر أكثر وعلى الإيغال في خداع الناس وخداع السلطات والمضيِّ في غيِّهم إلى آخر المدى.

ورجائي يا سيادة الرئيس أن تقرأ كلماتي بإمعان؛ فقد أكون أنا الأول في القائمة، ولكني لستُ الأخير؛ فالقائمة طويلة، وهي تقريبًا تضمُّ كل المُخلِصين لك عن حق، وكل الشرفاء في هذا البلد، ولا يُمكن لضميرك أن يرضى أن يجعلوا من الدولة ومن جهازها الهائل آلة سحق «يفرمون» بها كلَّ مَن هو ليس بانتهازي أو كاذب أو دَعي أو مُلفِّق أو كلب سلطة مثلهم. الموضوع خطير تمامًا يا سيادة الرئيس، وهو ليس فقط أمر موت أو حياة خاص ببعض الناس الشرفاء، ولكنه أمر هذه الأمة، الأمة التي أنت قائدها، أمر جيشك الشعبي الذي يُريدون عزلَك عنه، وعزله عنك، والإيقاع بينك وبينه.

لقد بدأَت المسألة حين أحدث الرئيس السابق تغييرات في الصَّحافة عهدَ بها إلى من سمَّاهم «الشباب» بالعمل كرُؤساء تحرير ومُديري تحرير جدد لمعظم الجرائد «القومية».

وقد كان مُمكنًا أن يكون هذا الأمر تجديدًا فعلًا لولا الضَّعف البشري الذي مُمكِن أن يحدث للمُوظَّف الصغير إذا رقيتَه فجأةً مديرًا لمؤسَّسة كبرى، في الحال يُصبِح هدفه أن يُخلي الساحة من كلِّ الدرجات التي تعلوه أو يخفض من رأسها عنوة حتى تُصبح الكلمة الأولى والأخيرة له.

ولستُ — في الأهرام — سوى مثل واحد للمَهازل التي دارَت وتدور في الصُّحف الأخرى؛ فهُناك عشرات القَضايا المرفوعة ضد رؤساء مجالس الإدارة ورؤساء التحرير، بعضُها حُكم فيها فعلًا بالإدانة والتعويض الكبير، وهناك مئات المنازعات اليومية بين صغار الموظَّفين الذين أصبحوا مُديرين مُرتكنين إلى صدر الدولة والسلطة، مُنهالين على عباد الله الصحفيين والكتاب في جرائدهم بالتحكُّم والتنكيل.

ويَشاء الله أن يَرزقني في الأهرام بمدير تحرير يتصوَّر أنه لا بُدَّ أن يكون كاتب الأهرام الأول، وبمُؤازرة رئيس التحرير، وبدعم من مساعد رئيس التحرير، ولاعتقادهم أني لستُ من «شلتهم» دأبوا على مُشاكَستي، وإثارة أعصابي لدى كل مقالة أكتبها أو كل رأي أُبدِيه، بل وصَل الأمر إلى حدٍّ أن الأستاذ صلاح مُنتصر مدير التحرير كان يَسمح لنفسه أن يشطب ما شاء من كتابتي دون علمي ويَنشر مقالي الناقص وكأنه رأي؛ بمعنى أنه أقام من نفسه وصيًّا على كاتب له ثلاثين عامًا يكتب، ووصيًّا رغم أنفِه وليس برضاه، وكان لا بُدَّ أن تحدُث مُشاحنات بيني وبينه وبينه وبين بقية المسئولين عن الجريدة، بعضها وصل فعلًا إلى علم سيادتكم.

وهذا هو السبب الأول يا سيادة الرئيس أننا نلجأ أحيانًا للنَّشر في الجرائد العربية أو جرائد المعارضة، فهم ليُغطُّوا طُغيانهم قد زعموا أننا نَنشُر هناك طلبًا للدينارات والريالات والدولارات؛ ذلك أنهم يَحكُمون على الناس بمَنطقهم هم؛ إذ هم لا مَنطق لديهم إلا منطق النقود، أيُّ ولاء لا بُدَّ أن يكون وراءه نقود، وأيُّ مقالة أو تأييد لا بُدَّ أن يكون له ثمن؛ فهم لا يستطيعون أن يتصوَّروا أن الإنسان كاتب ويَكتُب لأنَّ له رأيًا وأن حرصه على هذا الراي هو الحرص الوحيد لديه، وأن أيَّ مقابل مادي يأتي من النشر لا يُشكِّل أي اعتبار لدى الكاتب صاحب الرأي ووجهة النظر، هكذا هم، وهكذا نحن، والنتيجة أنهم يتصوَّرون أن أيَّ رأي لا قيمة له، وأنه من المُمكن الحذف منه أو الإضافة إليه، أو شراؤه بسعر أعلى مقابل تنازُل كاتبه عن مَضمونه. الكتابة عندَهم سوق، وعندنا مبدأ، وكان لا بُدَّ أن يقع الخلاف.

وتستطيعون سيادتَكم أن تتصوَّروا مدى الألم الذي يُعانيه كاتبٌ حين يكتب في جريدةٍ «المسئولون» عنها مُتربِّصون لكلِّ كلمة يَكتبها، يتمنَّون اليوم وقبل الغد أن يَقتَنِصوا له سقطة فيُشهِّروا به ويُبلِّغوا عنه السلطات، وقد حدث أكثر من مرة، ومنها المرة التي أشرت لها سيادتكم في مسألة القدوة، أن نشروا آراء «تُكفِّرني» أمام القراء

دون عِلمي، ومن وراء ظهري، وطعنًا في ظهري. كيف بالله يستطيع الكاتب أن يكتب والمسئولون عن الجريدة يتحينون الفرصة لطَعنِه في ظهره؟

وقد حانت الفرصة

ما إن وقع نظر الأستاذ صلاح منتصر على إعلان منشور في جريدة الخليج عن المقالات السبع التي ستَنشرها نقلًا عن «القبس» (دون علمي)، ووجَد في الإعلان كلمات مستفزة، حتى أفرد للإعلان نصف الصفحة الداخلية، وبطريقة هي الأولى من نوعها في الأهرام وفي الصحافة المصرية. طريقة مُثيرة محرِّضة، ومحرضة للدولة ولأنصار الرئيس السادات وحتى للشعب العادي؛ إذ قد زعم فيها أني أُهاجم مصر وشرف مصر وأتنكر لتراب مصر ... إلخ.

وأنهى الإعلان بخطاب مزوَّر وخطاب آخر على لسانِ قارئ يقول فيه إني قلتُ عن حرب أكتوبر أنها «كانت مسرحية»، وفوجئتُ في اليوم التالي كما فُوجئ الناس جميعًا بالإعلان منشورًا بهذه الطريقة المحرِّضة المستفزة.

ولو كُنَّا في جوٍّ صحفي آخر لكانت الدنيا قد قامَت وقعَدت ليس ضدي، وإنما ضد المسئول عن هذا العمل، ضد مدير تحرير يَستغلُّ إمكانياته وسلطاته في تلفيق اتهامٍ لكاتب زميله ويعمل معه في نفس الجريدة.

وأنا شخصيًّا اطمأننتُ إلى أن الرأي العام سيَأخُذ هذا الكلام مأخذ الهزل، فهل معقول أن يَكتب كاتب مصري ويقول عن أداء الجيش المصري الرائع في ملحمة أكتوبر إنه كان مسرحية، وأن الضباط والجنود كانوا «يُمثِّلون» القتال، ولا يُقاتلون، مسألة مُستحيلة ولا يُمكن أن يُصدِّقها أحد.

كنتُ مطمئنًّا لهذا؛ لأني أعرف ما كتبتُه، وما كتبته كان خاصًّا بالتنازلات والمساومات التي أهدرَت نتائج حرب أكتوبر العظيمة، وليس له علاقة من قريب أو من بعيد بأداء الجيش المصري الرائع وملحمة العبور. وهكذا اتصلت بصلاح منتصر طالبًا منه أن يَنشُر بيانًا لي أُكذِّب فيه ما جاء في الإعلان، فكانت إجابته الغريبة أنه رفض مبدأ أن أردَّ أو أُكذِّب، بل أضاف بأن المجلس الأعلى للصحافة قد اجتمَعَ وأصدر بيانًا يُدينُني ويُدين الأستاذ محمد حسنين هيكل.

سبحان الله ...

إعلان كاذب، وخطاب مزور، ووصفٌ وارد على لسان قارئ، وصفٌ لم أقله ولم أكتبه، تتلقَّفه الجرائد القومية الأخرى وكأنه حقيقة، وتصنع زوبعة، تتلقفها جريدة الحزب الوطني «مايو»، ويُضيف رئيس تحريرها من عنده أنني كتبت هذه المقالات بعد مقابلتي لمعمر القذافي، ويوضَع هذا مع ذاك، ويُصعَّد الأمر لمجلس الأعلى للصحافة، ويجتمع المجلس، ويَقِف الشيخ النمر يُضيف صفيحة بنزين فيقول إن الكاتب الذي كتب هذا الكلام قابل الرئيس ويَظهر معه في الصور، فهل معنى هذا أن الرئيس مُوافِق على ما كتَب؟

وهكذا تَكبُر كرة الكذب الصغيرة، وتتحوَّل إلى كرة من نار مؤكَّدة، وأُصبِح بين يوم وليلة مُتَّهمًا بثلاث تُهَم عُظمى؛ التشكيك في بطولة أكتوبر، وأخذ تعليمات من القذافي بمُهاجَمة السادات، واستغلال ظهوري مع الرئيس في صورة لأزعم أنني أتحدَّث — في هذه المقالات — باسمه. ولو كُنَّا في جو صحفي آخر لأطفأتُ هذا الحريق كله في ربع عمود أذكر فيه الحقائق وأنخر هذا البالون المتضاخِم المُلتهِب.

ولكنَّا في جو صحفي غريب

فها هو «الأهرام» رفَضَ نشْر بياني، وأرسلتُ «للجمهورية» بيانًا لم يُنشَر، أو ربما لم يَصِل، وذهبتُ بنفسي إلى «أخبار اليوم» وقد كتبتُ توضيحًا عاجلًا آخر، ولكن الأستاذ إبراهيم سعدة «زاغ» من مُقابلتي، وحين تركتُ البيان ليُنشَر، فوجئتُ بعدد «أخبار اليوم» التالي «السبت قبل الماضي» وكأنه منشور موجَّه ضدي؛ فقد احتوى على كاريكاتير «للصديق» الكبير الذي أحبه (رخا)، وفيه حذاء الجيش وهو يَسحقُني وأنا في حجم النملة، والحذاء ضخم جِدًّا، ورهيب، وفيه خطابات «لقراء» أعرف مَن كتَبَها ولفَّقَها، وحملة أخرى مزوِّرة مَسعورة.

ولأول مرة، أنا الكاتب والصحفي، أُواجه «حرية» الصَّحافة، وجهًا لوجه، حرية صحافة تتَّهمني كذبًا وتلفيقًا بثلاث تُهَم خطيرة، دون أن تطَّلع مجرَّد تطَّلع على ما كتبتُه، وإنما تجعل مِن «وصف» قال عنه قارئ أني كتبتُه، حيثيات حقيقية وإثبات لا يَقبل الجدل، وتقود حملة مسعورة ضدِّي، مُثيرة للرأي العام وللقوات المسلحة ولرئاسة الجمهورية عليَّ، وأنا لا أَملِك أن أقول كلمة، ويدينني المجلس الأعلى للصَّحافة بعدما

استباح معظم أصدقائه لأنفسهم أن يتَّهموني، بلا أي سند، بأقذع التُّهم دون صوت واحد يتساءل: أَرُونا ماذا كتب هذا الرجل، وما دليلكم؟ أين الدليل؟

وأنا، الجاني المجني عليه، لا يريد أحد أن يسمع صوته، وترفُض الصحف نشر بياني بإصرار، والمحكمة — أي المجلس الأعلى للصحافة — اجتمعَت وحاكمَتْني على الإشاعة التي بدأها صلاح منتصر، ووقف هو أيضًا كالطاوس، في ثوب المدعي العام، يدين الأستاذ هيكل ويدينني أنا على تُهمة هو يعرف أنه مُلفِّقها الأول؟!

في ظلِّ جوٍّ قاتل للحقيقة هكذا، مُروِّج للكذب والتضليل، في جوٍّ إرهاب منقطع النظير، تحاكَم فيه على إشاعات وبالإشاعات، وتُدان، ويُحشَدُون القُراء حشدًا ويُحرِّضونهم ضدي، ويُحرِّضون القوات المسلَّحة ضدِّي، والرئاسة ضدي، وصوتي مخنوق يرفض أن يَسمعه أحدٌ منهم أو يُسمح له بالوصول إلى الرأي العام، حتى إني قابلتُ الأستاذ صفوت الشريف وزير الإعلام، وطلبت منه بصفتِه الحِزبية أن يَنشُر كلمة لي في جريدة الحزب، أو في الجرائد القومية، ولم أشأ مُقابلة الأستاذ صبحي عبد الحكيم رئيس المجلس الأعلى للصحافة؛ إذ كيف أُقابِل مَن أدانَني دون أن يسألني أو يُقابلني أو حتى يطَّلع على ما كتبتُه بجريدة القبس التي كانت قد نشَرَت أربع مقالات، ممنوعة من دخول مصر، وحتى أنا نفسي لم أرَ المقالات ولم أَعرِف ماذا بالضبط نشرَتْه الجريدة، فكيف عرف أعضاء المجلس؟ ومِن أين جاءوا بأعداد القبس؟ كل ما عرضوه إشاعة صحفية كاذبة أطلَقَها صلاح منتصر على صفحات الأهرام، وتلقَّفَها الجميع بالتصديق، حتى من غير أن يقرءوها، بالسماع حاكموا، وبالسماع أدانوا، وصغار الأدباء، والانتهازيون منهم، وجدوها فرصة لاغتيال كاتب يرونه عقبةً في طريقهم، فشاركوا في الزفة هم الآخرون، وما أروع منظر ذبح هيكل ويوسف إدريس، ليهدأ الانتهازيون، وما أكثرهم، صحفيون وأدباء وكتاب، وحتى إذا كان هيكل قد وجد في الأهالي مُدافعًا عنه، فأنا لم أقرأ كلمة واحدة في صفي، إلا الكلمة اليتيمة للأستاذ وحيد غازي رئيس تحرير هذه الجريدة، وقد كانت نقدًا لإجراءات المجلس الأعلى للصحافة، بعيدًا عن قضيَّتي الخاصة.

إنَّ جهاز الصحافة يا سيادة الرئيس جهاز خطير تمامًا، خطير لو أحسن استغلاله؛ فهو من الممكن، ما دام الإنتاج وزيادة الإنتاج هو صَيحتنا الحالية، أن يستحيل إلى أداة عظمة لتَحريك الشعب ودفعه للإنتاج والتقدم وللقيَم وللمثُل العليا. ومن المُمكن وهذا

هو الأخطر، حين يرى الشعب حفنة من المُستغلِّين قد تسلَّلوا إلى هذا الجهاز يتحرَّكون للدفاع عن مناصبهم ووجودِهم، ولتهييج الرأي العام ضد هذا الكاتب أو ذاك من أجل غيرة مِهَنية محضة ورغبة في استعمال الثقل الإعلامي الهائل للصحافة في هدم الخصوم، والخصوم هنا كُتَّاب من قلب هذا الشعب، آمن بهم، وكانوا صادقين معه، لم يَخدعوه أبدًا أو يُضلِّلوه، حينما تسلَّل هذا النفَر المُضلِّل إلى الآلة الصحفية ويَسحق بها الكُتاب المُخلصين، يُصبح الأمر كارثة حقًّا.

إنَّ الموقف الذي واجهتُه خلال الأيام القليلة الماضية جعَلني أومن تمام الإيمان أنَّ من المستحيل على أي كاتب شريف أن يعمل في جرائد يتولَّى المسئولية فيها أناس غير أُمَناء على مسئوليتهم، وإنما يستغلونها كإقطاعيات خاصة.

وقد كان القضاء يُحاكم عصمت السادات وغيره على خراب الذمَّة المالي والإرهاب البدني والسلطوي للمُواطنين المساكين. وقد تيقَّنتُ بعد هذه المواجهة أن خراب الذمة الصحفية أشد خطورةً من خراب الذمة المالي؛ فاللصُّ قد يسرق نقودًا، ولكن الصحفي الخرب الذمة يَسرِق عقول المواطنين ووعيهم، يُفسد ضمائرهم، يَصنع لهم أصنامًا ويُجبِرهم على عبادتها والشرك بخالقه، يُثرى صحفيٌّ ثراءً خرافيًّا على حساب الشعب، لقد قال نابليون: ملِّكني مطبعة أُعطِكَ ثورة، أمَّا هذا أو ذاك، فإنهم قد تملَّكوا المطبعة ليَحصُلوا على ثروة أخطر بكثير من أي عقار ثابت أو أي عرباتِ نقْل.

إنهم يَعيثون فسادًا في عقولنا وضمائرنا، ولا نَملِك لهم منعًا، ولا نَملِك محاسبَتَهم أو عقابهم، يتصرَّفون وكأنَّ الشعب لا حول له ولا قوة، وكأن البلد بصحافتِها ورجالاتها «استراحتهم» الخاصة يتصرَّفون فيها ويَصنعون تماثيل يتصرَّفون فيها كيفما شاءوا، ويُلفِّقون التُّهَم لمن شاءوا، ويَصنعون تماثيل برَّاقة لمن شاءوا.

لقد أجبتُ في الحديث الذي أجرَتْه «الأحرار» معي قبل خطاب سيادتكم في أول مايو، عن «التهم» التي أرادُوا إلصاقَها بي، وبقي أن أوضِّح هنا لسيادتكم وللقراء كيف «ألصقوا» التُّهَم بعضها ببعض لتبدوا المسألة وكأنها خيانة عظمى، فتساؤل «صبري أبو المجد» عن العلاقة بين مُقابلتي للقذافي وكتابة المقالات، وتساؤل الشيخ النمر عن علاقة كتابتي للمَقالات بمقابلتي لسيادتكم واضح أنه يريد أن يربط ثلاثة أحداث لا علاقة لها البتَّة ليجعلها حدثًا واحدًا يحمل أخطر المعاني.

فلقد قابلتُ القذافي لأسباب ذكرتها في الحديث «للأحرار»، وذكرتُها بالتفصيل في الخطاب الذي كتبتُه لسيادتكم بعد عجزي عن لقائكم لأُحيطكم علمًا، كأيِّ مواطن كاتب

قابل رئيس دولة مجاورة لا بُدَّ أن يطَّلع رئيسه بما دار في ذلك اللقاء الذي تمَّ بهدف تحسين العلاقة بين بلادي وبين بلاد مُجاوِرة بصرف النظر عن نوع الحكم هناك، كما كان هدفي من لقاء أنديرا غاندي قبلها في الهند عمل نوع من الأرضية المُتفاهمة لعودة مصر لدورها القيادي في معسكر عدم الانحياز، فأنا لم أستأذن سيادتكم للقاء أنديرا، كما لم أَستأذن سيادتكم في لقاء القذافي ذلك أني ليست لي أي صفة رسمية أو حزبية أو سياسية وإنما أنا أُقابل هؤلاء الناس ككاتب مصري وعربي يقرؤني الناس في الوطن كله من مراكش إلى قطر، بما فيهم حكام تلك البلاد، وألقى من الحفاوة بي والرغبة في لقائي ككاتب ما يَجعلُني أعتقد أن في استئذانكم لإتمام هذه اللقاءات نوعًا من تحميلكم لمسئولية لا أعتقد أنكم تَرغَبون فيها. وإذا كانت الصين قد حسَّنت علاقاتها بأمريكا نتيجة لديبلوماسية «البنج بونج»، وحديث ليوتشاوتشي مع لاعبي البنج بونج فإن ديبلوماسية الكتابة تكون في رأيي مستوًى أفضل للنقاش؛ إذ في هذه الحالة لا تحمل قيادة الدولة السياسية أي تبعة، وبالمثل لا تُحمِّل شخص رئيس البلد الآخر أي تبعة.

ولقد قابلت في عهد الرئيس عبد الناصر والرئيس السادات كثيرًا من رؤساء الدول العرب، بل لقد قابَلني الرئيس صدام حسين في العراق، والحكومة المصرية في عهد الرئيس السادات في قمة الأزمة مع العراق عام ٨٠ ولم يَحدُث أبدًا أن لامني أيٌّ من الرئيسين لأني قابلت أحدًا دون استئذان.

وربما كان من الواجب أن أستأذن، ولكن ربما لأني لستُ مشتغلًا بالسياسة لا أعرف هذا النوع من البروتوكول، ولهذا أعتذر يا سيادة الرئيس عن خطأٍ لم أقصده، أمَّا اللقاء نفسه وموضوعه ودوري في محاولة شرح وجهة النظر المصرية لكثيرٍ من القضايا التي تأخذها علينا دول الرفض ورأي هؤلاء في سياستنا، فهو ما رفضتُم سيادتكم أن تُقابلوني أو تسمعوه، ولقد احترمت تمامًا موقفكم؛ فأنتم لكم رجالكم ولكم وسائلكم التي يبدو أنني أقحمتُ نفسي، من تلقاء نفسي، بحسن نية عليها، ولهذا وإمعانًا مني في إطلاعكم على ما دار قبل أن يُبادر أي واحد آخر، اتصلت بمجرد أن وضعت قدمي على أرض الوطن بمكتب سيادتكم، وذكرتُ أني كنت في ليبيا وأن هناك رسالة، وكررتُ طلب اللقاء أكثر من مرة مخافة أن تكون المكالمة قد وصلتْكم ناقصة، وحين تأكد لي أنكم عرفتم، وأنكم لا ترغبون في لقائي أو تحمُّل تبعة ما يكون قد دار في هذا اللقاء، احترمت تمامًا رغبة سيادتكم وكتبتُ الخطاب وأوصلته بنفسي لمكتب سيادتكم.

هذه قضية

ولكنها منفصلة تمامًا عن مقالاتي يا سيادة الرئيس وخلطها بالمقالات مسألة مغرضة تمامًا أرادوا بها تأليب سيادتكم عليَّ إلى درجة أن تَذكُروها مقرونة بخمسة آلاف دولار.

سيادة الرئيس ...

إني أتظلم من سيادتكم لسيادتكم.

وإذا كنتُ قد أخطأت في عدم الاستئذان، ومهما كان تأليبهم، فهذا شيء، وطعني في شرفي وعلى الملأ هكذا، مسألة أهون منها عندي حكم الإعدام.

إذ إن طعن الكاتب في شرفه، من رئيس الدولة، إعدام؛ إنه حكم بالإعدام، وإعدام غير مشرِّف.

سيادة الرئيس ...

إني ألتمس منكم أن توضِّحوا الحقيقة للناس، كما تفضلتم بتوضيح الحقيقة بالنسبة لمقابلتكم؛ فقد ذكرتُم أنكم تُقابلون الجميع، وليس معنى مقابلتي أن أستغل علاقتي بكم، وهو الحقيقة فعلًا وهو ما أُوافِق عليه وأخضع له وأحترمه، وإذا كان الشيخ النمر قد أراد أن يصطاد في الماء الرائق فقد كان واضحًا أنه لا صيد هناك.

أمَّا إذا كان بعض الناس وبعض الأجهزة قد وضعت أمام سيادتكم معلومات هي التي دفعتكم لهذا القول، فإني لا أُطالب فقط برد اعتباري، وإنما أطلب وألحُّ أن يحاسب هؤلاء الأشخاص وتحاسب تلك الأجهزة.

يا سيادة الرئيس ...

ألا ترى، ويرى الشعب معك أنني ضحية مؤامرة كبرى، من أكبر جريدتين في بلادنا، ومن صحيفة الحزب، وأخبار اليوم، وعشرات الأقلام الخبيثة، مؤامرة تريد أن تؤلب الرأي العام والقوات المسلحة، والرئاسة ضدي، وضدي بالذات؛ فالأستاذ محمد حسنين هيكل يريدون أن يُصفُّوا معه حسابات قديمة، أمَّا أنا فيريدون إعدامي، معنويًّا على الأقل.

في وسط هذا الدخان الكثيف الذي يُريدون أن يُعموا به العيون في وسط هذه الجحافل التي تُواجِهني، وأنا وحدي ليس معي سوى الله، وأنا أعزل إلا من قلمي المحجور عليه من صحافتنا، والذي لولا «الأحرار» لأُخرسَ هو الآخر، ونجحت المؤامرة تمامًا.

في وسط هذه المؤامرة الكبرى لمن ألجأ ليَحميَني من الذئاب المطلقة؟ لمن ألجأ ليحميني من أجهزة تخضع له؟

لمن ألجأ من أناس يريدون الرقص على جثتي، لمن ألجأ إلا لرئيس الدولة، إلا لك؟!

سيادة الرئيس، إني ألجأ إليك تظلُّمًا منك؛ فأنا كفيل بهم جميعًا، أمَّا حين يستغيثون بك وتُنصفهم، فهنا لا أملك إلا أن أتظلم منك إليك.

إني مطعون وجريح الكرامة، وممنوع من الكتابة والتعبير في جريدتي، وهم أحرار طُلَقاء يعيثون في الأرض، ولكن الله معي، لأنَّ الحق والحقيقة معي.

ودمتم يا سيادة الرئيس.

(٥) يوسف إدريس مظلوم

حينما بدأتِ الحملة الضارية ضد الدكتور يوسف إدريس، بدعوى أنه قال عن حرب سنة ١٩٧٣ أنها مسرحية جيدة أو أنها حرب ملفَّقة، خُيِّلَ إليَّ أن السماء انطبقت على الأرض، وأن زلزالًا اجتاح مصر، فكاد يَقتلعها من أساسها، والحق أنَّني هنأتُ نفسي، لا لأني صدَّقت الحملة ولأنني سيئ العلاقة بيوسف إدريس، فسرَّني أن يكون هدف الحملة، كانت تُبيح دمه، أو تحدد ثمنًا لرأسه، بل لأن شكواي منذ سنوات طويلة هو البلادَة والثلج الذي تُقابَل به أكبر الأحداث وأخطرها، وأشدها مساسًا بالعرض القومي بالمصلحة العامة، كأنَّ الناس قد تجرعوا قدرًا كبيرًا من المخدِّرات والمنوِّمات، حتى فقدت الأحداث تأثيرها، وتشابهت الأمور عندهم، فلا شيء يؤلم، ولا حدث يثير، ولا خسارة تُفزِع، ولا مُصيبة تُطلِق صرخة واحدة من صرخات الرفض أو الاحتجاج، وكأننا بلغنا حد الموت، غِبنا جميعًا عن الوجود، عندما وقعت غزوة لبنان، ثُمَّ اقتحام بيروت، ثُمَّ مذبحة صابرا وشاتيلا؛ فقد كانت أنباء هذه المصائب والفواجع والكوارث تتوالى، والناس في الطريق وفي المكاتب وفي المحاكم وفي الدور والملاهي، هم الناس، لا تقرأ على وجوههم مظهرًا واحدًا يدلُّ على أنهم سمعوا بها، أو عرفوا شيئًا عنها.

فلما انفجر دويُّ الحملة على هيكل وإدريس، وتوالت الصفحات، والمقالات والتحقيقات والأحاديث والتعليقات، وشملت رجال الدين، ورجال الجيش، والمفكرين والذين لا يُفكِّرون، والعلماء والأميين؛ تساءلت ما الذي حدث لهؤلاء حتى بُعِثوا من القبور، وعادوا إلى الحياة وتألموا، وتكلموا وعلَّقوا وعلَّموا، وهبهم الله الفصاحة والبلاغة. إنَّ فضائح صابرا وشاتيلا أخرجت في تل أبيب مظاهرة من نصف مليون يهودي، وأخرَجَت آلاف الناس من بيوتهم، في عواصم الدنيا، فاصطدموا بالشرطة، وسالت الدماء، وقُبض على شباب، وأُقيمَت متاريس، وأُنسِيتُ نفسي ما جرى في لبنان وبيروت وصابرا وشاتيلا لكي أَستمتِع بهذه الروح التي تنتفِض بها طائفة من أهل بلدي، وقلت لعله بداية خير،

أرى بعدها هذه الأقلام ذاتها، وهذه الشخصيات بعينها كلما نزلت نازلة، وكلما نال الشرف الوطني عدوان، فلا نستلزم للصفح والركل، والدَّوس على أجسامنا ورءوسنا بالنعال والأقدام، ولكن تسلَّل إلى ذهني شعور بأن يوسف إدريس مظلوم، لسبب واحد؛ هو أن كل الذين حملوا عليه وشقوا الجيوب ألمًا ولطموا الخدود حزنًا، لم يتفضَّلوا علينا بإيراد العبارة التي قالها الدكتور يوسف إدريس في مقاله مسبوقةً بمقدماتها، وملحَقَة بخواتيمها؛ فالمفروض عندما يكون الأمر متعلقًا بالقوة على نص أن يُذكَر النص، ويُعرَض على القراء، ويُحلَّل ويُشرَح، ويُنظَر إليه من كل ناحية وزاوية.

وزاد من شعوري بأن الدكتور إدريس مظلوم، أنه عوقب وذُبح على واقعة نُسبت إليه دون أن يُحقَّق معه ولو صحفيًّا، والذي أعرفه أنه حينما تصل الأمور إلى هذه الدرجة من الخطورة يجب ألا نلجأ لإجراءات دواوين التفتيش، فلا نأخذ الإنسان من الدار إلى النار دون أن يُتاح للمتهم المحكوم عليه أن يَفتح فمه بكلمة، وزاد من شعوري بأن في الأمر مبالغة وتجاوزًا تجاوَز المشروع أن جرائد الحكومة خلت من عبارة واحدة صدرت من الدكتور يوسف إدريس يُعقِّب بها على ما نُسبَ إليه وما استدعى تمزيق ثيابه على الطريق العام ورجمه بالحجارة، وقد استباح كلٌّ من سوَّلت له نفسه أن ينهش لحمه أو يُسيِّل دمه.

كان كل ذلك سيئًا بالغ السوء ومُثيرًا إلى حد استدرار الدمع من العيون، وبعد فترة قصيرة، ولكنها بدت طويلة كالدهور، قيل لي إن الدكتور يوسف إدريس سأل عني، فتنفَّستُ الصعداء وقلت خيرًا، سأعلم منه الخبر واليقين، وجاء إلى مكتبي، وأحسستُ بعمق الألم الذي يعاني منه، لا يتحمَّله فقط، ولكن لأن أحدًا من المثقفين أو صحفهم لم يقف معه ولم يُدافع عنه، فقلت له بصوت خافت: ربما لأن ما نُسب إليه بدا للناس أنه خطير، لقد وصفوك بأنك أضعت على الناس المجد الوحيد الذي ظفروا به وسط خرائب وأطلال أعوام طويلة ذاقت فيها المهانة. فقال في احتجاج البريء الواثق من براءته: ولكني لم أقل حرفًا مما نُسب إليَّ. فقلت فيما يشبه الصرخة: ألم تقل إن حرب ٧٣ كانت مسرحية أو ملفَّقة؟ ففوجئت به يقول وهو يشعر بفداحة الظلم: مُطلقًا … لم أقل شيئًا من هذا القبيل مطلقًا. ولا أطيل على القارئ، فقلت له: أرسل إليَّ نصَّ المقال الذي قالوا إنك قلت فيه هذه العبارة.

فأرسل إليَّ المقال، وأنا أنقل عنه جميع ما جاء به في هذا الصدد فقال:

> لقد زُرت من عامين المكان الذي عبر منه الجيش الشاروني الإسرائيلي القناة من شرقها إلى غربها ليصنع ما سماه السادات الثَّغرة التليفزيونية، وهالني الأمر تمامًا؛ فالقناة عند ذلك المكان أوسع كثيرًا من عرض النيل الذي أُقيم عنده السد العالي، ذلك السد الذي استغرقت إقامته عدة سنوات، فهل يتسنَّى لمجاميع قليلة من جيش متسلل محصور بين جيشنا الرهيب الأول والثاني؟ وكيف يتسنى لتلك المجاميع أن تسدَّ القناة في ظرف ساعات محدودة! إنها كذبة كبرى، إنني أطلب وألح أن تتشكَّل لجنة عسكرية هندسية من الجيش المصري، لتُقدِّر كم العمل اللازم لإقامة طريق بحري مسفلَت طوله كيلومتر على الأقل، وقاعدته لا يمكن أن تقلَّ عن خمسين مترًا، وارتفاع لا يقل بأي حال من عمق القناة زائدة عشرة أمتار بأقل تقدير من سطح الماء إلى سطح الأرض. إني متأكد أن أي طالب هندسة أو حتى أي مقاول صغير إذا رأى المكان وعرف أبعاده لا يُمكِن إلا أن يؤكد أنه عمل لا بُدَّ أن يتطلَّب شهورًا طويلةً في ظل وفرة الأيدي العاملة وفي ظروف سلام تام مواتية، أمَّا أن يقول الإسرائيليون أو يقول بعض المختارين من المصريين إنه عمل قد تم خلال ٤٨ ساعة على الأكثر، فهذا كذب بعينه، أو بالأصح هو التمويه المراد به أن يصرف شعبنا عن حقيقة لا بُدَّ لمن يرى المكان أن يُدركها.

هذا نص ما قاله الدكتور يوسف إدريس، لم أحذف منه ولم أُضِف إليه، المعنى الذي تتضمنه السطور التي عليها ظلٌّ من غموض، وللقارئ أن يقرأ هذه السطور ويُعيد قراءتها ليسمع بعد ذلك ملاحظاتنا الصريحة:

أوَّلًا: إن هذه السطور وما تلاها ويكملها، لم ترد فيها مطلقًا، لا صراحةً ولا ضمنًا، عبارة أن حرب ٧٣ كانت مسرحية جيدة، ولا أنها حرب ملفَّقة، ومِنْ ثَمَّ فإن نسبة هذه العبارة إلى الدكتور يوسف إدريس اجتراء على الواقع، لا أجد لها تفسيرًا؛ إذ ما دامت الضجة الرهيبة التي حدَثَت كانت الغاية منها الدفاع عن قواتنا المسلحة، ورفض شُبهة توجيه الإهانة لها، أو تلوُّث شرف البلاد، والحط من انتصاراتها العظيمة، فلماذا لا نكون أُمَناء في النقل، ولماذا لا يقع الحساب على الفعل الضار من المواطن الذي أخطأ في رأي السلطة، وصحافة السلطة، حتى نُعطيَ للمواطنين درسًا في الجدل السياسي

السليم، ونؤكِّد للناس كافة أن الدولة وصحافتها شعارها وآثارها الأمانة، ودستورها وقانونها الصدق والدقة.

ثانيًا: إنَّ هذه العبارة المنقولة تنصبُّ أساسًا، وتنصبُّ فقط، على واقعة الديفرسوار فقط، وكلنا يعرف كيف أحزنتنا ثغرة الديفرسوار؛ لأنها شابت انتصارنا العظيم، بآفة التقصير أو التساهُل أو الإهمال؛ فقد كان الشعب المصري كله حزينًا لهذه الثغرة، وكان يَودُّ أن تخلو هذه الصفحة الرائعة صفحة حرب سنة ٧٣ خالية من تلك الشائبة المؤلمة التي حرص كيسنجر وبنو جلدته من اليهود أن يحدثها، أوَّلًا ليُعكِّر على المصريين فرحتهم بانتصارهم العظيم وتَرديد أكذوبة أن جيش إسرائيل جيش لا يُهزَم، وأن انتصاراته من قبيل انتصارات هتلر الساحقة «بليتز»، والتي تُبدِّد الأعداء وتمزقهم أشلاءً في دقائق أو على الأكثر ساعات.

وكلنا يعرف أن هذه الثغرة المشئومة قد أتاحت لليهود أن يَصِلوا ببعض قواتهم إلى أبواب السويس، وأن تذهب جولدا مائير إلى الزيتية لتؤخذ لها صورة يُكتَب تحتها أنها وصلت إلى السويس كذبًا.

وأن هذه الثغرة أدت إلى سدِّ طريق السويس القاهرة، وإلى إجراء مفاوضات آلمت المصريين والعرب جميعًا عند الكيلو «١٠١» الذي صُوِّرت مشاهده ووزعت على أركان المعمورة الأربعة، وقد شاهدنا في هذه الصور الفريق عبد الغني الجمسي يُقابِل الجنرال اليهودي في خيمته هناك وقد علت وجهه آيات الكآبة والتجهُّم.

بل إنني سمعت أن اليهود انتهزوا فرصة هذه الثغرة، وأرسلوا طابورًا ميكانيكيًّا تدفَّق من السويس إلى وادي حُوف على مَشارف القاهرة من ناحية حلوان، ليُثبِتوا أنهم وصلوا إلى القاهرة، وأن هذا دفَعَ الاتحاد السوفيتي إلى حين أقرَّ بتعبئة الأسطول في شرق البحر الأبيض المتوسط، وقد ردَّت أمريكا على هذا الإجراء، فوضَعَ السيد الأمريكي إصبعه على أزرار الدرجة الأولى من درجات التعبئة النووية.

وخُلاصة القول: إن هذه الثغرة جزء خطير في حرب سنة ٧٣، ومن حقنا جميعًا أن نتكلم فيه، وأن ندرسه، وأن نَعرف ظروف وقوعه، وأن نحاسب الذين أخطئوا أو مهَّدوا لوقوعه إن كان هناك خطأ، أو أن يترتَّب أنه لا خطأ ولا إهمال، وإنما هي مخاطر الحرب العادية.

ومن حسن الحظ أن رجلًا ذا قيمة واعتبار، وصَل إلى أعلى درجات العمل العسكري والسياسي معًا، وعُرف عنه الأمانة والكفاءة، ذلك هو السيد حافظ إسماعيل مستشار الأمن

القومي لحكم السادات عام ١٩٧٣ قد كتب في المصور يقول: إنَّ احتمال الثغرة كان قائمًا وموجودًا لدى الجيش المصري وحتى لدى الجيش الإسرائيلي، وإن القوات المسلحة المصرية كانت قد درَّبت لواءً مدرَّعًا خصيصًا لضرب الثغرة إذا حدَثَت، وحين بدأت طلائع الثغرة وطلب قواد الميدان تحريك اللواء من البر الغربي إلى الشرقي لتَضرِبها رفض السادات بشدة، حتى أصبحت الدبابات السبع أربعمائة دبابة، وحتى أصبح الموقف ميئوسًا منه.

فتحي رضوان

(٦) حرب سنة ١٩٧٣ «ونتائجها»

وعدتُ في المقال السابق، بتناول موضوع الجيش — أي جيش — ومعركة بعينها من معارك هذا الجيش؛ ففي مصر — هذه الأيام الأخيرة — يقع خلط مقصود ومتعمَّد بين الجيش المصري، بوصفه مؤسسة ذات كيان معنوي ضارب في أعماق التاريخ، ومُمتَد مع مستقبل الأيام بغير حدود، وبين هزيمة الجيش المصري في معركة أو معارك أو في جيل من أجيال بلادنا، والخلط بين هذين الأمرين، يتفرع عن فرض مرفوض، خلاصته أن «السادات هو مصر»، وأن المساس بالسادات هو مساس بمصر ذاتها، ومِنْ ثَمَّ فإن الواجب أن يَهيج هائج جماعة بعينها اغترفت من خبرات عهد السادات مالًا ونفوذًا وجاهًا، فملأها إحساسٌ مرَضي بالاعتراف بجميلِه عليها، يحفزها إلى الصراخ بأعلى صوتٍ، دفاعًا عنه، لا بوصفه الشخص الزائل، بل بدعوى أنه مصر المقدَّسة.

ولكن أن يُخيفنا صراخ هذه الطُّغمة التي هرب بعض زعمائها من المحاكم ومن مصر، والتي يدخل بعضها السجن لفترة، وكأن السجن مستشفًى للنقاهة وانتجاع الصحة، والتي تردُ أسماؤهم في الأحكام، في التحقيق فالمُحاكمة، فيما يأذن الله العالم بالغيب؛ أن يُخيفنا صراخ هؤلاء فهم مدرَّبون عليه؛ فالحقيقة لا يؤثر فيها صراخ ولا نباح؛ فالجيش آخر الأمر هو مؤسسة قومية أقامها الوطن دفاعًا عن حياته، وذودًا عن شرفه وأمنه، وهي أوَّلًا وأخيرًا تُمثِّل قواه، وينعكس عليها ضعفه، وتبقى بعد ذلك لتؤدي واجبها، بالبذل والتضحية، وبما يوضع في يد أفرادها من سلاح، حسبما يرسم لها من خطة، ويُحدَّد لها من هدف.

ولما كان من أحكام الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾، فإن الجيش مهما بلغ من شدة مراسه وتتابع انتصاراته، لا بُدَّ له من يوم يُصاب فيه بالهزيمة، والمسلمون

— والرسول بين ظَهرانيهم — كتَبَ الله لهم النصر في بدر، ثُمَّ نالتهم الهزيمة في آخر الأمر في أحد، ويوم حُنين غرَّتهم كثرتهم حتى كاد يُفلت من أيديهم الفوز على أعدائهم، لولا ثبَّتَ الله الرسول عليه الصلاة والسلام الذي وقَفَ يدعو في أخراهم، حتى تابوا إلى دينهم، وثبَتُوا في وجه أعدائهم.

فالقول بأنَّ التحدُّث عن هزائم الجيش المصري معناه الحطُّ من قدر الجيش المصري العظيم، الذي امتدَّت أمجاده، قرونًا بعد قرون وأجيالًا بعد أجيال، هو كلام فارغ، لا يجوز الاستماع إليه، أو التأثُّر به. وهؤلاء الذين يَتصايَحُون إذا ناقَشَ أحدُ الكتاب، بينما في حرب سنة ١٩٧٣ قد سَخِروا من كل ما يتصلُّ بحرب سنة ١٩٦٧، والجيش الذي حارب سنة ١٩٧٣ هو نفسه الذي حارب سنة ١٩٦٧، ولا أحد يدعي أن حرب سنة ١٩٦٧ كانت نصرًا، ولا أحد يُمكن أن يقول إن حرب ١٩٧٣ خلت من الهنات التي تُثير التساؤل أو تدعو إلى تسجيل الأسف أو الألم. إن كانت مصر عاجزة أن تمضي بهذه الحرب إلى أحد الغايات التي قال لنا السيد حافظ إسماعيل الذي كان يومًا رئيسًا للأمن القومي، والذي شغل مناصب رفيعة في السلك السياسي، إنها لم تكن من الأهداف التي تغيَّتها حرب ٧٣، أي التي جعلتْها غاية من غاياتها وهي بالضبط، ونقلًا عنه، فقد قال:

> لم تكن حرب «٧٣» تَستهدِف تدمير القوات العسكرية الإسرائيلية لفرض صُلح نهائي؛ فذلك أمر لم تكن موازَنات وعلاقات القوى تأذن به، ولم يكن الهدف هو التحرير العسكري الشامل لسيناء؛ فالقيادات العسكرية المصرية كانت تُقدِّر أن تحقيق هذا الهدف يَتطلَّب من الموارد ما لم يكن مُتاحًا في حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣.
>
> ولم تستهدف العمليات استعادة السيطرة على منطقة استراتيجية كالممرات وشرم الشيخ أو اقتصادية؛ آبار البترول.

لا، كان هدف العملية محددًا، يأخذ في الاعتبار العوامل السياسية والعسكرية على المستوى العالمي والإقليمي، وكانت النتائج التي حقَّقتْها أو لم تُحقِّقها زيارة السيد حافظ إسماعيل لواشنطن قبيل الحرب. والمواقف التي اتَّخذها الرئيس الأمريكي — ومستشاره للأمن القومي كيسنجر — من هذه الاعتبارات.

ولا أحسب أن أحدًا يُمكن أن يغضب من الشعب المصري بأسره، أو من بعض أفراد في هذا الشعب، إذا أحزنَتْهم النتائج المحدَّدة، التي أسفرت عنها حرب ١٩٧٣، فبدت ضئيلة، إلى جانب النصر العسكري الضخم، الذي زلزل إسرائيل إلى الأعماق، حتى اعترفت في المباحثات التمهيدية لاتفاقية السلام والتي جرَتْ في المغرب، تحت إشراف الملك حسن وبمشاركته، أن الجنود الإسرائيليِّين كانوا يرفضون ابتداءً من اليوم الرابع الذهاب إلى سيناء، خوفًا من الهلاك والموت المحقَّق الذي ينتظرهم؛ فالشعب المصري، لم يطلع على خطة تلك الحرب، ولم يعرف أنها لم تحد عن أهدافها هدفًا واحدًا من هذه الأهداف التي ذكرها السيد حافظ إسماعيل، ولم يكن في وسعه أن يفهم سببًا لهذا القرار العجيب، وكان حقًّا ولو لعدد من المفكرين المصريين أن يتصور — بعد أن ذكر السادات أن العرب كانوا جثثًا هامدةً في الفترة السابقة على الحرب، وأن كيسنجر أعلن أنه لا بأس من تسخين الموقف نوعًا ما — أن التسخين المطلوب من مستشار أمريكا للأمن القومي قد تحقَّق بالفعل دون أن يتجاوَز درجة التسخين المرجو، وبعد أن تم التسخين فعلًا بالعبور الرائع للجيش المصري، وجَبَ أن تقف الحرب عند هذا القدر المُتواضِع أو الضئيل، وأن تبدأ المفاوضات التي كانت الهدف الحقيقي، والهدف الوحيد هذا الذي وقع — ولا داعي لأن نصف «هذا الذي وقع» — فإن الظروف كما حدَّدها السيد حافظ إسماعيل بصراحة ووضوح لا تحتاج إلى اسم ولا إلى وصف. ولا أكتم القارئ أنني فُجعت ولا أقول صُدمت، حينما أعلن السادات في مجلس الشعب، والحرب تجري على أحسن حال، بأن ليس في وسع مصر أن تتصدَّى للولايات المتحدة التي منعت جيشنا من الاسترسال في الحرب، وأنه يقترح لذلك أن يجلس العرب أجمعون — لا مصر وحدها — ويتفاوضوا مع الإسرائيليين، بعد أن أصبح في مقدورهم أن يُحاوِرُوا من موضع القوة مع عبارات خالية من كل لوم أو نقد أو حتى عتاب للولايات المتحدة التي عفَّرت انتصارنا، وأقامت سدًّا في وجه قواتنا، وأضاعت علينا حربًا.

ولا أظن أن أي إنسان يذهب إلى الظن — آنذاك — بأن هذه الحرب — العظيمة — كانت مشهدًا ومدخلًا مقصودًا لهذه المفاوضات، وأن كيسنجر اليهودي الذي اجتمعت في شخصه وفي ظروف ظهورِه ما لم يجتمع في أي يهودي آخر ألحَقَ الأذى والضرر بالعرب أو الشرقيين.

ولا أحد يمكن أن يلوم إنسانًا ما، إذا أراد أن يُفرِّق بين حرب سنة ١٩٧٣ والتي كانت معركة من أعظم معارك القرن العشرين، على الرغم من أهدافها المحدودة، وانتشارها، أي قطع الطريق في وجهها، بفعل أمريكا عدوَّة المصريين والعرب والمسلمين؛ فقد دمرت أكذوبة أن جيش إسرائيل هو جيش، وهو جيش لا يُهزَم، وكشفت — ولو في لمحة — مقدار ما تنطوي عليه النفس المصرية العربية من طاقات هائلة، وفجرت حرب البترول، وأثخنَت أوروبا وأمريكا جراحًا، هذه الحرب لا شأن لها بالمقدمات السياسية التي يحدثنا عنها السيد حافظ إسماعيل، وهذه التقديرات والحسابات التي تمت في دهاليز مصر وواشنطن، والتي لعب فيها كيسنجر بهلوان السياسة اليهودية وألعبانها المصنوع خصيصًا لبُلَهاء العرب، ولزعماء مِن وَرَق، ولأمم خلت من الإيمان بنفسها وبأيِّ هدف عظيم من أهداف الأمم والشعوب، تلك حرب نَحني لجنودها وضباطها الرأس إعجابًا، ونشيد بوقائعها وأمجادها، وعيوننا مليئة بالدموع ونفوسنا تذهب حسرات؛ إذ بدل أن تكون مدخلًا لدور عظيم من أدوار كفاح العرب بعيدًا عن الهيمنة الأمريكية وسلاحها وعتادها ومعلوماتها جلبنا على أنفسنا الخزي، ومرَّغنا رءوسنا في التراب، وانتهينا إلى ما نُشاهد ونعاني منه إلى اليوم، من واقع الضعف والهوان التي لم تحسَّ به بلادنا منذ وُلدت مصر على ضفاف النيل، وحقَّقت حضارتها حضارة بعد حضارة، ورسالة بعد رسالة، وثقافة بعد ثقافة. لقد لوَّثْنا هذا النصر الشامخ بهذه النتيجة السياسية المُخجِلة ولقد فتحنا باب الشكوك والهواجس، على قلوب تؤمن بوطنها ومجد جيشها، وعظمة الحقائق والمحاربين من أبنائها.

وآخر الأمر، فإن يوسف إدريس الذي خرج كل من يخزيهم ويُحرِجهم، أن تعلن كل الحقائق، وتذكر كل الشُّبهات لَيرجُمه بحجر، بدعوى التحمس للجيش المصري وأمجاده، والجيش المصري وأمجاده بريء منهم، وبعيدٌ عنهم، قلنا في المقال السابق، ونقول اليوم إنه مظلوم، وأنهم نسبوا إليه ما لم يقله، وأنهم على أسوأ الفروض حرموا عليه أن يتساءل عن أمور تستدعي التساؤل حقًّا، للمصلحة القومية من جهة، ولمعرفة الحقيقة من جهة أخرى، وبعثًا لقلق المواطنين المكتوم، وتمسكهم الممنوع، ويبدو أن «ليوسف» من اسمه نصيب؛ فقد شهد شاهدٌ من أهله على براءته وحسن نواياه، كما شهد من قبل ليوسف الصديق، والله يدافع عن الذين آمنوا وحسنت نواياهم.

فتحي رضوان

(٧) تعليق جريدة الشعب

«عدم جواز إدانة صاحب قلم يَتقاضى مبالغ من رئيس دول عربية قبل ثبوتها بتحقيق قضائي.»

اتهم الرئيس حسني مبارك في خطابه يوم عيد العمال كاتبًا معروفًا، هو الأستاذ يوسف إدريس، اتهامًا خطيرًا، يُعتبَر حسب تعبير الكاتب طعنة في صميم وطنيته وذمته وكبريائه، ومجمل هذا الاتهام أنه تقاضى خمسة آلاف دولار من الرئيس الليبي معمر القذافي ليكتب مقالاته التي أُثير حولها الصخَب والضجيج دون أن يطَّلع أحدٌ عليها، ودون أن يسمح لكاتبها ببيان وجهة نظره.

وقد أنكر الكاتب الموجه له هذا الاتهام الخطير على لسان رئيس الدولة، طعن به ونشر مقالًا بهذا المعنى في صحيفة الأحرار، وهي الصحيفة التي قال إنها قبلَتْ أن تنشر له دفاعًا عن نفسه بعد أن أغلقت الصحف المسمَّاة بالقومية في وجهه حتى جريدة الأهرام التي يعمل بها.

وصاغ الكاتب هذا المقال في صورة خطاب مفتوح إلى الرئيس مبارك بعنوان «إنني أتظلم منك ... إليك» وأُعلن فيه أن طعني في شرفي وعلى الملأ هكذا، مسألة أهون منها عندي حكم الإعدام؛ إذ أن طعن الكاتب في شرفه من رئيس الدولة، إعدام، إنه حكم بالإعدام، وإعدام غير مشرف، وذكر أنه يَجب الفصل بين مقابلته للقَذافي التي أخطر الرئيس مبارك بعد عودته بما تمَّ فيها في خطاب سلَّمه لسكرتاريته الخاصة بعد أن عجز عن تحديد موعد لُمقابلتِه، وبين ما كتبه في إحدى الصحف العربية نتيجة عدم إتاحة الفرصة له بالكتابة بحُرية في جريدة الأهرام التي يعمل بها، وبين الاتهام الذي وجه إليه.

وقرَّر أنه ضحية مؤامرة كبرى من بعض الجرائد القومية وصحيفة مايو وعشرات الأقلام الخبيثة لتؤلف عليه الرأي العام والقوات المسلحة ورئيس الجمهورية، وأنه كان كفيلًا بهم، كان كفيلًا بهم جميعًا، أمَّا حين يَستغيثُون بالرئيس ويُنصِفهم فلا يمكن إلا أن يتظلم منه إليه.

وقال بصراحة إذا كان بعض الناس وبعض الأجهزة قد وضعت أمام سيادتكم معلومات هي التي دفعتْكم لهذا القول، فإنَّني لا أطالب فقط بردٍّ اعتباري، وإنما أطلب وألُّ أن يحاسب هؤلاء الأشخاص وتُحاسَب تلك الأجهزة.

وهذا ما نطالب به، وبالأخص في إجراء تحقيق قضائي حول هذا الاتهام الخطير؛ إذ أنها سابقة خطيرة أن تقدم اتهامات لشخصيات عامة أو خصوم سياسيين أو أصحاب

الفكر وحملة الأقلام ضمن تقارير مشكوك فيها ودون أن تَستنِد إلى إدانة قاطعة تُعرض على القضاء للتحقُّق منها قبل أن تلطخ سمعة أحد من هؤلاء؛ لما يَنطوي عليه ذلك من إرهاب فكري شنيع.

وإذا كان وزير الداخلية السابق نبوي إسماعيل قد لجأ إلى هذا الأسلوب بالنسبة لاتهام النائب السابق أحمد طه وآخرين معه بالتخابُر مع دولة أجنبية هي بلغاريا للتأثير على موقفه الانتخابي، وبالنسبة لاتهام المرحوم الدكتور المهندس محمود القاضي ونائب رئيس مجلس الوزراء السابق عبد السلام الزيات وعدد من الشخصيات السياسية ممن كانوا تحت التحفُّظ في سبتمبر المشئوم بالتخابُر مع دولة أجنبية وهي الاتحاد السوفيتي، ثُمَّ ثبَت من التحقيق في الاتهامَين عدم صحَّتهما؛ فإنه من الواجب وضع حدٍّ لمثل هذه التلفيقات البشعة التي كُنَّا نعتقد أنها انتهَت بانتهاء عهد نبوي إسماعيل الذي يَجب محاكمته عنها.

(٨) عصر التشكيك في البديهيات

المرارة التي يشعر بها المرء لدى مُتابعتِه لما يُكتَب ويُقال بمناسَبة نشر بعض فصول للأستاذ هيكل عن حياة السادات، وبمناسبة ظهور بعض عَناوين لمقال أو مقالات للدكتور يوسف إدريس مرارة يعجز أي قلم عن التعبير عنها؛ فقد أثارت هذه الزوبعة كل هموم المواطن المصري عن الحرية والديمقراطية، وعن أبسط حقوقه في التفكير وإبداء الراي، وحقه في ألا يُهان أمام الملأ ثُمَّ يُحرَم من حق الرد على الإهانة.

كما أثارَت ذكريات قديمة عن عصر كُنَّا نظن — أو على الأقل نأمل — أن يكون قد ذهب بلا رجعة، كان من حق فرد فيه أو مجموعة من الأفراد الذين لم يَنتخِبهم أحد ولم يجمع على حسن رأيهم، أن يقولوا لنا ما هو الشرف وما هو العيب، وما هي الأخلاق وما هي البذاءة، وكيف يجب أن يكون حب مصر، وكيف تكون خيانتها، ومن هو المتحضر من الغرب ومن هو غير المتحضر، ثُمَّ يَروحون يُطبقون مفهومهم الخاص جِدًّا والشخصي جِدًّا عن كل ذلك، على من أجمع الناس على شرفهم ووطنيتهم، أو على الأقل من يتمتَّعون بتأييد عدد غفير من الناس، يُحبونهم ويقرءون لهم، فيحرمون هذا من حقه في الكتابة والنشر، ويضعون ذلك في السجن، ويُكرِّسون وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية في تلويث سمعتهم.

كُنَّا نظن أو نأمل أن يكون هذا العهد قد زال وانتهى، فإذا به لم يَزُل ولم يَنتهِ، وإذا بالآمال التي عقدناها يحلُّ محلها الإحباط، وإذا بنفس الأشخاص الذين لم ينتخبهم أحد ولم يُجمِع على حسن رأيهم أحد يعقدون محاكم التفتيش ويمنحون صكوك الغفران ممن خان ميثاق الشرف الصحفي في رأيهم، ووجوههم القاسية المتجهمة تُذكرك بوجوه الكاردينالات الذين حاكموا جاليليو العظيم والذين لا يساوي واحدٌ منهم أو كلهم مجتمعين ظفر إصبع جاليليو العظيم، يَمنحون أنفسهم احتكار تفسير المشيئة الإلهية، ويُنصِّبون أنفسهم المفسرين الرسميين للفضيلة، دون أن يُستشار أحدٌ في أحقيتهم بهذه السلطة، فإذا تجرأ أحد على الدفاع عن نفسه قاطعوه وحقروه وصبوا عليه لعنة الدنيا والآخرة، ولم يكن يَدُر بخلد أحد أن مصر تعود أدراجها على هذا النحو إلى العصور الوسطى.

يُقال إنه ليس هناك صحافة في العالم تَنشُر ما تنشره الصحافة المعارضة في مصر، وأنا أقول: إنَّ المعارضة في مصر أشبه برجل محكوم عليه بالإعدام، يُقال له في لحظته الأخيرة: هل لديكَ رغبات قبل أن تَموت؟ فما الذي تنتظرونه من رجل هذه حاله؟ ما الذي تنتظرونه من رجل كلما فتح فمه للكلام قلتُم له: إنما أنت عبيد إحساناتنا، منحناك الحرية فاستخدمها — لعنك الله — على النحو الذي نرسمه لك. ثُمَّ لا تكفون عن ترديد عبارة: نحن نُحذِّر نحن نحذر. فإذا فقد الرجل رشده وضاع صوابه، وصاح من الألم والسلاسل تُقيِّد يديه وقدميه، قلتم له: إنك لم تخبرنا برأيك في الخطة ولم تُوجه النصائح الرشيدة للحكومة ولم تقل لنا رأيك في هذا المشروع أو ذاك.

المسألة إذن ليست إلا كقصة الذئب والحمل؛ فقد أعيانا تقديم الدليل على أننا لا نلوِّث سمعة مصر، بل نَفديها بدمائنا، فتأتون إلينا كل يوم بقصة جديدة، حتى لم يعد هناك شك في أنكم لا تريدون إلا اختفاءنا من الوجود.

إن المعركة كلها مفتعلة، لا تتعلق بأخلاقيات التعبير ولا ببطولة الجيش المصري في أكتوبر، ولا بسُمعة مصر في الخارج أو الداخل؛ فالذين يتظاهرون بحرصهم على أخلاق أو على سمعة مصر لا يُعرف عنهم محبة زائدة لمصر ولا عفة لسان غير عادية، وأحد مشاهير كُتَّابهم كتب منذ أيام قليلة يتهم طائفة كبيرة من الشعب المصري، هم المؤيدون لجمال عبد الناصر، بما لا يوصَف به غير شخص يُعاني من الشذوذ الجنسي، وكتَبَ هو نفسه في عمود يومي يقول: إنه لم يفهم قط أي معنى لعبارة مصطفى كامل الشهيرة: «لو لم أكن مصريًّا لوددت أن أكون مصريًّا.» ثُمَّ راح يُعدِّد نقائص المصريين. بل إني أزعم أن محبة هؤلاء المزعومة لشخص السادات زائفة، ولا تساوي قيمة الحبر الذي تُكتَب به؛

فقد أيَّد نفس هؤلاء نقيض سياسات السادات ودافعوا عنها، وأن المعركة سياسية يُراد بها الاحتفاظ بالمناصب والامتيازات لأطول فترة ممكنة، ويخشى أصحابها من أن يؤدي فتح ملف السادات إلى فتح ملفاتهم جميعًا.

يقول الرئيس: إننا لو قمنا بالتغيير الذي تطالبون به، لكان علينا تغيير نصف الشعب المصري. لا يا سيادة الرئيس، بل أقل من نصف في المائة، فإذا بدا لك أن الفاسدين كثيرون، فما ذلك إلا لأن الرائحة الكريهة تزكم أنوف الجميع، وليس للرائحة الطيبة قوتها ونفاذها، ومعظم الفاسدين ليسوا فاسدين بالطبيعة، بل فاسدون بالعدوى.

ولكن الأمر لم يعد يقتصر على السياسة، حينما يصل الأمر إلى تلويث سمعة واحد من أكبر كتاب مصر وأعظم كاتب للقصة القصيرة عرَفه العالم العربي، على مسمع الجميع، دون أن يُسمح له بالرد في نفس الجريدة التي يعمل بها وتُشهِّر به. إني لم أقرأ مقالات الدكتور يوسف إدريس التي يشيرون إليها، ولكن أيًّا كان ما كتبه الرجل، فقد قرأت له وقرأ العالم كله له ما يَكفي للتدليل على أن محبة الرجل لمصر تفوق محبة السادات لها، وأنه يُمثِّل مصر أفضل مائة مرة من تمثيل السادات لها، وأن تلويث سُمعته يُسيء إلى سمعة مصر أكثر مائة مرة من تلويث سمعة السادات. كما أني لم أقرأ إلا ما نُشر في مصر من كتاب الأستاذ هيكل، ولم أجد فيما نشر إساءة لسمعة مصر ولا تحقيرًا للأسود أو الأبيض، وإنما وجدت فيه نقدًا لحاكم حكم مصر فترة سوداء من تاريخها، لكاتب يُجيد الكتابة، ويتلهَّف الكثيرون على قراءة ما يكتب، عندما يخطئ وعندما يُصيب.

ولكننا نعيش في عصر سَمتُه التشكيك في البديهيات، فإذا بالكتابة في هذا العصر تتحول إلى محاولة إثبات ما يعرفه الطفل الصغير، وهو أن مصر شيء وحاكمها شيء آخر، وأن نقد الحكام حق وواجب، أمواتًا كانوا أم أحياءً، وأنه ليس من الجرائم أن تكتب في الخارج وتتلقى مكافأة على ما تكتب، وأن الكتب تُكتَب لتُقرأ لا لتُصادَر، وأن للمعارَضة أن تكتب ما تشاء وكيف تشاء، وأن للقارئ وحده هو الحكم فيما إذا كان ما يُكتَب يستحق القراءة أو لا يستحق.

د. جلال أمين


هنداوي